كمال جنبلاط

ثورة في عالمِ الإنسان

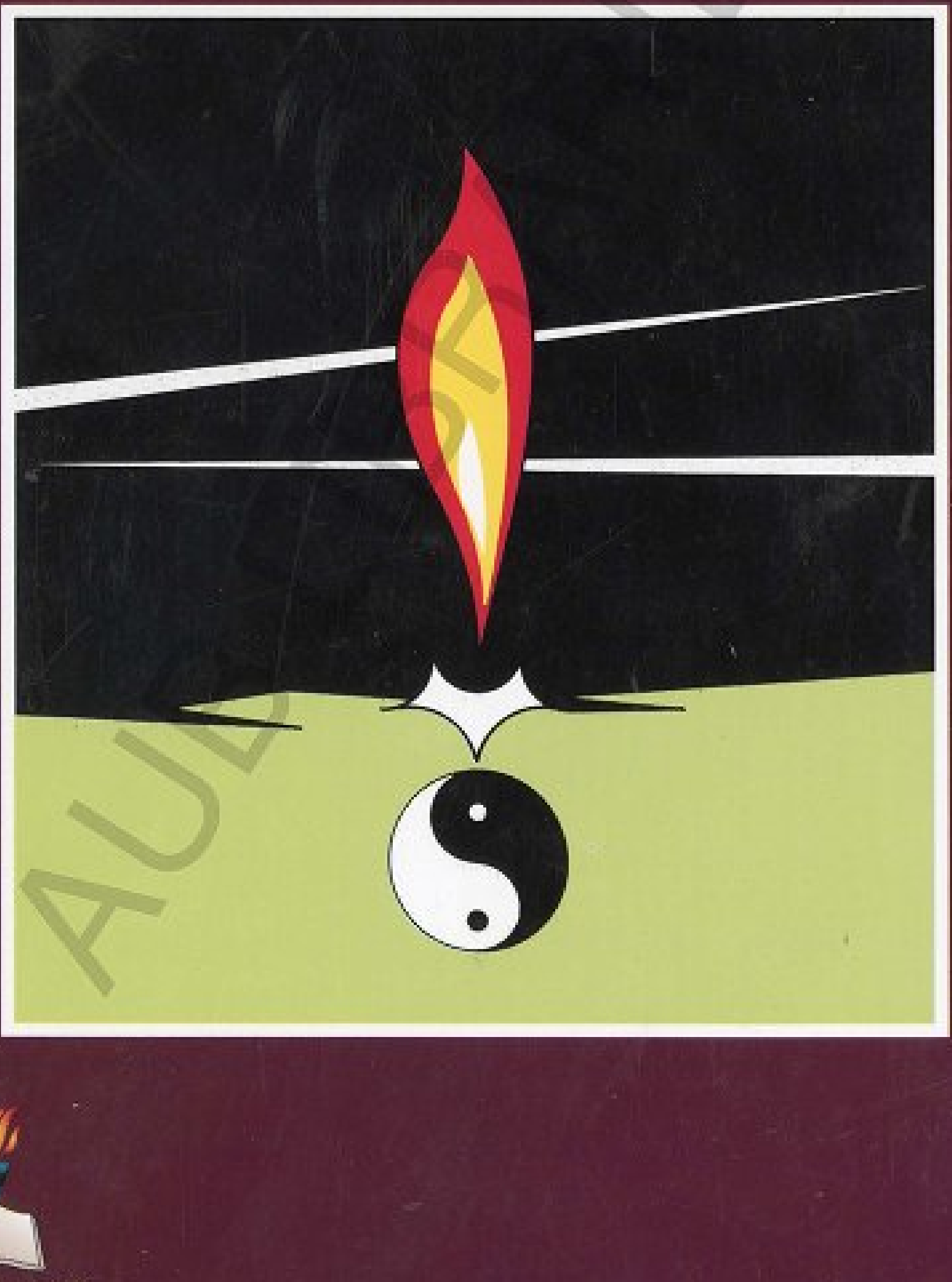

الدار التقدمية

AUB LIBRARIES

ثورة
في
عالم الانسان

335
J951tA
c.1

كمال جنبلاط

335
J951tA
1978
c.1

ثورة في عالم الإنسان

لجنة تراث القائد الشهيد كمال جنبلاط

١٦ آذار ١٩٧٨

AUB LIBRARIES

تمهيد

« ثورة في عالم الانسان » . من ابرز كتب الفلسفة السياسية التي وضعها كمال جنبلاط . وربما يكون تكثيفا لحصيلة خمس وعشرين سنة من التأمل والتجارب السياسية. فهذا الكتاب الذي صدر في العام ١٩٦٧، يتناول واضعه هموم جيله وعصره ، ويبلور المنحى الثوري الذي يحتاج اليه العالم الانساني الحاضر ، لكي تستقيم اوضاع مجتمعاته . هنا ، تحتل المقولة الاشتراكية ـ بعدما ركز جنبلاط على ماهية الديمقراطية في الخمسينات ، وكشف في الستينات مصاعب ووقائع الثورة اللبنانية في كتابين متكاملين هما حقيقة الثورة اللبنانية وفي مجرى السياسة اللبنانية ، مرورا بكتابه المتميز فيما يتعدى الحرف ـ مكانة مرموقة. اذ ان اعتبار التقدم او التطور بمثابة الدافع الذاتي الى الاشتراكية ، يعطي للانسان دوره التاريخي الصحيح في انشاء التقدمية التي يتوحد فيها المجتمع حول قطبي الكفاية والعدل ، ويتآخى فيها الشعب كقوة جديدة تتلازم فيها الديمقراطية الاجتماعية بمعناها الواسع ، والديمقراطية السياسية . وفضلاً عن ذلك ، يركز الكتاب على تنظيم الديمقراطية ، باخراجها من ازماتها الخانقة ، ويشير الى مواضيع شتى (الثقافة ، العلم والتعليم ، الادب ، الشعر ، الجمال) بوصفها لوازم لثورة الانسان المعاصر .

(لجنة تراث القائد الشهيد)

AUB LIBRARIES

تقدمة

«وكم من محبة أثمرتها شجرة المعرفة ، وأية محبة تعلو محبة الحقيقة وتسمو عليها . فإذا عرفت ، تعبدها العارف وتملكته . . . »

آية حكمية

واعلمي أن الإنسان لم يخلق لمعنى من المعاني إلا للعلم والعمل به ، وكذلك الثمرة الطيبة لم تخلق إلا للأكل .

هرمس

أقدّم هذا الأثر من نتاج الاطلاع والاستيعاب والفكر والمراقبة

إلى رفاقي في الحزب التقدّمي الاشتراكي وإلى شهدائنا الأبطال الأبرار ،

وإلى جميع الذين سروا في الحياة على سنّة استكشاف الحقيقة ، وتبيان انعكاسها فينا وفي العالم وفي أنظمة الإنسان ، عبر تحققه التاريخي الاجتماعي الطويل ، وما من لبنة خير أو شرّ ، صلاح أو بطلان إلاّ وضعت عن قصد أو عن خطإ أو صواب في ذلك البناء ،

وإلى أخي وابني وليد .

AUB LIBRARIES

لماذا أنا اشتراكي

لأنني أحبُّ العدل والإخاء والحرية .

لأنني أشعر إن عدلت مع غيري فكأنني عدلت مع نفسي ، وإن ظلمت غيري ظلمت نفسي .

لأنني أنزع إلى التوافق مع الجميع والانسجام الشامل ، كاللحن الذي لا يتمّ إلاّ إذا تحقّقت هذه التسويات والموازنات بين الأنغام المختلفة التي تكوّنه ، وكذلك يجب أن يحلّ الانسجام والتوافق بين الناس وبين ما اعترف لهم به القانون والشرعة الطبيعية من حقوق ، هذا الذي نسميه عدالة .

أنا اشتراكي ، لأنني أعتقد أن العمل بدون رأسمال لا يقوم . . والعمل ذاته المدّخر في القوى الطبيعية وفي زند الفرد الذي هو من ضمن هذه القوى — هو رأسمال . . والرأسمال لا تتنفّذ إمكانياته ويظل مجرد طاقة إلى أن يتحول

إلى عمل .. فالعمل لا يمكن أن ينفصل عن الرأسمال ، أيّ رأسمال إطلاقاً ، ولولا الرأسمال لما كان العمل ، والعمل ذاته تحقّق لرأسمال ، أي لقوة أو إمكانية إنتاج مدخرة .. ولكن هي الطبقية — طبقية العامل وطبقية ربّ العمل — هي الّتي فصلت وميّزت بين الرأسمال وبين العمل ، وهل يُفصل الإنسان عن فكره وجسده وماله في نطاق العمل ، أو عن فكر غيره وجسد غيره ومال غيره ، وكلّها طاقة ، رأسمال ..

إن هدف وغاية الحزب ليست في استثارة الطبقية ، ولا في استثمارها واستخدامها نهجاً أو هدفاً ، بل في محو الطبقية ، وفق ما ورد في الميثاق :

« إن الصراع التاريخي بين الطبقات ، الذي استنفد قوى العنصر البشري وإمكانياته ، واستنزف جهوده في خلافات ونزاعات داخلية مستمرّة ، يجب أن يزول ، وأن تتحوّل هذه القوى والجهود والإمكانيات وتعمل متآزرة لتفهّم أسرار الطبيعة والنفس وللسيطرة عليها ، وبالتالي لاستكمال مجرى التطوّر في تحقيق وتتميم الكائن البشري ، وهذا لا يتمّ إلاّ إذا صهرنا الأفراد والجماعات في وحدة اجتماعية مستقرّة واعية لمصيرها ، تسندها قوى المحبة والتقارب أي بالتالي قوى التطور الجامعة » (ص ٥٠) .

أنا اشتراكي ، لأنّني أؤمن بأنّ الشرّ ، كل الشرّ ،

والخطيئة الأولى ، في النُظم الشيوعية وفي النُظم المسمّاة بالرأسمالية الفرديّة ، هو في الفصل الاعتباطي بين الرأسمال وبين العمل ، هذا الفصل الذي كرّس أفضلية فئة على فئة في هذا النظام وأفضلية فئة على فئة في ذاك النظام . .

أنا اشتراكي ، لأنّني أؤمن بضرورة التأليف والانسجام والتوحيد بين العمل وبين الرأسمال ، باعتبارها عناصر لا يمكن طبيعيّاً وعفويّاً أن ينفصل بعضها عن بعض .

أنا اشتراكي ، لأنّني أعتقد أن الاشتراكية روحيّة يجب أن تتحقّق في النفوس فوق وقبل تحققها في الأنظمة والمؤسسات . .

كمال جنبلاط

رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي

AUB LIBRARIES

الحزب التقدمي الاشتراكي والتطور

أيّها الرفاق ،

ليس اجتماعنا اليوم إلاّ تنفيذاً لمخطط حزبي يرمي إلى مواجهة أعضاء الحزب بحقائق الحزب ، وشرحها ما أمكن في هذه المجالات من الالتقاءات المحدودة ، واستنهاض العزائم ، وشحذ الهمم ، ودفع عجلة هذا التحرك الجماهيري الكبير إلى اعتماد نهجه والسير إلى أهدافه ، وقاعدتنا وآيتنا الذهبية هي دائماً وأبداً هذه : من لم يكن له في داخله نور ينيره ، فيضيء به معالم الطريق ، فهو أعمى وأبكم ، فكيف يستطيع قيادة الناس من فيه جهل أو بلادة في نفسه ؟ وإلاّ يكون واحدنا ، وفق التشبيه الشهير ، كالأعمى الذي يقود عمياناً ، فلا بدّ للجميع من الحفرة منزلقاً ومستقرّاً .

والحزب رسالة لا تنزوي ولا تتقلّص عن المعرفة الدائمة ولا تضيق بها ، بل هو ينبثق من هذه المعرفة ذاتها ، إنّما هو إطار من الاتجاهات الكبرى للتفكير البشري وللتفتيش الإنساني عن

AUB LIBRARIES

الحقيقة في كل شيء . وهذا الإطار من الاتجاهات الكبرى للتفكير والاستنارة لا إلى الخرافات والأوهام وقصص الأطفال –أطفال الإنسانية الأولى البدائية قبل التاريخ وبعده – بل إلى الاستقصاء العلمي والعقلي والاختبار الأخير المتصل للإنسان التائق فيما هو عليه من رغبة دائمة ملحّة للمعرفة ، وخاصة لمعرفة جوهر الوجود أي حقيقة الوجود وتبيان انعكاس هذه الحقيقة في الإنسان ، في الدنيا ، في الدين ، في الفكر ، في الأدب ، في الفن ، في الحضارة ، في الأنظمة ، في العمل البشري ، في التوجّه والتأمّل والارتقاء ، في المجتمع ، في العيش والموت على السواء ، وبكلمة في كل ما هو ظاهر وباطن ، وليس اختبار الأبطال والمتحققين وكبار الأولياء والعلماء والشعراء والفنانين إلاّ ضوءاً على كل هذا . هذه هي الوجودية التي نؤمن بها – وجودية الإنسان ، وجودية الحقيقة . l'existentialisme de l'homme, l'existentialisme du Vrai, de la Vérité.

وهذا الاستقصاء والكشف الأخير عن حقيقة الوجود هو الذي يتوجّه إليه العلم الزمني ، والعرفان الروحاني ، والعمل البشري والمسلك الإنساني ، والدين والفن والأدب على السواء ، أو بكلمة أبسط وفي المفهوم العادي هو الذي تسميه الأديان ويسمونه الحق أو المطلق أو الله ، أو سواها من الأسماء وفق اللغات والأزمنة والمعتقدات . وفي هذا التوجيه والتحديد ورد

في ميثاق الحزب :

« على ضوء هذا الإدراك ، يتضح لنا ، خلال عملية التطور — تطور الفرد والجماعة وتطور السلالة البشرية التي لا تنفصل الجماعة عنها ، كما لا ينفصل الفرد عن الجماعة — يتضح لنا غرضُ الحياة منّا وفينا ، وأننا أداة مكلفة في الواقع — وهذا هو شرفنا — بتحويل التيار الحي — المتصل بالطاقة الماديّة الأولى والمنبثق منها في تحرك الوحدة الشاملة للوجود نحو سدرة منتهاها وغاية انطلاقها — بتحويل التيار الحي ، الزاخر بالإمكانيات منذ فجر الحياة ، إلى فكر وشعور وإشراق وقيم حق ومحبة وجمال ، — وهي قيم الإنسان والمجتمع — ويتضح لنا أيضاً أيّة قيمة هي الشخصية البشريّة — أو بالحري هو الإنسان على إطلاقه — وأية قيمة هي حياة كل كائن بشري ورسالته ، وذلك بالاستقلال التام عن أي مبدإ ميتافيزيقي ولاهوتي كان ، لو استطعنا أن نقرّر ذلك دون أن نستنير بالاختبارات الروحيّة الحيّة » . — وخاصة اختبار المتحقّقين بهذه الوجوديّة الكاملة . . Réalisés

الحق ، الحقيقة أو الله أو المطلق أو ما يسمونه كذلك ، وفق الأديان والمذاهب والأزمنة والأمكنة ، هو الحقيقة الأخيرة للوجود التي ينشدها المؤمن والعابد والصوفي ، والكاتب والشاعر والموسيقي والفنان ، والعالم والملحد والكافر ذاته على السواء .

AUB LIBRARIES

لأنّ ما من أحد إلاّ وينشد الحقيقة ؛ والحقيقة ، كالسعادة التي لا تنفصل عنها ، هي مطلب كل كائن ، هي مطلب الوجود فينا ، مطلب الحياة ، هي عودة الوجود الظاهر إلى محوره ومصدر انطلاقه ، إلى نقطة بيكاره على حدّ التعبير الشهير ، والاستنارة ، فيما نقوله ونستشعره ونعمله ونكتبهُ ونتقصّاه ونتصوره ونرجوه ونتأمله ، بهذا المحور الأخير ، أكنّا متنبهين لذلك أم لم نكن متنبهين ، أكنّا في جهل مغلّفٍ أم في علم يقين ، في الوعي أو اللاوعي الظاهر على السواء . وهل يخطىء الأعمى ذاته بأنّه يواجه الشمس ، عندما يحسّ بدفء نورها يسطع على وجهه وكفّيه وعينيه المغلقتين ؟

في هذا المعنى الأصيل لمعنى الحقيقة كان يقول المهاتما غاندي : « ظللت أربعين سنة أفتّش عن الله وأحدّده وأتصوّره بأنّه هو الحقيقة . فلمّا بلغت سنّ الأربعين أدركت أن الحقيقة – أي حقيقة الوجود – هي التي يسمونها الله » . وهكذا فإنّ هذه الحقيقة الأخيرة ، ليست بحاجة إلى دليل عقلي أو حجّة معنوية أو برهان جدلي لأجل تثبيتها وتأكيد وجودها . إن الحقيقة الأخيرة للوجود هي الحق ، هي المطلق ، هي الله . إن ضعفاء العقول والبُله هم وحدهم بحاجة إلى استظهار البرهان عن وجود هذه الحقيقة الأخيرة .

وهكذا فإن مفهوم الدين ذاته – كل دين يتوضح على

ضوء التأمّل بالعقيدة التقدمية الاشتراكية الصافية وبالمنطق الوجودي السليم . إنّنا وضعنا كنزاً بين أيديكم وحافزاً مستمرّاً للتفكر والتأمّل والاستقصاء والاستدلال والاستنارة والمعرفة ، أما آن أن نجعل هذا الكنز بكامل براعمه وتمام وريقاته واخضرار معالمه يتفتّق في نفوسنا ويتفتّح في عقولنا ، ويسعدنا بنور عرفانه وصفاء أمنه ويقينه ؟

وفي هذا التوجه إلى المحراب الشريف – محراب الحقيقة المغلّفة في الوجود الظاهر ، وفي ذات الإنسان بشكل خاص – كلُّ عمل ، كلّ فكرة ، كل شعور أو عاطفة ، كل تطلع ، كل عيش ، يتخذ معنى صافياً معيّناً ويشكل مسلكاً بهيّاً وجاذباً ، ويكون خطوة متحفزة تالية تتقدّم بنا نحو المعرفة ، ونحو الاطمئنان ، نحو الرجولة الحقيقية : نحو السعادة .

• • •

وهذا الاستقطاب الأخير للوجود الظاهر ، وللتطور الإنساني الذي يتشخّص فيه هذا الوجود – فيما يتعدى كل ازدواجية أو ثنائية مادة وروح – قد حدده الميثاق في بعض ألوان جوهره وفي بعض مضامينه الأخيرة بالوعي والحرية . وفي الحقيقة الحرية هي الوعي . . الحريّة هي تحديد آخر ووجه مماثل للوعي . ولا تكون حريّة ولا تقدم بدون الوعي . الوعي هو جوهر الوجود ، هو اليقظة التي هي عين هذا

الوجود ، والتي بها نعاين الشاهد والمشهود . .

فكيف تريدون أو يريد النّاس أن يكونوا أحراراً ، أو يتكلموا عن الحرية في جميع مستويات تحققها ، وهم لا يعون مصدر هذه الحرية ووجه انعكاسها ومنطلق تنزّلها ، واستقطابها الرفيع ؟

ونعود إلى الميثاق :

« إن الإنسان الذي تحدّد بهذا الوعي وهذه الحريّة وبهذا المفهوم الوضعي هو ما نعني بالإنسان الجديد ــ أو الإنسان الحقيقي ــ : هذا الإنسان الذي يهدف إليه التطور الحيواني ــ البشري في مرحلته الحالية ، وهو ، وإن لم يتحقق منه بعد إلاّ نفر قليل ، يبدو ، على قلّته المتزايدة ، كشّافةَ المقدمة التي يتمخّض بها التطور ويتكامل معنى الإنسانيّة في أفرادها شيئاً بعد شيء بحيث تتم لها السيطرة المعنوية ، وربّما العدديّة أيضاً . .

« هذا الإنسان الذي يتزايد ويتكامل فيه الوعي والحرية هو الذي يعني الحزب عندما يدلّ على المثل الإنساني الأكمل » .

ــ لا المثالية الموهومة في المعنى العادي للكلمة والتي هي تضليل أسطوري وخرافة جديدة غير واقعية ، يستخدمها أحياناً بعض الناس ونفر من المفكرين والقادة وبعض رجال الدين في مفهومها المبتور الخادع . . فالمثالية الحقيقية النابعة من وجودنا

وحقيقتنا شيء والطوبوية شيء آخر .

وهذا الوعي وهذه الحرية الملازمة إيّاه أبداً — وعي حقائق هذا الوجود الظاهر ، وعي حقيقة الإنسان التي بها يضيء ويشع هذا الوجود ذاته — لا يتحققان في درجة من الشمول النسبي والقدرة المؤثرة والفعالية المتحققة ، إلاّ في الوسط الاجتماعي والفكري الملائم المعد لها والبيئة التي تستطيع احتضان بذورها ، أي في مرحلة معيّنة من تطور المجتمع ذاته وتكثّفه عدديّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً ومعنويّاً (راجع الميثاق حول تزايد هذه الكثافة في السكان والاقتصاد والاجتماع البشري والارتباطات المعنويّة) : أي جماعية المجتمع وانسجام الفرد بها وخضوعه لخيرها العام .. وانصهاره في وحدتها المتضمّنة هذا التنوع ، الذي بدونه لا حيوية للمجتمع بوصفه كلاً عضويّاً ، لا كلاً عدديّاً وحسابيّاً . فالقوى المعنوية هي التي يجب أن تسجم وتربط ، في المجتمع وفي النهاية ، جميع عناصره ، وليست هي القوى المادية ، وبعض هذه العلاقات المعنوية هي انعكاس لهذه القوى المادية في المجال المعنوي .

* * *

لذا كان على الحزب أن يوضح الاتجاه الثاني والثالث للتطور الإنساني في سبيله إلى تحقيق هذا الوعي والحريّة ، أو في طريق ارتفاع غليان هذا الوعي ودنو فورته في المجتمع البشري

AUB LIBRARIES

على حدّ التعبير الرائع لتيلار دي شاردان .

هذا الاتجاه الثاني هو التجمع البشري الخطير أو التكوّر الاجتماعي Socialisation الذي يبدو لنا من أضخم نتائج ومواليد العصر الذي نعيشه . هذا التجمع البشري ، المتكاثف على نفسه بساطة وتعقيداً على التوالي وفي آن واحد Complexification ، ينزع إلى تمثيل وإظهار مطلب الوحدة في الإنسان وعكس هذا المطلب الأساسي في المجتمع وفي الحضارة . والوحدة ــ وحدة الوجود ــ هي عين ذات الوجود ، هي الجذوة التي يشعُ منها الوعي أبداً ودائماً ، هي المحور أو نقطة البيكار أو النقطة الأصلية التي تدور عليها الدائرة ــ دائرة الوجود كلّه ، هي الألف والياء ، هي حرف Alpha وأوميغا لشاردان ؛ وإن استطعنا أن نستعير هنا كلمات الصوفيين المتحققين ، وأن نتجاوز مجال البحث الوضعي العاديّ العام ، هي الكلمة الأولى ، هي العقل الكلي أو العقل الأرفع بالنسبة إلينا ، الذي لا يتم بدونه أيُّ فهم حقيقي ، أو كشف علمي أخير ، أو فعل بطولة أو إيقاد محبة ، أو استجلاء رفعة أو هدي في أي معنى من معانيها .

• • •

هذا الاتجاه للتجمع البشري المتطور الخطير هو الذي يفرض ، في داخل المجتمع ، الاشتراكية (أي تصميم

الأهداف وتخطيط مناهجها وتنظيم السعي إليها وإشراك جميع المواطنين وكسب مشاركتهم للعمل الجماعي العام في الإنتاج والتبادل والمنافع ، والنضال المعنوي المشترك) ، وهذا ما عنى به الميثاق بأن البشرية وصلت إلى درجة من نموها السلالي يمكن أن نسمّيها بمرحلة الجمعيّة أو تجمع القوى والطاقات وسجمها ومحاولة توحيد تنوُّعها المتشعّب المتزايد في بوتقة المجتمع Socialisation humaine وفي تآليفَ اجتماعية متطوّرة عمّا سبق أو مضى : « إن الاضطرابات الاجتماعية الكبيرة – ومنها هذه النزاعات القوميّة المتزايدة ، وهذا الصراع العالمي على السيطرة وعلى النفوذ ، وهذا الكفاح المرير بين الشعوب والفئات الاجتماعية المتخمة بالمال والغذاء وبحبوحة العيش وبين نصف سكان الأرض الذين يتضورون جوعاً ويموت منهم في كل سنة خمسون مليوناً وفي كل يوم أكثر من عشرة آلاف من حاجتهم للقمة – إن الاضطرابات الاجتماعية الكبيرة التي تهز العالم اليوم تعني في الظاهر أن البشرية قد بلغت، بدورها ، السّنّ الذي تنزع فيه كل فصيلة ، بضرورة بيولوجية ، إلى انتظام وسجم أعضائها .. ففينا يظهر أن البشرية تقترب من طور تجمعها أو تكوّرها الاجتماعي الخطير » .

En nous, l'Humanité approche de son point critique de Socialisations.

وهذا التجمّع البشري يفرض النظام لحلّ مشاكل الاقتصاد والمجتمع لا الفوضى ، أي الحريّة المطلقة الظاهرة ، يفرض التقدميّة الاشتراكية كنظام بالنسبة إلينا ، كما يُفترض أن يكون للفرد نظامٌ للأخلاق والمناقبية في داخله وفي علاقاته مع الآخرين . . فالنظامان — نظام المجتمع ونظام الأخلاق — متلازمان متصلان لا يقوم أحدهما بدون الآخر ، وإلاّ سقط الفرد وفَسُدَ المجتمع واضمحلّت الحضارة ، وتَبِعَتها في اضمحلالها جميع مكاسبها المادية . .

هذا التجمع البشري ، هذا التكوّر الاجتماعي ، يفرض شعورنا الكامل بأهدافنا وبأهمية حريّة مبادرتنا والتزامنا بأهداف الحزب وبتحقيقها . يفرض علينا التحلّي بالوعي والتجرد والإخلاص ، وأن نصبح هذا الإنسان الجديد . وإلاّ فكيف يستطيع الجاهل أن يبشّر وأن يدعو لما يتحسّسه ويؤمن به دون أن يتبيّنه أو يتميّزه ، فإنّه يزيد الناس جهلاً وتعلّقاً مضنياً وعماهة .

هذا التجمع البشري الخطير ، هذا التكور الاجتماعي هو الذي تنجم عنه وتبرز منه ، خارج نطاق الشعب والدولة ، حركة الالتقاء الكبرى للقوميات الواسعة ، وأنظمة وروحية التعاون والاتحاد في إطار بعض الحضارات والقارات ، وفي أوروبا وآسيا وإفريقيا وأميركا على السواء ، مطلب الوحدة دائماً

وأبدا ، هو الذي يقود خطى الشعوب العربية ــ بالرغم من تنوعها وتوزعها الظاهر ــ في تيار التجمع العربي الكبير .

قد يتخذ هذا التجمع ــ هذا النـداء ، نداء الطبيعة العميق لأجل الوحدة ــ اشكالا متنوعة وصورا متباينة ، وفق الشعوب والظروف ، وواقع النزعات والاهداف والعناية بتنميته ، ولكنه تيار حتمي ينبعُ من صميم توجه الجيل الذي نحن منه وباستقطابه نعيش،وتحقق هذه المرحلة التي يوافينا بها القدر .

★ ★ ★

اما الاتجاه الثالث للتطور « فهو مظهر وحدة الانسانية وتكورها Planétisation والتحسس اكثر فأكثر بوحدةهذا السيار الذي نعيش عليه » ... « هذه الوجهة الموحدة للعنصر البشري وللكون بات يتحسس بها ، كأخوة جامعة وفاهمة ، جماعة من الناس يتزايد عددها اكثر فأكثر ، جماعة الانسان التطوري » L'homme évolutionniste .

هذا المظهر لتطلب وحدة البشرية ونشدانها هذا التوحد، لا ينفصل في الواقع تماما عن الاتجاه الثاني للتطور ــ اي التجمع البشري او التكور الاجتماعي .. كما ان هذا التجمع او التكور الاجتماعي يزيد في كثافة وعمق علاقات البشر فيما بينهم في الداخل ، فانه يزيد فيقوة وعمق وكثافةعلاقات

AUB LIBRARIES

الشعوب فيما بينها في الخارج اي بين الامم والشعوب •

ومن هنا يستوي مفهوم الحزب للقومية وتقديره لها على أساس مقوماتها الحقيقية والطبيعية التي تتوافق مع الاتجاهات الكبرى للتطور • فيجب ان لا تكون القومية اداة انكماش او عزلة ، او قطبا مثيرا دائرا على نفسه ، محتجبا ومنزويا في أنانية ذاته ، بل وسيلة اخرى للالتقاء مع الاخرين ، للانفتاح على ماهيتهم وهويتهم ، للانسجام في حياتهم، للاسهام في عيش الجماعات كلها القاطنة فسحة هذه الارض الصغيرة التي اضحت تضيق كل يوم بساكنيها ••

★ ★ ★

هذه الاتجاهات الثلاثة الكبرى للتطور لا تأخذ معناها ولا تفعل فعلها في ذهنية الانسان المعاصر ، الا اذا ادركها ووعاها وانسجم فيها، فتوحد بحياة الكون الكبرى، وتوحد بمظهر هذه الحياة الكونية الاخير الذي هو عيش السلالة البشرية ونضالها وتطورها واستعلاؤها وتوقها ومصيرها • اهداف الكون هي التي تدفع بالانسان الى اهدافه • والانسان جزء من هذا الكون ومظهره الشامل الاخير • فلماذا اذن هذا التفريق والتمييز والفصل بين حياتنا وحياة الاخرين ، بين الكون ونحن : هو الخطيئة الاصلية الاولية والمائلة المستمرة •• اما السبيل للتغلب على هذه

AUB LIBRARIES

الخطيئة وهذا المجرى للانزلاق ، ثم للاتصال من جديد بحياة الكون ، الزاخرة منذ الأزل إلى الأبد بزخم فورة انطلاقها ، فهو التوجه إلى الوعي ، وهو العمل المجرد عن الغاية الشخصية ، هو التضحية . فكلُّ عمل سليم ، مخلص ، محبّ ، جريء مجرد ، هو تضحية بأنانيّتنا ، بنفسنا ، تقرّبنا من الانسجام وتدنينا من التوحد ، من الغاية .

إنَّ النهج والهدف واحدٌ ، إذن ، في هذا المسلك ، ولا ازدواجية في ذلك على الإطلاق . أي أن الفرد يتحرّر في هذا المسلك من كلّ ازدواجية ، من كلّ ثنائية ، وبالتالي من كل قلق أو اضطراب أو تناقض في نفسيته .

إذن نعود دائماً وأبداً إلى الوعي ووجهه المشرق الأصيل : الحرية في المعنى الحقيقي الذي أدركناه . ومن لا يكون متحرّراً ، حرّاً في داخله ، فكيف يستطيع أن يدرك حقيقة الحياة ، حقيقة الحرية والمسؤولية النابعة منها ، حقيقة الرسالة التقدمية الاشتراكية ، التي هي مظهر للرسالة الإنسانيّة في هذا المنعطف من التاريخ .. كيف يستطيع أن يحرر الآخرين وهو لا يدرك معنى الحرية ؟..

الحرية معرفة ، معرفة حقيقة هذا الوجود في الجملة وفي التفصيل . والمعرفة هي أداة التطور وعامله المؤثر الأوّل . فالعقل هو تطور للغريزة الحيوانية في مستوى الإنسان ، العقل اتّخذ لدى الإنسان مكان الغريزة المُنظّمة لعيش الحيوان

وتحسّبه وارتقابه ونزعاته ونموه .. والمعرفة مفتاح هذا العقل ، ونظام العقل هو نظام الأخلاق ، نظام المناقبيّة بالنسبة للفرد وللمواطن . وقد يبدو أنّنا نعود هنا إلى سقراط وسواه من كبار الحكماء الأقدمين ، ولكن من أي معين نغرف إلاّ من هذا الينبوع الأصيل الصافي ؟ والقانون ذاته هو انعكاس ضروري لنظام المناقبيّة ، لنظام العقل .

النظام التقدمي الاشتراكي هو نظام العقل بالنسبة للجماعة . وفي مرتبة تعلو الإنسان العادي يصبح الحدس Intuition الشامل والعقل الأرفع هو المنطلق والقاعدة والقياس والنظام . وما الصوفيّة الحقيقيّة في النهاية إلاّ اختبار هذا الحدس وهذا العقل الأرفع لخير معرفة ، للمعرفة الأخيرة ، وجهاً لوجه . وبذا يصبح للدين في استعلائه معنى وتكمل به معرفة الدُّنيا ، فتضيء بسراج الحكمة والعرفان . .

على مفهوم هذا التطور ودبيب الحياة الحثيث في عروقنا وفي شعورنا ، وفي توق عقلنا ، وسعيها الهادي فينا ، يصحُّ تقديرنا مثلاً للصدق ، للشهادة ، للشجاعة المعنوية ، للمروءة ، للخدمة ، للتضامن ، لحفظ الإخوان ، لإرادة الخير ، للبرارة الجسدية ، للزواج ، للأسرة الواحدة ، للمحبة الجامعة ؛ للعائلة الواحدة . والمحبة طريق للمحبة ومسلك لبلوغ الوحدة . قوى التنافر والتناقض والحقد والتهديم لا تفعل في الكون إلاّ على قدر ما تتطلّبه

AUB LIBRARIES

قوى الجمع ، قوى الاتصال ، قوى التوحيد ، قوى المحبة ، من هدم مستمر للبناء الجديد المستمر . فكما أن التهديم لا ينفصل عن البناء في حياة الكون ومجرى التطور ، كذلك لا ينفصل في حياة الإنسان والمجتمع عن تطوير أشكال هذا المظهر الوجودي الرفيع وتشييد أركانه باستمرار عجيب . وهكذا فالموت يلازم الحياة دائماً وأبداً . . ولكنّه فصل من فصول الحياة . . وقوى الجمع والاتصال والمحبة والوحدة هي التي تنتصر في النهاية ، وبانتصارها يتم الفرح .

هذه الطاقة الهائلة في الإنسان : طاقة الحياة ، طاقة خلق حياة جديدة ، هي الأساس فينا وليس الأساس هو فرديتنا وجسدنا وشخصنا ، لأنّها قوّة خالدة فينا تصل بداية الكون بآخره ، وتربط بين شطآن الوجود أولها بآخرها ، ومن أول ومن آخر . الحياة هي مظهر الوجود ، هي طاقة الوجود الأخيرة الرفيعة ، المستعلية في مقامنا ، وهي قابلة للتحويل فينا إلى طاقات معنويّة وروحيّة واجتماعية ، تماماً كما يتحوّل تيار الكهرباء المادي في السلك النحاسي إلى دفء حرارة وإشعاع نور وحركة .

(هذه الطاقة الوجوديّة الحياتية ذاتها تفرض على الحزب تنقية النسل وسلامة السلالة بتدابير تستهدف تطبيق قواعد الوراثة وعلم السلالات وعلم الحياة ، لبقاء الأفضل أو لولادة

الأنسب الأفضل . فالوراثة شريعة الحياة الأولى لا تغتفر لمن لا يراعي تطبيقها ويحترم أصول قواعدها وسننها . . ولا بد للحزب من أن ينظر في مشكلة العصر ، ألا وهي تحديد النسل مع الالتزام بتنقيته وإنجاب الأفضل على الدوام ، وستضيق الأرض في القريب بأهلها ، كما بدأت البشرية تتعثّر بسبرها وانطلاقها بازدياد نسبة الضعفاء والمرضى جسدياً وعقلياً وخلقياً بين أبنائها) .

* * *

يتحدثون عن الثورة وعن الروح الثورية التي يجب أن ترافق وتواكب أيَّ عمل عظيم . أيّة روح ثوريّة أفعل وأقوى وأروع من هذه الروح الثوريّة التي تنبثق من نظرة الحزب التقدمي هذه إلى الحياة ، إلى التطور ، إلى الوجود . الثورية ليست باعتناق الكلمات الطنانة العنيفة الجوفاء ، ولا باتخاذ المواقف المُجفّلة ، ولا بتهديم كل تقليد ، ولا باعتماد كل جديد ؛ كما أن التقدّم ليس باعتماد كل مُبتكَر وكل مُستحدَث في حقل العادات والمخترعات والتطبيقات العلمية والسلع والفنون — الضارّ منها والمستهجَن ، والنافع والمعلّ ، والجميل والقبيح على السواء — . هذا ليس تقدماً ، بل قد يكون أحياناً كثيرة تأخّراً ، ومن لا يفكر هذا التفكير ليس منّا . إنّما التقدّم ، إنّما التطور هو كلُّ ما يُفيدُ ويزيد في تَفتّح

الإنسان إلى قيمه المعنويّة الأخيرة ، إلى غاية وجوده .. لا يفيد الإنسان أن يكون متمدّناً في خارجه ، بل عليه أن يكون متحضّراً في داخله الحضارة الحقيقيّة للإنسان . ووعينا لأهداف التطور على حقيقتها يجعل فينا مَلَكَةَ التمييز فيما يجب أن نقبله أو أن نرفضه ، أن نتبنّاه أو أن نرذله ، أن نستسيغه أو أن نتحوّل عنه .

بهذه الروح الثورية الحقيقية ، نواجه العيش ونستقطبه ونهتدي ونهدي . وبهذه الروح الثوريّة الحقيقيّة ننهج النهج الصواب فيما تقتضيه الظروف وما يتفتق عنه ويتثاقل به تعميم أفكارنا ومبادئنا من أمل دنوّ القطاف ، وبهذه الروح نتغلّب على أنانيّتنا ، على نفسنا ، وننتصر ، وينتصر معنا مجتمعُنا الذي نقوده .

* * *

وإذا ما هبطنا في التطبيق ، لا في المواجهة ، قليلاً نرى أن الاشتراكية — وهي القالب الاقتصادي للتقدمية الجماعية بالنسبة إلينا ، وهي « ليست الكل بالكل كما في الماركسيّة ، بل هي نتيجة لتبني الحزب لفكرة التطور على إطلاقه » . نتيجة لاستيعابنا الكامل لأهداف الوعي والحريّة في تيار الحياة والوجود ، وانعكاسها في المجتمع قيم عدالة وتضامن وأخوّة ومساواة ، ولا تنفصل ميزة أو صفة منها عن الأخرى ، إنّما

مجتمع الكفاية والعدل الحضاري هو مجتمعنا ، وليس هو المجتمع كما تنزع إليه بعض الأحيان اتجاهات المدنية القائمة في انحرافاتها وأشكالها المزيّفة ـ إذا ما هبطنا قليلاً ، نرى أن الاشتراكيّة تعتمد على أسس خمسة أو ستّة :

١ً ـ التوجيه ، لا الحريّة المطلقة في حقل الاجتماع والسياسة والدولة . وهذا التوجيه يعني تصميم الأهداف وتصميم النهج لبلوغها، أي بالتالي التخطيط . أي تحديد الهدف ثمّ تحديد الخطة للوصول إلى هذا الهدف . وحيث أن كل عمل له في النهاية وجه اجتماعي ، فعلى هذا التوجيه العام أن يعتمد تنسيق وانسجام جميع نشاطات الفرد الاجتماعية في إطار التوجيه والتخطيط العام . وإذ ذاك فقط يخرج المواطن من فرديته وأنانيّته الضيّقة ومسلكه المنغلق إلى انفتاح العمل المشترك وروحية التعاون والتضامن ومواجهة المصير المشترك . ولا تزول بذلك النزعة الفرديّة لكل تفكير أو عمل أو شعور ، بل تتوجّه إلى الخير العام وتستنير به وتتكامل فيه .

٢ً ـ اعتماد وتطبيق مبدإ الإنتاج على أساس الحاجة ـ حاجة جميع المواطنين طبعاً ـ لا على أساس الربح . وهذا الأمر لا يتعارض مطلقاً مع المبادرة الخاصة ومع العمل لأجل توفير الدخل الفردي الضروري لكل مواطن منتج ، على أن التوجيه الاقتصادي يدعم ويفرض ويعلن أهدافاً للإنتاج

ولاستثمار الرأسمال ، أي في توزيع الإنتاج وتدرّجه من السلع الأكثر ضرورة إلى الأقل ضرورة نسبيّة . وهكذا فإن رغبة المواطن بأن يعمل لأجل نفسه وعياله تتّجه وتتكامل وتمتد في رغبته الاجتماعية بأن يعمل لأجل الآخرين وتلبية حاجاتهم .

٣ً ـ جعل وسائل الإنتاج والتمويل والتسليف ـ الصناعة والزراعة والحرف والخدمات والمصارف ـ تصبح وسائل اجتماعية للإنتاج ، لا وسائل فرديّة فقط للعيش ، وذلك بتطبيق مبادىء التملك العمومي أو التملك الاجتماعي وتحقيق تعاونيات الإنتاج وإشراك الدولة ، وسواها من أشكال التوجيه الاجتماعي للإنتاج . وتبقى طبعاً حقول واسعة في الاقتصاد من اختصاص المواطن المباشر ذاته لعدم أهميّة هذا النشاط ، أو لعفويّة التوجيه الاجتماعي المتحقق منه (كالملكية الزراعية الصغيرة والوسطى ، وبيع المفرق ، والحرف وسواها من النشاطات التي يمكن سجمها دون فرض التملك العمومي في إطار التوجيه العام) .

٤ً ـ اعتماد العمل أساساً للإنتاج ومرتكزاً للدخل . فلا دخل لا يقابله جُهد أو عمل ، وذلك إبعاداً لآفة الكسل والطفيليّة والاستثمار والاستغلال عن المجتمع . وبتطبيق هذا المبدإ بشكل خاص يقضى على استثمار الإنسان لأخيه الإنسان .

٥ً ـ اعتماد قاعدة توزيع الإنتاج على المستهلكين وفق

قاعدة الكفاءة والاستحقاق ثم الحاجة فيما بعد في المرحلة التالية للاشتراكية العادية . . — وقد اعتمد الحزب الكفاءة والحاجة في توزيع الاستهلاك في آن واحد ، في نظرة إنسانية وعمليّة أكثر صواباً ، تضمن استمرار المبادرة الخاصة وتلبي الحاجات الأساسيّة للمواطن ضرورة في جميع الأحوال .

٦ً — تنفيذ الضمانات الاجتماعية كافة ، الشاملة للسكن والعلم والعيش والمرض والعجز والبطالة وسواها ، وجعل جميع الخدمات الاجتماعية وظائف اجتماعية شاملة تخرج عن نطاق الاستغلال والاستثمار .

هذه المبادىء الستة تشكّل جوهر كل اشتراكية ، يتفاوت تطبيقها وتفصيلها بين مبدإ ومبدإ ، ولكنّها جميعها تتلاقى في الينبوع الأصلي الواحد الذي هو الجماعية Communautarisme والعدالة .

* * *

في نهاية هذا الحديث قصدنا ، وللدلالة لا أكثر ، توضيح بعض الأفكار التقدميّة والاشتراكية الأساسيّة التي بدونها لا يستوي فهمنا لعقيدتنا الاجتماعية والسياسيّة : فهي ديمقراطية اجتماعية من نوع خاص تشمل الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، لأن جميع نشاطات الفرد الظاهرة تستهدف الاجتماعية.

وفي كل هذا ، «رسالة الحزب هي رسالة التنوير الوادع

AUB LIBRARIES

لا التنفّخ المريض المكابر » . رسالة الوعي المتصل بآخر نتائج العلم ، وبالاختبار البشري الكامل ، وبالعرفان المتجلي في الحاضر ومنذ أقدم أحقاب التاريخ . هي نتاج تنقيب وتمحيص دائم واطلاع دائب ودرس متعمق متابع .. وأساء من اعتقد أو زعم أن « الحزب حزبنا ، على أنّه أعطى يضيق أن يأخذ ، ومن ذا الذي يزعم أن شعلة النور تضيق بمن يعطيها نوراً ، بمن يعطيها قبساً يزيد في أنها شعلة » على حد تعبير الميثاق ..

على أن وعينا لحقيقتنا وحقيقة قضيتنا وحقائق هذا المجتمع التي يرتكز عليها نموّه وتطوره هو الكفيل بأن يسدّد خطانا ، ويجعل فينا القدرة على متابعة السير ، وعلى التمييز بين العاطل والصالح والجيّد والفاسد والغثّ والطيب ، ويوحي لنا مكنة الانتصار . ومن لم تكن روح النصر فيه ، فكيف يستطيع أن يستعيرها أو يأخذها من غيره ؟

ومن لم يكن قد اتصل ، في أعماق أعماقه ، بروح التطور الحي ، بروح الحياة ، بنور الوجود الذي تنزّل فيه أو استشفّه ، من خلال استطلاعه ، فكيف يستطيع أن يحتضن في نفسه روح الثورة الحقيقيّة ، روح النصر ؟

هذه أولى المبادرات في حقل الانطلاق والبناء .

(ألقيت الأحد في ٢٧ أيلول ١٩٦٤ في سوق الغرب)

AUB LIBRARIES

التقدمية الحقيقية والإنسان

« على ضوء هذا الإدراك يتضح لنا ، خلال عملية التطور ، غرض الحياة منا وفينا وأننا أداة مكلفة في الواقع بتحويل التيار الحي ، الزاخر بالإمكانيات منذ فجر الحياة ، إلى فكر وشعور وإشراق وقيم حق ومحبة وجمال ، ويتضح لنا أيضاً أية قيمة هي الشخصية البشرية وأية قيمة هي حياة كل كائن بشري ورسالته ، وذلك بالاستقلال التام عن أي مبدإ ميتافيزيقي ولاهوتي كان ، لو استطعنا أن نقرر ذلك دون أن نستنير بالاختبارات الروحية الحية » ١ .

(ميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي ص – ١٥)

أيها الرفاق ،

في اجتماعنا الأخير في سوق الغرب ، حدّدنا بعض مفاهيم الحزب فيما يختص بتركيز مفاهيم الوعي والتطور

---

١ ونعني بالاختبارات الروحية الحية، اختبار كبار الصوفيين Mystiques في جميع المعتقدات والأديان فيما تتفتح عليه سليقتهم الاخيرة وطلبتهم المتعمقة المستكشفة .

AUB LIBRARIES

والتقدّم وما نعني بها .

ونحن نعود اليوم لنكمل ما أشرنا إليه من ضرورة استيعاب الأعضاء الحزبيّين لنظرة الحزب الأساسيّة في الحياة والوجود والمجتمع والإنسان والحضارة ، هذه النظرة المنبثقة من الحياة والوجود ذاتهما – قبل أن يصحّ لنا أن نَنْزِل إلى تفصيل المبدإ ، ونهبط إلى تفرّع المصدر والأصل في الأجزاء . إذ كيف يصح تطلُّعنا إلى ما يجب أن نطالب بتحقيقه في حقل الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، إذا لم نعرف ، على ضوء هذه النظرة الوجودية، العريقة في أصالتها في جميع مذاهب التحقّق ، وفي الاختبار الإنساني القديم الألفي والحديث المعاصر ، وفي توجّه العلم إليها ، إذا لم نعرف هذا الذي يتوافق وينسجم مع نظرتنا الأخيرة للأشياء أو يتفرع منها . والمعنيان يدلان إلى النهج ذاته في تقصّي الحقيقة : العودة إلى الأصل وإلى مثالات الحقيقة التي يتشخّصها العقل فينا على ضوء مقاييس الفكرة التقدمية الاشتراكيّة ، أو جعل الأحداثَ والتفصيلات تتخذ مقاييسها الأصلية فينا قبل أن تبرز إلى التحقق ، إلى الوجود .

قلنا إن التقدّم الذي نعنيه ليس هو مجرد تغيير الأشياء ، وتبديل العادات ، وتطوير الأوضاع ، وانقراض القديم ، وارتفاع الجديد في أثره ، كمن يرد الماء ليرتوي فينحني إلى الأرض يعبّ كلّ ما تصل إليه شفتاه ، أكان ماء بحر أُجاج

أم مستنقع آسن ، أم ساقية حمئة جارية تلوّثها الأوساخ وتطغى عليها آفات المرض وترسّبات الأوحال .

إنّ خطر الحريّة المطلقة في تكوين المدنيّة الحديثة ، وفي ابتداع الأغراض والمنتجات والآلات وعرضها وتقديمها للناس في جوّ من الإغراء والإيهام التجاري الصرف والدعاية المنتشرة الواسعة ، دون أيّ تبصر أو تمييز أو تدقيق — حتّى في معرض الأدوية البشريّة والزراعية — قد جعل الإنسان المعاصر — منتجاً كان أم مستهلكاً — عبداً أسيراً مستغلاً لإبداع هذه الآلة وأغراضها وتنوّع إنتاجها ، يستخدم هذه الأغراض والمنتجات والآلات لقضاء حاجاته ، في دفع التسابق والزحام ، غير ملتفت إلى فائدتها أو ضررها في حياته وفي أغشيته ، وفي أعصابه وفي صحته ، وأثرها في صوابية شعوره وتفكيره ، ونتائجها وانعكاساتها على عائلته وأولاده وجيرانه .

وهكذا نتقبّل ونتلقّف هذا السيل من المنتجات والعادات والأفكار التي لا تُعد ولا تحصى بدون رأي لنا في ذلك أو وعي أو تنبه ، أو محاولة تمحيص أو تدقيق بدائي ساذج . إنّما نثق بالمدنيّة التقنيّة التي تقدم لنا هذه الأغراض في جوّ من الخداع البرّاق وسحر الدعاية ، ولا نفطن إلى أن هذه الحضارة التقنيّة ليس لها من علم الإنسان مقياس ، ولا من دينه سنّة ، ولا من عقله وضميره معيار أو قاعدة أو تبصّر

في عاقبة مداولة هذه الأغراض ونتائجها وسلامة ذلك أو عدم ملاءمته ؛ لأن الرأسمال الاستثماري التجاري هو الذي يستغلّ هذه المدنيّة وآلاتها وإنتاجها واستهلاكها ويوجهها للربح ، وللربح التجاري الأوفر ، ولا ينظر إلى موافقتها أو عدم موافقتها لطبيعة الإنسان وظروف عيشه الطبيعية . فنحن ، من هذه المواجهة ، أرقّاء التجارة ، أسرى الرأسمال وعبيد استثماره ودعايته .

ولا نتنبّه إلى كلّ ذلك ، بل نندفع في تيار شراء الجديد وتقبل المستحدث الجديد ، ونبذ القديم ، والتنكر لكل عادة تقريباً أو تقليد ، والابتعاد عمّا اعتاده آباؤنا وجدودنا وما امتحنوه وارتضوه واستخاروه بعد اختبار مئات وآلاف السنين ؛ ونحن ننجذب وننجرف مشدوهين بما يسمونه ، عادة وعامة ، بضرورة التمدّن الخارجي والتحرّر والاصطباغ والتطبع بكل ما يردنا ويأتي من الغرب ، على أنّه الأفضل ، ولكنه قد لا يكون الأفضل ، وقد يكون الأسوأ في امتحان أولياء الغرب البصيرين وتقديرهم . .

هذه النزعة لتقليد كل جديد ، وهذه النزوة في الإقبال على كل وارد مستحدث ، تدفع بالرجل وبالمرأة اللبنانيين والعربيين ، خصوصاً في المدن ، إلى اعتماد عادات في العيش والتكيّف والتطبّع والتأدّب والمعاملة والملبس والذوق واللهو والأناقة ،

تتغير وتتبدّل باستمرار وفق تبدّل الأهواء واختراع المخترعين ووفق المستنبط الوارد من الخارج ، ولا يتجنب الكثيرون تبنّي أساليب الاستهتار المسعور في الأدب الصاخب والشِّعر المنفلت ، وفي الموسيقى المرهقة للأعصاب ، ولا هذا العلم السطحي الخاطىء الذي هو شرّ من الجهل ، ولا يحذرون التسمّم البطيء ببعض المآكل المستحدثة وبدخان اللفائف وجرعات الكحول أو بانعدام الحركة والركون إلى الجلوس في المكاتب والانتقال بالسيّارات ، فيما عدا تعاطي بعضهم للأدوية المتنوعة والمخدرات والمنعشات والمهيّجات . ثمّ تتساقط عليهم أو تتلاقى فيهم هذه الموجات المتعاقبة المتدفقة من صخب الإعلان وصور وإعلام التلفزيون والراديو والصحف ، فيما تحتجب عنهم السماوات في عماهة ليل عقلهم المستدرج المنجذب إلى الخارج ، وفيما يغطّيه ويحجبه سطوع أنوار الكهرباء ليلاً من روعة الظلمة الزرقاء المحيطة بالأرض وبهاء الكواكب والنجوم والمجرّات ، في حين لا يتنشق واحدهم من سكان المدن والضواحي سوى هذا الهواء الملوث بالجراثيم والآفات والمشحون بالغازات المؤذية .

وهكذا يضحي المواطن مجرّد شبح بشري في ذاته ، مجرّداً عن أي طابع وطني أو قومي أو إنساني ، شرقيّاً كان أم غربيّاً ، كمن ليس له شخصيّة أو كأداة متحركة بدون روح

مميّزة عاقلة ، مثلهم كمن يلبس ويخلع ألف قميص وجسد في كل يوم واحد أو يتزيّا بعدد من الذهنيات المتتابعة المتسلسلة المتناقضة . ويتطلّع المتبصر منّا ، من خلف تقليده الإنساني الحضاري الألفي ، الشرقي والغربي على السواء ، ويقول : أهذا هو منّا ؟ أهذا هو الإنسان الجديد الذي تعتمده المدنيّة التقنيّة مثالاً ونموذجاً : هو مريض أو شبه ذلك في جسده ، في أعصابه ، في عاطفته وعقله ، في خلقه وشخصيته ومواطنيته وحضارته الداخليّة وتصرفه . . ؟ والأغرب والعجب أنّ بعضهم يسمّون الإقبال على هذه البدعة « التحرر » و« التقدم » ، وتحرراً وتقدماً . بئس هذا التحرر الخاطىء وبئس هذا التقدّم . وبعضهم يدّعي بأن التمدن أو التحضّر والتثقّف يقضي بذلك ، ونحن في الحزب التقدمي الاشتراكي نبرأ من هذا اللون من التحرر ، من هذا المفهوم من التقدم ، من هذا التثقف السطحي . ولا يغرّنّ أحداً أن يتأبط صاحبه الشهادة العليا أو يبرز علامات التفقه والتعلم — والشهادة ليست بحد ذاتها دلالة معرفة ، وهنالك فارق جوهري بين التعلم والعلم — . إنّما وُجد الإنسان ليعلم الحقيقة ويعمل بها ، لا ليقلّد ويماثل كلّ ما يرد على حواسه العاكسة وخاطره .

يجب أن يتيقّن كلّ منا أنه لا يستطيع أن يهدم ، ويجدر بنا أن لا نمكّنه من ذلك وبنزوة عابرة ، وبسرعة في

الانجراف والعماهة ، التراث والتقليد والاختبار الذي بناه الإنسان الاجتماعي عبر التاريخ في مواجهته المتصلة الغنيّة بما توحيه خبرة الآلاف من السنين . ولم تكن الحضارة ، في يوم من الأيام الغابرة ، هذا التقليد المادي الآلي « السعداني » – إذا شئنا التعبير الموافق – لكلّ ما يرد علينا ويغمرنا ويغرقنا من الأغراض والصور الحسية الخارجيّة .

ولا يكون التجديد والتمدن والتحضر والتثقف في تقويض كل قديم ، ونحن نكاد لا نستوعب عدد الأجيال التي انقضت لأجل إبراز هذا النهج القديم على صوابيته .. بل التجديد والتمدن والتحضر والتثقف هو في اختيار الأفضل والأصوب والأكثر ملاءمة لطبيعتنا الإنسانيّة ، ولأغشيتنا وأعصابنا ، ولنموّنا وتفتحنا وراحتنا الحقيقيّة ، لا في اعتماد كلّ ما من شأنه تفكيك نظام العيش والعائلة والمجتمع ، والإقبال على أساليب وعادات تزيد في اضطراب النفس وفي عناء الأعصاب ، وتسرع في شيخوخة الأغشية والأعضاء ، وتنهك وظائف العقل والحواس ، وتشيع السموم في الهواء المحيط وفي دم الإنسان وجسده ، وتلقي به في فيافي المتاهة الفردية المغلقة البوار ، وسط صخب الإعلان واجترار تمويه وسائل الصحف والدعاية الفتاكة .

هذا الخطر المحيق بنا من كل جانب قد أوضحه وأشار

AUB LIBRARIES

اليه ميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي ، مؤكداً خطره ونتائجه الوخيمة في حياة الإنسان ، ومشدّداً على ضرورة تلافيه ومجانبته :

« فقد نوّه أكثر رجال العلم بالخطر الناجم ، حيال البشريّة وحيال الحضارة ، من انحطاط السلالات البشريّة مثل نتيجة محتومة لأوضاع المدنيّة التقنيّة القائمة ، ولإهمال المؤسسات العامة هذه الناحية الأساسية من حياتنا .

« إن سلامة العنصر البشري – جسداً وحواسّ وأغشية وعقلاً وخلقاً وذهنية فاعلة خالقة – أساس لبقاء ونموّ الإنسان وتطوّر الجماعة والمدنيّة ، وإنّ إحدى وظائف الدولة الأساسيّة أن تتدبّر ما به تحقّق « المحافظة على سلامة النسل وازدياد (الأفضل) وحيويّة العنصر البشري وقوّته ونبوغه المتنوّع المتناهي . » . .

ولا يتم ذلك إلاّ :

« بنظرة جديدة للعناية الصحيّة ، وسلامة الصحة العامة أساساً لحيويّة المجتمع واعتماد التدابير اللازمة لذلك » ومنها :

– إزالة الأمراض الوراثية .

– نشر مبادىء الوقاية والمناعة الصحية (وتعزيز مناعة الجسد أفضل وسيلة للقضاء على الأمراض وتجنّبها) . فالطب يجب أن يقوم على تقوية هذه المناعة واستثارتها وتهيئة الظروف

المعيشيّة الضروريّة لتنميتها ، لا أن يتوجه فقط إلى شفاء الأمراض .

– « وضع تصاميم للمدن والقرى ، – وقد أصبحت المدن الحديثة « مقابر للأحياء » ، على حد تعبير أحدهم – بما يضمن للسكان التوزّع (أي الانتشار) ، والشمس والخضرة ، والهواء الطلق ونضرة الماء . » وهل يعيش الإنسان إذا لم يتمتع بسحر هذا الوجود وبراءة الطبيعة على عفويتها . . ؟

– « الحرص على تطبيق تشريع صارم يقي الصحة العامة شرّ التزوير والغش والاستهتار فيما يهمّ المواد الغذائيّة .

– « رفع مستوى الدروس الطبيّة واستثارة البحث العلمي » ، خاصة في الحقل الذي يتفتح عليه العلم الحديث اليوم في تنقية جوّ المعالجة ممّا علق بها من أوهام وأخطاء ، ودراسة تأثير المدنيّة التقنيّة القائمة في غذاء الإنسان وشرابه ، ونومه وعيشه وتنقّله ، وبتوفير « تربية خلقية تكون أساس الدراسة الطبيّة » .

– « بواسطة شرط الزواج بوثيقة صحيّة ومكافحة منظمة للمرض والانحلال الخلقي .

– « بتقوية فكرة الأسرة ، بتشجيع وتمكين الزواج الباكر واحترام قدسيته ووحدته ، ورعاية الأمومة والطفولة » .

– « بتوضيح حرمة الجسد (والابتعاد عن الإسراف في كل شيء) ، وترفيع القوى الحيّة وتحويلها إلى قوى نفسيّة

AUB LIBRARIES

واجتماعيّة خلاّقة وبنّاءة . » وهل يرتفع الإنسان وينبغ إلاّ بما يوفّره في جسده وفي حواسه وفي نفسه من طاقة تتحوّل إلى التحقق والإبداع ؟

— « بعناية منظمة بالرياضة الجسدية من نتيجتها مثلاً :

« تعويد الولد ضروب الاعتناء بالجسد .

« بجعل علم الصحّة (لا علم المرض) والتربية البدنية مادتي درس وامتحان .

« بتحبيب النشء بالرياضة الطبيعيّة بما يؤمّن له تنمية منسجمة للأعضاء وينحت خلقه ويبعث فيه البهجة . . »

واتجاه الرياضة الحديثة كما نعرفها ليس من الرياضة بشيء ، لأنها تنهك بعض أعضاء الجسد الحيويّة التي يجب تنميتها بانسجام متوافق متكامل مع سائر أعضاء الجسد .

— « بإعادة الرياضة إلى جوّ الطبيعة وإلى ما وجدت له وظائف الجسد القابلة للتكييف بغية تطهيرها وزيادة نموّها (وحدّتها) . »

فحواس الرجل الحديث تضعف باستمرار وتصيبها العاهات والوهن أكثر فأكثر ، نتيجة ظروف الحياة المرهقة والمدنيّة المتعبة ، (بالتشديد على العلاقة القائمة بين الرياضة والبهجة) .

(بإيضاح التفاعل بين الجسد والقوى النفسية بحيث يفيد الواحد من تقدّم الآخر) .

»(بالتشديد على الإفادة فرديّاً واجتماعيّاً من نموّ الروح

الخلقي الرياضي) .

« بتظهير الناحية الجمالية للرياضة . » ـ فلا تعود الرياضة موضع منافسة مضنية واعتزاز فردي أناني ، بل تصبح وسيلة لتهذيب الجسد والنفس وتنمية الانسجام الداخلي والخارجي الذي يوحي وحده بالجمال . .

* * *

« وإن من بين التدابير التي يرمي إليها الحزب : المحافظة على العنصر البشري وتنقيته والتخلص من بعض الظروف والأحوال الضارة التي أوجدتها المدنيّة التقنيّة .

«إن إحدى مشاكل المدنيّة والأنظمة القائمة على إطلاقها، (الكليّة الشيوعية منها والديموقراطية الغربيّة)، هي أنّها لم توفّق إلى حلّ معضلة الأضرار الماديّة والنفسيّة المتزايدة والناجمة ، في حياة الإنسان ، من جرّاء انتشار الآلة والصناعة الحديثة ، والتوفيق بين تطوّر الآلة وبين حالة أغشية الإنسان ونزعاته الطبيعية والنفسيّة . »

وسيّان في هذا الإهمال والتغاضي العالم الشيوعي والعالم الغربي، لأنّهما ركّزا اهتمامهما على الإنتاج ، لا على أفضل الإنتاج وأفضل وسائل الإنتاج وأكثرها ملاءمة لطبيعة الإنسان. فالاستغلال الآلي للإنسان هو ذاته في الحالين . وإنّما النظام الشيوعي المفروض بقوّة القانون ، والمرتكز على التصميم والتخطيط ، قد مكّن

روسيا من أن تحدث ثورتها الصناعيّة الكبرى بأقل فترة من الزمن ممكنة ، كما يلاحظ ذلك توينبي (Toynbee) .

ويستمر الميثاق في إعلانه وتحليله :

« إن الحزب يعتبر كقضية أساسيّة تهيئة الجوّ الملائم للكائن البشري ولنموّه ولتفتّح مقدوراته ، وذلك باعتماد الأساليب والعادات الاجتماعية التي تتلاءم مع أغشيته ونفسيّته .

« فيجدر مثلاً تنقية جوّ المعمل والمتجر والمحترف وإزالة الصخب والضجيج والجلبة من المدينة ، وإذا لم يكن من بدّ ، هدم المدن وإعادة تخطيطها وبنائها بشكل يتلاءم أكثر فأكثر مع متطلّبات الفرد وراحته ، بحيث تتوفّر له المتعة النفسية والجسديّة في أجواء فسيحة من الحدائق والغابات .

« وفي هذا السبيل قد يكون من الأفضل تجزئة الأحياء وأقسام المدينة إلى مجموعات بشريّة صغيرة تلتئم وتنتظم على أساس الكفاية الذاتية في معظم شؤون الاستهلاك وفي الخدمات الاجتماعية ، وتبتعد وحداتها السكنية عن الأخرى ، وتنفصل بشكل يجعلها خليّة بشرية موحّدة وحيّة .

« ويجدر تنقية جوّ الصحافة والملاهي والاحتفالات والاجتماعات الشعبية ، كي يتوفّر للفرد الاطلاع على أكبر قسم ممكن من الفنون والعلوم . » والصحافة والملاهي والاحتفالات وسواها تؤلف المجال البديهي لرياضة العقل وسياحة النفس ،

AUB LIBRARIES

ولاقتباس الكثير من عادات الشعور والفكر والتصرّف .

وهي – مع المدرسة – الغذاء الطبيعي للعقل وللشعور ، ومن فسد مأكله فكيف يصحّ تأمّله ، ومن التوت فيه الأفكار وأظلمت الشواعر التي تأتيه من الخارج ، من عالم حواسّه ، فكيف يستقيم شعوره ويتصوّب عقله ؟ وإنّنا نحن نفسيّاً أبناء البيئة الفكرية التي نعيش فيها .

وهذه الصور الحسيّة والفكريّة تتراكم اليوم علينا ، وتتوافد بدون تمييز ولا تدقيق ولا استنارة ، وفق مقاييس الدعاية التجارية ، في جوّ من حريّة الإنتاج والتداول ، هي ذاتها هذه الحرية الفوضويّة غير المسؤولة التي ألفناها في الاقتصاد : فهم يبيعوننا الأفكار والعواطف كما يبيعوننا السلع بدون تقدير لأهمية ما يدخلونه في النفوس ، بواسطة وسائلهم وأجهزتهم ، من بذور ينطلق منها التفكر والشعور . .

وقد أضحى خطر هذا التلوّث الفكري الشامل شديداً بسبب انتشار أداة التلفزة والراديو وزوال الحدود عمليّاً بين الدول والأمم ، بتمكن هذه الموجات من اختراق جميع الحواجز السياسيّة والجغرافية ، وعبور المحيطات والحدود والأسوار وجدران البيوت . وعمّا قريب ستسهم الأقمار الصناعية بجعل الصورة المرسلة تُلتقط في أي بلد من بلدان العالم . .

ولا يفوتنا أن نذكر إحدى آفات المدنيّة القائمة التي

AUB LIBRARIES

تعتمد حريّة النشر على إطلاقها دون وازع أو رادع ، وحرية دعاية الاقتصاد التي لا يضبطها أو يوجهها اعتبار إنساني أو معنوي ، ونعني بهذه الآفة المهلكة : صخب الإعلان في الصحف ، في الإذاعة اللاسلكيّة ، في التلفزيون . وقد أضحى الإعلان إحدى المشاكل الكبرى التي يتوجب على المواطن وعلى الدولة أن تواجهها . . ويبلغ الضرر الناجم عن الإعلان أقصاه وذروة خطره فيما يعود للترويج للأدوية الصحيّة وللمآكل ومواد التغذية على تنوّعها . وقد يستدعي ذلك وضع تشريع يحظر الإعلان لمثل هذه الأغراض ويحددها في أمور أخرى ، بعد اختبار صدق مواصفات السلعة التي تروج لها الدعاية . .

وحيث أن السلع والمنتوجات تسد حاجات اجتماعية أو أغراضاً بشريّة معيّنة ، فعلى الدولة الممثلة للمجتمع أن تتدخّل لتنسيق وتنظيم الدعاية والإعلان لمثل هذه السلع والأغراض والمنتوجات .

إن طبيعة الاقتصاد قد تطوّرت ولم تعد هي ذاتها بسبب استخدام الدعاية والإعلان على نطاق لم يكن معهوداً في أيّة مرحلة من مراحل الحضارة وتاريخ الإنسان .

وإن ننسَ لا ننسَ تلوث مياه الأنهر والسواقي بالمواد الكيماويّة والجراثيم وتلوّث الهواء بها أيضاً بشكل مخيف

يحمل معه الأمراض والأوبئة والغبار والسموم . . ويبدو أن الولايات المتحدة بحاجة إلى عشرات بل مئات المليارات من الدولارات لأجل تنقية الأنهر التي تصبّ فيها نفايات وسوائل المصانع والمنشآت . . كما أن مشكلة التلويث الإشعاعي الناجم عن الصناعات النوويّة وعن نفايات هذه الصناعة وبقايا إفرازاتها بشكل خاص ، أكان ذلك في الهواء أم في أعماق الأرض أم في الماء ، لا يزال بدون حلّ موافق ، ويكوّن أضخم مشكلة في المستقبل . .

أمّا تلويث الهواء في المدن ، فيكفي أن نذكر ما قاله بصدد ذلك العالم الدكتور أ. سلمانوف A. Salmanoff (في كتابه أسرار وحكمة الجسد Secrets et Sagesse du Corps ص ٣٩) :

« إن كلّ حركة تنشّق للهواء تُدخل بضعة مليارات من الجراثيم إلى الجسد خاصّة عند أبناء المدن الكبرى . . والقضاء على هذه يتطلب جهداً فائضاً من الجسد . »

Chaque mouvement respiratoire fait pénétrer à l'intérieur de l'organisme, surtout chez les habitants des grandes villes, quelques milliards de germes. Leur anéantissement exige un effort supplémentaire de l'organisme. p 3.

وعلينا أن نشير أيضاً في هذا المجال إلى خروج الإنسان عن وضعه الطبيعي ، فيما تحتاج إليه حواسّه وأغشيته ونفسيّته في الليل من ظلمة مريحة تتخلّلها أشعة القمر الفضيّة والنجوم

الزرقاء، يطمئن إليها وتهدأ لرؤيتها جوارحه وتستكين أعصابه، وتنطلق في استشعار أسرارها مخيّلته. ومن لا يستطيع أن يتمتّع باللّيل البهيم يعوزه الكثير من بهجة الحياة ومن خلجات الإنسانيّة الصحيحة في عروقه وفي تفكيره وفي عاطفته وفي إرادته.

ويكمل الميثاق هذا التحليل بإعلانه:

«ويجدر، بصورة خاصّة، التنبّه إلى أهميّة ارتباط الإنسان بالأرض، إذ ان كثيراً من المصاعب والمشاكل القائمة هنا وفي العالم ناتج عن تجربة قاسية في هذا الحقل، أي عن إهمال علاقة الإنسان بالأرض وأهميّة هذه العلاقة.»

فالإطار الطبيعي لحياة الإنسان هو الأرض، هو الطبيعة، وما من بيئة أخرى إلاّ وتكون مصطنعة بالنسبة لهذه البيئة الطبيعية. فيجب أن لا ننسى أبداً أن الإنسان يحيا بالماء الذي يستقطره من جوف الأديم، وبالغذاء الذي ينبت من تفاعل نور الشمس بمادة الأرض ذاتها، وعيوننا مرتبطة بوجود النور، لو لم يكن لما كانت، وكذلك بالنسبة لسائر الحواس وأغراضها. وهذا الهواء الطلق الذي بدونه لا نستطيع أن نبقى دقيقة واحدة في قيد الحياة والذي يُبقي نَفَس الحياة في الجسد ويعلّقها به ويقفصها ضمن جدران خلاياه — والنَّفْسُ منحدرَةٌ في اشتقاقها الكلامي من النَّفَس. وهل يستطيع

أحدكم أن يفكّر بما يتنشّقه في يومه الواحد ليلاً ونهاراً ؟ إذن لانتابكم العجب وشيء من الدوار . ويقول الدكتور سلمانوف إنّنا بحاجة إلى مائة وستة وعشرين ألف ليتر هواء في الأربع وعشرين ساعة لكي تتوفر لنا كمية غاز الأوكسيجين الضروري .

كان سوكولوفسكي يقول : « إن الحضارات والشعوب التي تفقد ارتباطها بالأرض لا تلبث أن تذوي وتزول . »

« L'ascension de la Civilisation humaine s'accomplit aussi longtemps que les meilleures forces s'emploient au soin de la terre. La décadence commence avec l'éclipse de la culture lorsque chacun veut voler de ses propres ailes, quand les forts et les entreprenants se détournent de la terre et cherchent d'autres voies». N. Sokolowski

« إن صعود وتألق الحضارة البشريّة يدوم ، ويستمر طالما أن أفضل القوى تلتزم العناية بالأرض، ولا يبدأ الانحطاط ولا يرتسم خسوف الحضارة إلاّ عندما يريد كل كائن أن يتحرّر وأن يستخدم جناحيه منفرداً ، أي عندما يتحوّل الأقوياء والنشيطون عن الأرض ويطلبون سبلاً أخرى » .

ويجب أن لا يغرب عن بالنا أنّنا أولاد هذه الطبيعة ، نحن نتاج التيار المترفّع الأخير في سلّم تطور الطاقة الماديّة النباتيّة الحيوانيّة .

وهذا الجسم يتكوّن ، بمادته وأنسجته وأغشيته وسوائله

AUB LIBRARIES

وأعصابه وأقنيته وشرايينه وخلاياه المتنوعة اللامتناهية ، من هذا الغذاء والماء والشمس والهواء .

والطاقة فينا ، بما فيها طاقة الفكر المنبثق من تلافيف الدماغ ومراكز انحصار الوظائف ، هي تحوّل دائم لهذا الغذاء الذي نتلقّفه من النبات والشمس والماء والهواء . . ولولا صلة الأخذ الدائم من الطبيعة ، لما كان لَنَا أيّة طاقة ماديّة أو فكريّة أو لطيفة على السواء .

وعلى ضوء هذا المنظار الحقيقي للإنسان ، يجب أن نتساءل ، وقد قطعت بنا ظروف العيش الاصطناعي ، شوطاً كبيراً وبعيداً :

– هل ظلّ هذا الغذاء الذي نقدمه لأنفسنا ولأولادنا نقيّاً فعلاً ، وخالياً من الغشّ ومن المواد التي اصطنعناها ، وهي ليست موجودة في سجل الطبيعة أبداً ، وهلاّ يزال هذا الغذاء يحوي جميع ما توفّره الأرض من المعادن لنباتها وحيوانها ، هذا النبات والحيوان الذي نأكله بدورنا لنعيش . .؟ أو هل تقوت هذه الحنطة التي نُزعت منها ، مثلاً ، موادها المغذية الأساسيّة ، أو هل يفيد هذا الزيت الذي مزج بمواد لا نعرف لها نفعاً ، أو هل يروي جوعنا الشامل هذا الحليب الذي تلاعبت به أيدي الآلات وسحبت منه بعض عناصره الأولى ، وخبز الحنطة كالحليب طعام كامل بحد ذاته . . ؟

ـ هل الماء الذي نشربه ، وتعبق به المطهّرات الكيماويّة التي وضعت فيه لقتل كل حياة ، هلاّ يزال سائلاً حيّاً وطاهراً وجديداً ونافعاً كهذا السلسبيل الفضي الشفاف الذي يتقطّر بين أيدينا من فم ينبوع مائه ؟

ـ هل فكّرنا بأثر اللحوم والخضار والفواكه الموضوعة في المعلّبات منذ أشهر أو سنوات ، في مزاجنا وحيويّتنا وسلامة صحتنا . . وهل يصح أكل الميت والمحنّط من الأشياء ؟

ـ هل تبصّرنا بأثر الأدوية الزراعية الحديثة والأسمدة الزراعية الصناعيّة على نتاجنا الزراعي على مدًى طويل ، وعلى صحتنا وسلامة أعضائنا في المستقبل القريب والبعيد ؟ فهناك مساحات واسعة شاسعة في الولايات المتحدة وسواها من البلدان قد أصبحت قاحلة مقفرة كالصحارى بسبب تعاطي الأسمدة الكيماوية والأدوية الفتاكة والإسراف في استخدام الحرارات وقتل العشب النابت على سطح الأديم ، فتفتّتت تربتها وتسمّمت مياهها ، ومات طيرها ووحشها وأسماكها ، وذوت أشجارها ومزروعاتها واضمحلت ، وتسرّبت السموم الملوثة إلى المياه الجوفية ، فأضحت خطراً على مناطق أخرى كبيرة متاخمة أو بعيدة . أو هل راقبنا أثر هذه السموم التي تروّجها دعاية حريّة الاقتصاد التجاري ، على أغشيتنا وأعصابنا وحياتنا بعد أن نغلّف بغبارها الخضار والفاكهة

التي نأكلها ، فيتسرّب السم اللطيف إلى بعض الأعضاء كالكبد مثلاً ويستقر فيها ، إلى أن يتكاثف مع الوقت في تراكمه في الموضع المحدّد من الجسد ، فيظهر المرض الذي يودي بصاحبه بعد زمن قصير أو طويل ، أو يتوارثه الابن عن الوالد . . قليل منّا من يعلم أن هذه الأدوية الزراعيّة – وبعضها الفتاك الذي نعني – إنّما اخترعها العلماء الألمان قبيل نهاية الحرب الثانية الكبرى لأجل استعمالها كسلاح هائل مميت على أخصامهم الحلفاء ، وإنّه ، لسبب ما ، لم يستخدمها الجيش الألماني فعلاً ، فحوّلتها الصناعة فيما بعد إلى مكافحة حشرات الأشجار والمزروعات بعد أن كانت معدّة لمكافحة البشر .

هل هذه المعادن المصطنعة من مواد اللدائن المتنوعة وسواها ، والتي اخترعها الإنسان وحده ولا يوجد لها مثيل على وجه الأرض ولا في النجوم والكواكب السيارة والمجرات التي تملأ الدُّنيا ، هل إن هذه المعادن المصطنعة لها تأثيرها على عيش الإنسان في لبسه وغذائه وشربه ؟ أو هل يجوز استخدامها لغاية في العيش قبل اختبار فعلها وأثرها ؟

وهذه الأدوية الصحية الأخرى التي يعالج بها الإنسان مرضه ، والتي تُطرح في السوق التجارية أفواجاً وأعداداً بعد اختبار قصير جدّاً ، فيستخدمها الطبيب والمريض دون أن

يعلم كل منهما أثرها البعيد ؛ وخاصة هذه المواد المانعة لتولد بعض الجراثيم Antibiotiques والتي نتداولها حتى بمناسبة زكام طفيف ، هل ندري تماماً ما هو فعلها وأثرها وما ينجم عن المعالجة بها ؟

ثم هذه العادات في السهر والنوم والانتقال السريع ، وهذا العالم من الإشعاع الكهربائي والموجات الكهرطاسيّة المختلفة التي نعيش في وسطها ونتعرض دائماً وأبداً لها ، وهذه المساكن التي نبنيها من شتى المعادن والزجاج ومن جدران الخرسانة وسواها عوض الحجر الطاهر ، والتي لا تقي الحر صيفاً ولا البرد شتاءً ، لسرعة اختراق الموجات الحراريّة لها في الاتجاهين ، وهذه الألبسة الضيقة التي نرتديها فتمنع أو تعيق جريان الدم الطلق في عروقنا وأغشيتنا ، وعادات الجلوس والوقوف في غير ما تعوّده الإنسان وما لا يوافق توازنه أو طبيعة منحنى سلسلته الفقريّة التي تغلّف في حناياها جميع أصول وفروع الأعصاب ، بحيث يكون هذا الانحناء أحد عناصر الانتعاش أو الإرهاق أو الصحة أو المرض ، الخ ، كلّ ذلك لا نتميّز مدى تأثيره في جسد الإنسان ونفسيّته وحياته .

وأخيراً لا آخراً يتحدّثون عن استخدام تفجير الذرة لأغراض السلم ، وخاصّة في محركات السفن والطائرات

والسيارات فيما بعد ، وفي توليد الكهرباء ، وفي إجراء الأعمال الإنشائيّة الكبرى من سدود ومجارٍ وترع وسواها .

وفي كبرياء التسابق والغلبة وتطلُّب النجاح وابتغاء النفوذ ، يتزاحم الغرب الديموقراطي والغرب الشيوعي على تطوير هذه الآلات الذرية وتنفيذها ، دون أن يهتموا ، بشكل مباشر وأساسي ، بخطر تلوث مياه الأنهر والبحار والأرض المجاورة والهواء والغبار من الإشعاعات السامة الممرضة القاتلة . ماذا يفيدنا أن نستخدم تفجير جيوب طاقة الكون على غير هداية وعلى غير ما يجري في الطبيعة الواسعة ، إذا كان سيحلّ ذلك مرضاً مشؤوماً فينا وفي أولادنا ، وهلاكاً أكيداً بالنسبة للكثيرين منّا ، أو إذا كان سيعقب ذلك بروز العاهات والانحرافات العضويّة ، تقيم وتتوارث في سلالتنا وأولاد أولادنا ؟

ولا أتحدث عن خطر تلوث مياه الأنهر والسواقي في الولايات المتحدة وأوروبا ، وتدنسها بمياه المعامل المعدنية وبجراثيم المجارير وأوساخها وموادها الكيمائية ، حتى أضحت هذه الأنهر مستودعاً هائلاً لشتى ألوان بذور الأوبئة والسموم والأمراض ، وقد تتكلّف الولايات المتحدة عشرات المليارات من الدولارات لأجل تنقية مياهها ورفع خطرها كما أبرز ذلك بحث مستفيض . وقد بدأ هذا التلوث يحل ببعض

أنهر لبنان ، لأن الطبيعة فرضت دفن الأوساخ لتتحلل بسرعة وتزول في التربة الحيّة الآكلة الحاوية لملايين الملايين من الحيوانات الصغيرة والجراثيم المُطهّرة ، لا لتجري في الماء فلا يُعرف لتكاثر جراثيمها الضارّة من نهاية .

وهل تبصّرنا في أثر هذا الصخب وهذا الضجيج ، خاصّة في المنازل القريبة من الشارع ، على أغشيتنا وأعصابنا وفي صميم خلايا أدمغتنا وأوتار قلوبنا وأحشائنا – وهذا الصخب وهذا الضجيج يتسجّل كما في الآلة الالكترونيّة المسجّلة في هذه الأعصاب والأغشية والخلايا والأوتار ، وتحفظه الذاكرة العصبيّة والحافظة الفكريّة ، ليعود فيستيقظ قلقاً نفسانيّاً واضطراباً فكريّاً ومرضاً في الأعصاب والحواس وفي الجسد.

وأخيراً لا آخراً هل تدبّرنا أهمية الراحة في حياتنا ؟ أولم نر الحيوان والنبات كيف يرتاح ويعرف كيف يرتاح ليعود فينشط وينطلق من جديد ؟ وكلّنا ينشد الراحة – وراحة الفكر الحقيقية هي السعادة – والسعادة مطلب كلّ كائن على وجه الأرض ، ومن لم يعلم قيمة الراحة وأهميتها لا يستطيع أن يعمل .

فالنشاط ينبعث من الراحة ، كما تنبثق الحياة من النوم العميق عند بزوغ فجر اليقظة العاديّة . والسؤال ذاته يصح بالنسبة للنوم والسهر ولألوان الموسيقى المهيّجة وللرقص المنحرف

المجنون في صخبه .

لنذكر للمثل لا أكثر أنّه من جرّاء كل هذا قد ارتفعت نسبة المرضى في الولايات المتحدة ـ وهي أكثر البلدان تقنية وتمدّناً في المعنى الدارج ـ فشملت مائة وعشرين مليوناً بشكل دائم من أصل مائة وسبعين مليوناً من سكان هذه البلاد سنة ١٩٦١ . أي أنّه بعد ظروف العيش المتمدن ـ غير الطبيعية ـ لا يوجد في الولايات المتحدة سوى خمسين مليوناً من الأصحّاء .

أمّا عدد المرضى نفسيّاً واجتماعيّاً وعقليّاً فهو في تزايد مذهل . كيف يمكن أن يكون المجتمع سليماً إذا لم يكن أعضاؤه الذين يتألف منهم سليمين في ما هم عليه من مصادر ومظاهر للطاقة الحيّة ، في العقل والشعور والتشخّص في هذا الجسد ؟ وكيف تنمو الحضارة الإنسانية الحقيقيّة إلاّ في مجتمع يكون أعضاؤه سليمين ؟ .

* * *

هذا التطرق البسيط لبعض مواضيع الساعة ولمشاغل رجال العلم المتقدمين والواعين لمشكلات المدنية القائمة ، يدفعنا إلى توضيح أحد أسرار التطور والطبيعة الكبرى .

ماذا يعني التطور : هو ظهور كل باطن من الأشياء والكائنات وفيها في الزمان والمكان المعد والمحدد لظهوره .

وطبعاً لا ينفصل الزمان عن المكان لأنّهما قياسان من مقاييس الحدث ذاته . والتطور لا ينطلق من العدم ، ومن العدم لا يخرج سوى العدم . فهنالك طاقة دفينة في أعماق كل وجود — ووجودنا لا ينفصل عن الوجود الكلي — تتكثّف في مجرى الظهور والتحقق وفي تنزّله . . تماماً كما أن الشجرة الكبيرة ، هذه السنديانة مثلاً ، كانت منطوية ، مغلّفة ، مُستَبْطنة ، أي متصورة بشكل لطيف ، في البذرة التي أنبتتها ، كذلك كل ما يبدو من واقع التطور فينا وبواسطتنا ، يكمن في أعماق أعماق كياننا الفردي والسلالي والوراثي والحياتي العام . ولا يمكن مثلاً لبذرة السنديانة أن ينبت منها الصّرو أو التفاح .

وفي هذا السياق من التبصر تبرز لنا حقيقة التطور : فهو ليس شيئاً يأتي من الخارج أو يزيد فيما نحن عليه أو نستزيد به ، بل هو ظهور ما حوته الطاقة الحية فينا وما هو مستبطن ومغلّف ومطوي في لطافة البذور والتصوّر فينا . فلا تطور ممكن بدون انطواء الصور والمظاهر التي يبديها ، في أعماق الذات البشرية في أعماق تيار الحياة الزاخر بهذه المكنات والحامل لهويتها اللطيفة منذ فجر انطلاق الكون . .

Il n'y a pas d'évolution sans involution

لا تطور ممكن بدون استبطان لمكنات طاقة . فالتطور عملية نشر لانطواء باطن دفين .

وفي هذا المقام من التطلع ، يتخذ القدر ، ذاته أو ما يسمونه كذلك ، معنًى : إنّما القدر ، إذا شئنا التحديد ، هو كلّ باطن من الأشياء معدّ لأن يظهر . هناك في صميم أغشيتنا كتب القدر الذي نمثل دوره على شاشة الحياة .

ونحن أحرار على قدر ما نتمكن من الاستعلاء فوق مخطط هذا القدر .

وهكذا يكون التطور حدثاً طبيعيّاً له شرائعه في صميم تبلوره واستنباطه وظهوره . فعلينا أن نعد البيئة الطبيعيّة التي تتلاءم وتتوافق مع هذا الظهور النجيب ، والتي ، بطبيعتها ، تساعده على النمو والبقاء وتجلّي الأفضل . . وإلاّ إذا كنّا سنهمل جانب الطبيعة ونخالف قواعدها وسننها الأصيلة ، نكون كمن يمنع ولادة النجيب ، أو يجعله مولوداً سفاحاً ، ميتاً عند ولادته ، أو نكون قد قضينا على أنفسنا بالتوقف والتحجر ثم الانقراض كما حصل لعدد من الفصائل الحيوانيّة فيما قبل التاريخ . . أو أن التيّار الحي سيجد له طريقاً وأداة أخرى سوانا ، من خلال الدفق الزاخر بالإمكانات منذ فجر الوجود . .

وإذ ذاك تزول هذه السلالة البشريّة التي نحن منها وتنطوي، بدورها ، كموجة صغيرة ارتفعت إلى حين فوق بحر الوجود القائم ، لتظهر سلالة بشرية أخرى تستطيع إكمال الطريق

AUB LIBRARIES

إلى الكعبة المباركة من حيث توقف بنا الحجيج الجاهل في الطريق المؤدية إليها . ولسنا في الواقع السلالة البشرية الأولى والوحيدة التي ظهرت على وجه الأرض ، بل قد جاءت قبلنا سلالات ثلاث على أقلّ تقدير ، قبل أن تعمر الأرض بإنسان فصيلة الـ Homo Sapiens أو الكائن البشري العالم الذي نحن منه .

* * *

ولا يسعني في هذا المجال الصغير ، إلا أن ألمح إلى توافق ما ورد في معظم الأديان مع واقع العلم المتقدم الحديث .

ألم يأتِ في القرآن الكريم : « هُوَ الّذِي يُصَوِّرُكُمْ في الأرْحام . . وَهُوَ الّذِي خَلَقَ السّمَوَاتِ والأرْضَ بالحَقّ . »

« وأوّل ما خلق الله العقل »[1] ، أي هذا الجوهر اللطيف الذي به تكوّن كلُّ شيء على حد تعبير النصرانيّة والإسلام وديانات الشرق الأقصى على السواء .

أوَلم يرد في الإنجيل : « في البدء كانت الكلمة ، وكلٌّ بها كُوِّن وبغيرها لم يُكَوَّن شيء . . به كُوِّن العالم والعالم لم يعرفه . . »

ومثل النقطة ودائرة البيكار التي تناقلها الخاصّة من الصوفيين من كل مذهب ودين ، والتي عمرت بها كتب

---

[1] حديث شريف .

AUB LIBRARIES

الحكمة القديمة والحديثة ، أليست دلالةً واضحة على هذا التطور أو الانبثاق الخلاق الذي يظهر دائماً وأبداً من داخل النقطة الأصليّة . والدائرة بحد ذاتها خط مستدير كامل جامع لعددٍ متناهٍ من النقط ، ولكنّها ، من حيث أنّها عددٌ متصل من النقط ، مغلّفة ومنطوية في الأساس أي في النقطة الأصلية ، على حد التعبير الشهير : « فحينئذٍ برزت نقطة النور العقليّة من فسيح مدار القدرة الأزليّة (ونقول نحن اليوم من فسيح مدار الطاقة الأولى) مُستودَعة من السّرّ حروف الكون ، متضمّن في سرّها معنى ما كان وما يكون دفعة واحدة بلا زمان » (من كتاب النقط الدوائر) .

أوَلَم يقل أحد أئمّة العِرفان في وصف عمليّة الخلق : « إنّ الحقّ (أي اللطيف) تكثّف فصار خلقاً » ؟

هذه النقطة الأصلية الجوهرية يعود إليها العلم الحديث اليوم في نظريّة شهيرة في علم تكوّن المجرّات والأجرام والأفلاك ، تتضمّن تصوّر عمليّة الانبثاق أو الخلق والعودة ، في شكل ذرّة أولى أساسيّة صغيرة جدّاً لا قياس لها تجمّعت فيها طاقات الوجود المعروف L'atome primordial — وهو أمر ليس بعجيب ، لأن بين الذرّات المتناهية في الصغر وبين أجزائها ، والتي يتألّف الكون المادي من المسافات الشاسعة التي تفصلها نسبيّاً بما لا يتصوّره عقل ، بينها من الفراغ

والخواء الغريب ممّا يجعل مجموع ما في العالم كلّه من مادة هذه الذرات ، لو تقلّص على بعضه وضُغط لكي لا يعود فيه فراغ ملموس، يملأ فقط قمع الخياط . وبهذا تبدو لنا لطافة ما يتكون منه الكون ، الظاهر على غير حقيقته لعيوننا ولمسنا وحواسنا الأخرى ، وهل من مجال لنزهة العقول وتسبيح القلوب وسعادة الوجدان أروع وأبهى ؟

ومن هذه الذرّة الأساسيّة الأولى التي تجمعت فيها طاقة جميع الذرات أي طاقة الكون بأسره ، انطلق ، في ميعاد معين ، تمدّد هائل وانفجار في جميع الاتجاهات إلى حدود العالم اللامتناهي والمحدود في آن واحد ، حيث نرقب حتى الساعة هروب النجوم والمجرات عنّا بسرعة تقترب ، كلّما ابتعدت، من سرعة الضوء ذاته وتتعدّاه إلى أن تزول ربّما عن عيوننا محجوبة في إطار اللانهاية ، لأنّها تعدّت سرعة شعاع النور نفسه . وهل يبصر المرء بدون نور ؟

هذا هو تنفّس الكون الكبير على حد تعبير الهندوكية في مثال تنشق الهواء ، بالنسبة إلينا .

ثمّ بعد انقضاء مجرى الزمان ، يتصور العلم أن هذا المدّ الجرمي الهائل ينقلب إلى جزرٍ ، وينعكس التمدد إلى تقلّص ، ويحين طرد الفراغ العامر بالخلق من صدر الكون الكبير ، حتى يعود كلّ شيء إلى الذرّة الأساسيّة الأصليّة — ذرة

الذرات ـ وتعود الطاقة ، والحياة من ضمنها ، تتغلّف وتنطوي فيها من جديد . وتكون قد تمت الدورة ، أو دورة من دورات هذا الإبداع الذي ليس له بداية ولا نهاية لا في الزمان ولا في المكان ، وكلاهما من عناصر الكون ذاته .

ويجب أن لا نعجب اليوم إذا كان بعض كبار العلماء ، ومنهم روبرت ابونهايمر مثلاً ، يتصفّحون كتب الأديان القديمة والحديثة وألوان الميثولوجيا ، ويستقرئون معالم المعرفة في جميع الاختبارات الصوفية والروحيّة ، ويتعلّمون بعض اللغات الأصليّة التي كتبت فيها هذه المعلومات ، ليستبصروا القليل أو الكثير ممّا يواجهه العلم أو يبتدعه من نظريّات لتفسير معالم هذا الكون وأحاجيه وأسراره واستقصاء باطن جوهره .

فاختبار الإنسان هو في النهاية واحد : إذا تطلّع بعقله إلى الأفلاك الدائرة في سُدُم اللانهاية ، أو تفحّص وتقصّى انبثاق أجزاء الذرّات من الفراغ المليء الأخير ومن الطاقة التي هي وراء هذه الأجزاء ، حيث لم يعد هنالك حدود بين المادة والطاقة : فالطاقة تتحوّل على الدوام إلى مادة أي تتكثف فيها ، والمادة تستحيل إلى طاقة أي تلطف فيها وتدق وتشف وتزول من حقل الإدراك الحسّي للمس والسمع وللبصر .

واختبار الإنسان واحد في المقابل إذا توجّه ، في صميم

لطافة ذاته ، إلى هذه الكوّة المنفتحة في أرفع تجلّيات العقل وانطوائه على ذاته ، وترفّعه إلى مصدره ، وبلوغه سِدرة العِرفان .

فالمعرفة العلمية الأخيرة ومعرفة العِرفان هي واحدة، وهي ذاتها في النهاية . ولا ازدواجيّة في ذلك مطلقاً أو فراق كما يتوهّم المتوهمون . فالعالم الحديث المتقدم في الاستقصاء وطلبة التفسير هو ، كالعارف الصوفي ، يتطلّب توحيد التفسير ووحدة المفهوم المعبّر لطاقة الكون الشاملة بأسرها للمادّة وللحياة .

* * *

هذه الانطلاقة الصغيرة التي سنعود إلى تفصيلها في غير مجال ، كان لا بدّ منها لتأصيل وتثبيت جذور معرفة العقيدة التقدمية الاشتراكية في نفوسنا .

فالتطور هو مجرى الخلق ذاته ومعراجه فينا . وهو مفتاح السرّ لكل ترفّع حقيقي ولكل حياة نريدها عزيزة عامرة ومرتبطة بحياة الكون وبمصيره . لقد تحرر الإنسان من ثقل الغريزة وتوجيهها عندما برز من الحيوانيّة . فعليه اليوم وقد تطورت غريزته إلى عقل أن يعيش وفق الأسس التي يفرضها نظام العقل ، الذي يوصي بداهة بعدم الابتعاد عن مدار الحياة الطبيعيّة ؛ وكل ما هو وارد في ميثاق الحزب يدل إلى

AUB LIBRARIES

هذه الغاية ويُستدل به إلى الطريق . علينا فقط أن لا نتوقف ، لأننا نحمل قسطاً وافراً من تراث الحقيقة :

«على تشابك هذه الاتجاهات الكبرى للتطوّر التي تعمل وتتفاعل في صميم حياة الكون ، فتدفع بالإنسان وبالجماعات وبالعنصر البشري باتجاه تحقّقها المحتوم وتطوّرها الكامل ، وعلى تركيز هذه الاتجاهات الكبرى للتيار الحي (أي الوعي والحريّة والتجمع البشري والتكوّر الإنساني) وإبراز مفاعيله في وضع استقراري تقدمي ، على هذا السعي وهذه المحاولة الجامعة تقوم فكرة الحزب التقدمي الاشتراكي . . : نجاح المحاولة والتجربة الجماعيّة التي توفّق ، في قالب ووضع تقدمي منسجم ، بين المبتكرات والنُّظم الصحيحة في الأوضاع الجماعية أو الكلية المتطرفة والتي تؤمّن للمنتج وللمستهلك والعامل طمأنينة العيش وشرف الخدمة وشرف الحياة ، وبين الأنظمة الغربيّة التي تضمن للمواطن الحرّيات الشخصيّة الأساسيّة . . وتقوم إذ ذاك على أنقاض العالم القديم — عالم اليوم ، وهو في الشرق من مخلّفات القرون الوسطى — ديموقراطيّة شعبيّة جديدة تؤلّف بين شتات الحقيقة وتجمع بين النقيضين (أو ما يبدو كذلك) : بين النظام والحريّة ، بين الأخلاق والقانون ، بين الفرديّة الشخصيّة والاجتماعيّة ، بين العمل والتأمّل ، بين الماديّة والتجريد ، بين الشرق

والغرب ، بين القديم والحديث : ديموقراطيّة شعبيّة منظّمة تهدف إلى بعث وإنماء تراث بشري خيّر متصل وإحياء مدنيّة عالميّة جديدة قوامها اكتمال تطوّر العنصر البشري وتتميم معنى الإنسانيّة في الإنسان » .

ونحن في كل ذلك لا ندعوكم إلى مأدبة حزن ، بل إلى نشوة الفرح ، الفرح الحقيقي الذي ينجم عن تتميم رسالة الحياة :

« إن هذا الشعور بالفرح وتقبُّل الحياة بثقة واطمئنان ناجم عن تقبّل التطوّر ذاته ، وعن انسجام الحزب أفراداً وجماعة في تيّار الحياة الزاخر والخلاق ، وهو يتحقّق فعلاً بالحسّ الضمني الداخلي الواعي والمتزايد بأنّنا في مقدّمة الحياة .

« والفرح ، كما يقول أحد كبار الفلاسفة[١] ، يبشّر دائماً بنجاح الحياة وبأنّها تقدّمت وبأنّها انتصرت . . »

(ألقيت في بتخنيه)

---

١ برغسون Bergson .

مجتمع الكفاية والعدل

في حديثنا الأخير الذي جرى في بلدة بتخنيه ، أظهرنا وجهاً آخر مشرقاً من عقيدة الحزب التقدمي الاشتراكي يهدف إلى إنقاذ الكائن البشري من هذه الأجواء والمعايش المبتدعة، ومن مناهج التفكير والتصرف المصطنعة التي خلقتها المدنية التقنيّة ، عندما تسلّم زمام تنميتها ودفعها وسيطر عليها فريق من المتسلّطين على رأس المال ووسائل الإنتاج والسياسة، لا يعرفون نظاماً سوى المنافسة الحرّة والربح اللاّ محدود ، ولا يدركون إلى أي مصير سيقودون الشعوب المتعلّقة بهم وبمخترعاتهم وبشراء سلعهم ، كأن الساحر قد أعطى سِحره لسواه ، فأصبح مرتهناً بمشيئة هذا الأخير ، سائراً في مجراه ، أو كمن أطلق ، بفعل بعض الترانيم المُغلَقة على غير صاحبها ، تياراً هائلاً من المياه المتدفقة الجارفة ، فما عاد يعلم فيما بعد كيف يستطيع بعلمه السرّي أن يوقف هذا الفيضان . .

هكذا هي حال البشرية اليوم ، بصيرتها وحواسّها مسمّرة

معلّقة على ما يُقدَّم إليها ، دائماً وأبداً ، في سوق البيع والشراء، حتى ليريدون أن تفكّر وأن تحسّ وأن تَشعرَ بشكل جديد لكي يتمكن المنتجون من بيع ما يخترعون وينتجون . أو كأنّ الاقتصاد ، بما فيه الإنتاج والاستهلاك ، هواية صبية يتسلّون بتطبيق مبادىء التقنية ، أو لعبة مُترَفين متخمين : لأجل الربح والربح الصاعد المستمر ، ولأجل النفوذ وبهجة المعروضات واستثارة الرغبات الجديدة المبتدعة ، والربح لا يتم إلاّ بإنتاج كل جديد ثمّ بالتخلّي عنه مقابل ثمنه .

والدعاية فيما بين كلّ ذلك تحرّض الإنسان على الاستهلاك ما أمكن في الصحف ، في المجلات، في التلفزيون ، في السينما وسواها من وسائل التشويق والإغراء ، فعلى قدر ما يستهلك المواطن يرتفع الإنتاج ويتعدّد نوعاً وكمّاً ويكثر الربح المجني من أرباب الصنع والمال . والإنسان الذي تحدّد بهذا الواقع أضحى آلة لحميّة تتحرّك أو تُدفع وتُستثار لأجل الاستهلاك ، والاستهلاك إلى ما لا نهاية ، بالرغم من محدوديّة حاجات الإنسان الطبيعيّة في النهاية كما خُلق على وجه الأرض . ولو كان لبعض رجال الاقتصاد أن يصفوا الإنسان من هذه المواجهة ، لما صحّ أن ينعتوه بوصف أفضل من الكائن أو الحيوان المستهلك .. هكذا شاءت المدنيّة التقنية أن يصبح الإنسان . هذا ما يحصل بالنسبة لفريق من النّاس ، بينما يقبع

نصف المواطنين أو أقل أو أزيد في حال من البؤس والشقاء والتخلّف المنهك ، تقابلهم وتتحدّاهم في كل يوم وساعة صنعة الصانعين وإتقان المتقنين والإغراءات المقدمة إلى المُتْرَفين ، وهم ، أي هذه الجماهير التي تكاد لا تعد ولا تحصى ، بحاجة إلى كفاف من العيش يشبع ، وإلى سكن صغير تأوي العائلة إليه ، وإلى طبيب وعلاج بدائي وعلم وعمل .

إن عدد الذين يعيشون على وجه الأرض في حالة مستمرة من الجوع يبلغ ملياراً ونصف مليار من البشر ، وبعض العلماء يقدرهم بمليارين أي بثلثي ساكني هذه البسيطة ، يموت منهم جوعاً فقط خمسون مليوناً في كل سنة وأكثر من عشرة آلاف في كل يوم ، حتى أضحى الجوع المرض الأكثر انتشاراً وخطراً في العالم . .

في المجتمع الرأسمالي المتطوّر — كما هي الحال مثلاً في الولايات المتحدة حيث بلغ الإنتاج في السنة الأخيرة أقصى وأعلى ما تعرّف إليه التاريخ بالنسبة لعدد السكان — في المجتمع الرأسمالي المتطور ، يزيد سنويّاً بدون ريب عدد الذين ينتمون إلى القاعدة الاجتماعية التي تشتري السلع الضروريّة للعيش الوسط ، أي يتّسع نطاق الفئات الوسطى التي تتوجّه إليها بعض السلع ، ولكن يظلّ أن استهلاك السلع الضروريّة الأساسيّة لعيش إنساني عادي يبقى خارج متناول كثرة من

السكان تبلغ الخمسة وأربعين مليوناً من الأميركيين المتخلفين الفقراء الذين لم تشملهم بحبوحة الآخرين. لأنَّ النظام الرأسمالي الفردي – بالرغم من تسجيله رقماً قياسيّاً في الإنتاج ورقماً قياسيّاً آخر في تشغيل ستين إلى اثنين وستين مليون رجل وامرأة في سن العمل من أصل مائتي مليون نسمة – لا يمكنه أن يشمل بفائدته ومنافعه الجميع. فتبقى بحيرة البؤس والبطالة ورقعة الفقر والتخلف هذه، وما يتبعها من بطالة اثني عشر مليوناً إلى أربعة عشر مليوناً من العمال والمستخدمين، تبقى رقعة الفقر والتخلف قائمة وسط بحبوحة من الرخاء وانفراج هائل في العيش وإسراف في الاستهلاك، تتمتع بها فئات اجتماعية محصورة كجزيرة ضخمة عارية، أو كصحراء قاحلة وسط هذا التموّج من الثراء والاخضرار.

فالولايات المتحدة مثلاً، بالرغم من تقدمها الصناعي والتجاري الهائل وسبقها جميع الدول المتمدّنة في هذا المضمار، لا تزال عاجزة عن القضاء على الفقر والحرمان وعن تأمين السكن والخدمات الاجتماعيّة والعلم لما يقرب من ربع أهلها.

والسبب في ذلك بسيط: هو أنّه لا يوجد تصميم وتخطيط في الاقتصاد الأميركي ولا أهداف اجتماعية عامّة شاملة للإنتاج ولتوزيع الاستهلاك، إنّما الإنتاج هو للربح، والربح لا يتوزع آليّاً على الجميع.

والتصميم والتخطيط وتوجيه الاقتصاد إلى أهدافه الاجتماعية التي وُجد لأجلها ، كل ذلك يعني بداية تنفيذ المبادىء الاشتراكية . كان يقول لنا الرئيس فؤاد شهاب في لغته البسيطة : لا يصلح الاقتصاد دون أن يكون له هدف اجتماعي ، أي أن الاقتصاد ليس هو غاية بحدّ ذاته ، كما يتصوّر الرأسماليون عادة ، وليس هذه الغاية الربح ، إنّما الربح هو حافز للمبادرة الشخصيّة وللعمل ، على أن الرأسمال هو اجتماعي في مصدره وفي تكوينه وفي غايته ، له وظيفة اجتماعيّة لا يقوم بدونها ، وبكلمة أخرى ، إذا لم يكن الهدف من وراء تنمية وسائل الإنتاج (الزراعة والصناعة والحرف وسائر الخدمات) ، الرّد على حاجات المجتمع الأساسيّة في الكفاية وفي العمل ، فوسائل الإنتاج لا تفيد آنذاك إلا نفراً قليلاً من الناس ومنهم أصحابها .

ولذا استوى للحزب التقدمي الاشتراكي أن يعلن ضمن ما يرمي إليه من « إنعاش الاقتصاد وإنهاضه باعتماد سياسة في الاقتصاد والمال تصميميّة توجيهيّة » كما ورد في الميثاق ، من أن « ١ً – التنافس الحرّ وحريّة العمل والإنجاز ، في نطاق التوجيه الاقتصادي العام ، هي من ضمن الأصول المهنية والخير الاجتماعي ، ومنع تكتلات الرساميل والأشخاص الرامية إلى خنق أو إزالة هذه الحرّيات لمنفعة مصلحة خاصّة .

« ٢ً – اعتماد النظام التعاوني ، حيث يمكن ، في مختلف فروع الإنتاج والاستهلاك » . لأنّ النظام التعاوني يؤمّن أفضل أشكال التجاوب والتساند والتلاقي بين المصلحة العامة وما يسموها بمصلحة الفرد الخاصة ، التي إذا نظرنا إليها نراها لا تنفصل عن المصلحة العامة إلاّ كما تتميّز هذه الخلية في الجسم عن الخلية الأخرى ، أو كما يكون لكل عضو وظيفة محددة ، ولكن جميع الأعضاء تنسجم في الكلّ الواحد .

ولذا شدّد الحزب على مفهوم المجتمع العضوي ، خلافاً للفكرة المنبثقة من الثورة الفرنسية المعروفة سنة ١٧٨٩ التي جزّأت المجتمع إلى أفراد . والمجتمع في واقعه وحيويّة تحركه وصيرورته هو مجمع نشاطات ، وليس هو مجموع أفراد . على أن الثورة الفرنسية قد تطرّفت وغالت فيما ذهبت إليه من ارتداد على الفكرة الجماعية التي سيطرت على تنظيم القرون الوسطى ، فجسّمت واقع الفرديّة في الإنسان ونسيت أو تناست ، في غلواء سخطها على النظام القديم الذي هدمته ، أن الإنسان هو كائن اجتماعي قبل كل شيء ، وأن خلاصه لا يتم في العادة إلاّ في نطاق المجتمع .

فصح للحزب التقدمي الاشتراكي أن يعلن – وهو في ذلك في نقيض الفكرة الفرديّة التي انبثقت خطأً عن الثورة الفرنسيّة – :

AUB LIBRARIES

١ً – « اعتبار المجتمع ليس مجموعة أفراد فقط ، بل كلاً عضويـّاً، حيويّته في تنوّعه، لكل عمل فيه كرامته، ولا تفضل مهنة مهنة ، إلاّ في تأمين انتظام المجتمع واستمراره وترقّيه نحو الكمال » أي أن المجتمع مجموعة نشاطات ، مجموعة وظائف اجتماعية ، مجموعة عضويّة كجسد الإنسان ذاته ، إذا شئنا للمثال والتشبيه.

٢ً– « مكافحة الطبقيّة والإقطاعيّة والتّمهيد لقيام القيادات الصحيحة ، وإيقاظ الشعور بالتضامن والمسؤوليّة الاجتماعيين ».

٣ً – « بعث الحياة في المجتمع بإحياء التراث الإقليمي الخ ».

ولا بدّ من التنويه أن كل حضارة حقيقيّة ، وكل مرحلة نامية من تاريخ العنصر البشري، قد تعرّفت إلى لون من هذه الجماعيّة التي هي مظهر حتمي للاجتماع البشري. وعلى قدر ما كانت تسيطر هذه الجماعيّة وتبرز في حياة المجتمع ، وفي ارتباطه وتضامنه وتماسكه وتطوّره ، كانت الحضارة بمعنى Culture من علم وأدب وشعر وموسيقى وفنّ وعادات متطورة وآداب في العيش ، كانت الحضارة تتجلى وتنمو وتتألق. ثم لما كانت هذه الجماعيّة تذوي أو يتهدّم رباطها أو يتقلص عقدها ، فتبرز الفرديّة وتتقوّى وتهيمن ، كانت الحضارة تتحلل من تلقاء ذاتها وتنزوي وتضعف أدباً وشعراً

وعلماً وفنــاً وعادات لطيفة في العيش ، ثم لا تلبث أن تتهدّم وأن تزول . لانّ الحضارة في المعنى المعنوي للكلمة هي مظهر رفيع ، هي إفراز مستعلٍ une Sécrétion raffinée ، إذا سمحتم بهذا التعبير ، لمجموع نشاطات المجتمع ولانسجام هذه النشاطات وحسن تأليفها ، تماماً كما هي حال الأنغام المتفرقة والمتنوعة في هيكل المعزوفة الرائعة .

وفي هذا الباب كان لا بدّ للحزب أن يتبنّى في نظرته للتاريخ مفهوم النسبيّة العلميّة على إطلاقه . فكل جماعيّة تحققت في التاريخ ، منذ جماعيّة مصر الفرعونيّة في مرحلة تحقيقها لهذا اللون من اشتراكية الدولة ، حتى جماعيّة القرون الوسطى في أوروبا ونظامها الكنسي والأرستقراطي المعروف ، كل جماعيّة لا تقاس إلاّ بواقع الزمان والمكان الذي وُلدت فيه ونمت على طوالع جذوره . فلا يمكن مثلاً أن نقول : هذه الجماعية أفضل من تلك ؛ كما أنّه لا يمكننا أن نقول مثلاً : سن الرجولة في حياة الإنسان هو أفضل من الشباب أو الشباب أفضل من الصبا والصبا أفضل من الطفولة .

فحياة الجماعة البشريّة ، عبر التاريخ وتقلّباته عليها وتطورها من خلاله ، هي تماماً كحياة الإنسان الفرد في مراحل نموّه ؛ لا بل يذهب العلماء اليوم أكثر من ذلك فيقررون : أن حياة العنصر البشري على وجه الأرض تمرّ كحياة الكائن الفرد

AUB LIBRARIES

بمراحل تتوافق معها وتماثلها : أي أن العنصر البشري كمجموعة يولد وله طفولته، ثم صباه ثم شبابه، ثم رجولته فالكهولة فالشيخوخة، ثمَّ الزوال، أي الموت الذي سيفسح المجال لولادة عنصر بشري جديد.

فكل جماعيّة إذن تقاس بالنسبة لواقع حالها وظروفها، أي بالنسبة لتحققها في حيّز المكان والزمان، وهما قياسا الجماعة والإنسان.

مجتمع الكفاية والعدل هو المجتمع الذي ينبع من صميم هذه الاعتبارات والمفاهيم، التي يمكن أن نعتبرها حقائق اجتماعية إنسانيّة دائمة وثابتة، نستخلصها من دراستنا الواعية للتاريخ ولتطور الإنسان فيه.

الكفاية تعني الرّد الشامل على حاجات جميع المواطنين، أي أن لا يبقى واحدٌ منهم دون أن يتوصّل إلى مستوًى من المعيشة المادية والمعنويّة يؤمّن له إرواء حاجات عيشه الأساسيّة.

والكفاية تعني أيضاً وطبعاً أن تكون هذه الحاجات طبيعيّة، وأن يكون الردّ عليها يأخذ بعين التقدير الإطار الطبيعي لحياة الإنسان كما تفرضه أغشيته وأعصابه وطاقته الحيّة، كما سبق وشرحنا في حديثنا الأخير. فالإنسان خُلق ليكون إنساناً سعيداً متحضراً في أعماقه، لا ليكون آلة أخرى جديدة تتلاعب بها أيدي سائر الآلات التي اخترعها بنو البشر. أي علينا أن نسعى

في أن نجعل الإنسان يتخلص وقائيّاً من المرض بتنقية أوضاع أكله وشرابه ولهوه وعمله وراحته ونومه ، وأن نجعله متحضّراً في داخله وكائناً سعيداً ، لا أن تظلّ هذه السعادة تراوغه وتغرّر به من خلال ما تضمّنه عيشه المصطنع من انجذاب خادع ، فيلحق بها ويتتبّعها ، وهي كأنّها تهرب منه وتفرّ « من شاهق إلى شاهق » على حدّ تعبير الحكمة المعروف .

أمّا العدل فينبغي أن يتحقق في الإنتاج ، وفي توزيع الاستهلاك ، وفي الخدمات الاجتماعيّة على السواء .

— في الإنتاج تقوم عدالة المجتمع الاشتراكي في إسهام العامل — وهو المنتج الأساسي — في عمليّة الإنتاج ، وإشراكه بها في جميع المستويات ، في ملكيّة وسائل الإنتاج ، وفي تدبر أمرِها ، وفي إدارتها وفي أرباحها . ومن يشارك في رأس المال المعدّ للإنتاج وللتوزيع والخدمات يستطيع وحده أن تتوفّر له طاقة شراء السلع المنتجة .

والإنتاج تصمّم وتخطط له الدولة ، لكي يعتمد الحاجات الأساسيّة الطبيعيّة للإنسان قبل أي حاجة أخرى . الإنتاج لأجل الحاجة ولأجل الحاجات الطبيعيّة ، لا لأجل الربح فقط ، هو القاعدة التي تؤمّن توفير السلع الضروريّة للعيش لجميع المواطنين ، الذين يكونون قد اشتركوا في عملية تنمية الإنتاج اشتراكاً إيجابيّاً عادلاً متساوياً .

AUB LIBRARIES

ويكون العدل في الخدمات الاجتماعية في اعتبار هذه الخدمات ، ولمن يقوم بها ، وظيفة اجتماعية أساسيّة ، يجب أن تشمل الجميع وتأتيهم على أهون سبيل .

في توزيع سلع الإنتاج تكون العدالة في اعتماد مبدإ التوزيع على أساس الكفاءة والحاجة في آن واحد . أمّا مبدأ الحاجة ، فالاعتبارات الإنسانيّة المحض ومقياس العدالة البدهي تقضي بأن يتوصل كل عضو من أعضاء المجتمع إلى تأمين مستوى من العيش يليق به ويضمن تفتُّح مواهبه . أمّا مبدأ الكفاءة ، فهو تتميم مفهوم العدالة واستكمال تحققه ، فيما هو عليه تنوع المواهب واختلافها بين البشر . ويشير إلى ذلك ميثاق الحزب بقوله :

« وبذا يبتعد الحزب عن كل فكرة سخيفة وخطرة (كالتي نشرتها الثورة الفرنسية مثلاً) تعتمد المساواة الحسابيّة والغوغائيّة التي لا تحترم شخصيّة الفرد ، والتي تقف حائلاً دون إمكانيّة انتفاع المجتمع به ، وتفسح المجال لقيام الأنظمة الكليّة المرهقة . . وهذا المفهوم الجديد للمساواة ، الذي نعني به بعبارة (المساواة العضويّة أو الوظيفيّة) ، يأخذ بعين الاعتبار التفاوت الطبيعي في المواهب والمقدرة والكفاءة والأخلاق ، هذا التفاوت الطبيعي الذي هو الثابت في واقع الحال : فمن العدل ، كما يقول أحدهم ، أن يحصل الجزء الذي ينفع الكل

على نصيب أكبر من غيره ، بالنسبة إلى تفوقه الطبيعي أو المكتسب . . ومن العدل أيضاً أن يحصل الأفراد ، لا بالنسبة لنزعاتهم وحاجاتهم ، التي لا تحد ولا تحصى والتي نوّعتها بشكل هائل (ومصطنع) الصناعة الحديثة ، بل بالنسبة لضرورات حياتهم ومتطلّبات تطورهم ، ومن العدل أن يحصل هؤلاء على الوسائل التي تمكّنهم من تنمية مواهبهم الطبيعيّة واستخدامها ».

فالحزب يتنكّر في هذا المجال ، كما في المجال السياسي ، لأي فكرة مساواة حسابيّة كما برزت من بعض مفاهيم الديموقراطيّة الغربيّة تتنكّر لواقع الإنسان وطبيعته من حيث التفاوت واللامساواة في مكناتها الطبيعيّة الموروثة . فقواعد الوراثة هي شرائع يقررها العلم بشكل لا يمكن أن يتنكّر لها مجتمع ، دون أن تعبث به الفوضى وسلبيّة التنمية والتفتح ، ودون أن ينهار في النهاية على ذاته . كان المهاتما غاندي يقول :

« Je suis porté à croire que la loi de l'hérédité est éternelle et que toute tentative pour la changer conduit à l'absolue confusion... Le Varnashrâma est inhérent à la nature humaine et l'hindouisme l'a simplement réduit en science ... Le Varnashrâma a pour raison d'être l'économie de l'énergie sociale (sa bonne distribution) et la saine contrainte exercée sur soi par la volonté.. » .

« إنّني مدعوّ بأن اعتقد أنّ شريعة الوراثة هي أزليّة وأنّ كلّ محاولة لتبديلها تقود إلى الاختلاط والفوضى المطلقة .

AUB LIBRARIES

إن شريعة الوراثة هذه، هي ملازمة للطبيعة البشريّة، وإن الهندوكيّة قد جعلت منها علماً فقط.. إن شريعة الوراثة يبررها التوزيع الصحيح للطاقة والعمل الاجتماعي، والانضباط السليم الذي يمارسه على نفسه وبإرادته (كل عضو من أعضاء المجتمع)..»

فلا يطمع أحدهم بأن يكون غير الذي هيّأت له صفاته ومكناته الطبيعيّة أن يكون. فما من شيء يخرج من العدم، وما من صفة أو ميزة تُكتسب إلاّ ويكون لها أصل وأساس وتصوير في المواهب التي جئنا بها يوم ولادتنا إلى هذا الوجود.

وهذه الضرورة في تأمين تفتُّح كل كائن بشري إلى تطوير مكناته وصفاته الطبيعيّة وطاقاته المطويّة في حواسّه وجسده ونفسه، توحي بنهج سليم وطبيعي في إصلاح نهج التربية والثقافة في اختيار المهن لأصحابها والإقبال على التخصص العلمي، وذلك بأن تُختبر مواهب الولد في مراحل متعددة من نشأته بما يوفّره لنا العلم اليوم من اختبارات مقبولة لكي يتوجّه، في تعلمه المهنة أو إقدامه على التخصص، بما تفرضه عليه مواهبه الطبيعيّة. ولا يعقل أن يظل الناس يُقبلون ويتوافدون على التثقف والعلم والتقنية على غير هدًى أو بصيرة بما يستطيعون أن يتعلموه وأن يتقنوه على أهون سبيل وأكثر إيجابيّة ونجاحاً وفعاليّة. الأمر الذي ينجم عنه، إذا ما

استمر ، هبوط عام في مستوى جميع المهن والفنون ، كما أخذ بعض قادة البلدان المتطورة يلاحظون ذلك في مجتمعهم .

وعندما تتهيّأ هكذا الظروف الملائمة لتفتُّح المواهب والصفات والميزات الطبيعيّة للكائن البشري ، نكون قد خطونا خطوة أساسيّة نحو انتظام المجتمع وانسجامه وانتظام المواطن فيه .

يكمل ذلك كلّه ، ويستقطبه ويدفع به نحو الفعاليّة القصوى ، نظام للعيش وللحضارة يتوافق مع طبيعة الإنسان . ولأجل ذلك أوضح الحزب : « بأن هذه الفكرة الأخيرة تشتمل على نظريّة للحزب في المدنيّة التقنيّة القائمة على فوضى الإنتاج العالقة بها ، والناجمة بدورها عن الاعتقاد السائد والنزعة المتأصّلة في الفرد والجماعة (في عالم اليوم) : بأن الخير كل الخير في إنتاج جميع ما يتوافق ونزعات الإنسان وحاجاته ، وذلك دون الالتفات إلى أن هذه الحاجات والنزعات لا تُعدّ ولا تحصى ، وأكثرها حاجات اصطناعيّة محضة ، وكلّما أنتجت الآلة ما يكفل بعضها ، تتولّد نزعات وحاجات جديدة ، كأنّما هي الحلقة المفرغة لا نهاية لها » .

كان الكسيس كاريل يقول :

« La civilisation moderne se trouve en mauvaise posture, parce qu'elle ne nous convient pas. Elle a été construite sans connaissance de notre vraie nature. Elle est due au caprice des découvertes scientifiques, des appétits des hom-

AUB LIBRARIES

mes, de leurs illusions, de leurs théories, et de leurs désirs. Quoique édifiée par nous elle n'est pas faite à notre mesure ».

« إنَّ المدنيّة الحديثة تتعثّر لأنّها لا تتلاءم معنا ولا توافقنا . لقد أنشئت بدون معرفة طبيعتنا الحقيقيّة ، وهي نتيجة صدف الاختراعات العلميّة واشتهاءات النّاس وأوهامهم ونظريّاتهم ورغباتهم . وبالرغم من أنّنا نحن الذين شيّدناها ، فإنّها لم تُصنع على قياسنا » .

مجتمع الكفاية والعدل يجب أن يعتمد هذا التوجيه وأن يصدر منه ، وينمو في ظلاله ، وإلاَّ فأيّة كفاية نستطيع أن نوفّرها للإنسان ، إذا لم نتيقّن من حاجات تفتحه الطبيعيّة ومن مكناته الأصيلة في نفسه وجسده ، وإذا لم نستطع أن نردّ على هذه الحاجات والمكنات الطبيعيّة في العيش والتنمية بما يتلاءم مع حقيقة هذه الحاجات والمكنات ؟ . وإذن لا يزيد الإنتاج على أساس الفوضى ، لا الحاجة الطبيعية ، إلاّ في تعاسة الإنسان وتأخير نموّه وانفتاحه .

وإذا انتقلنا إلى مواجهة أخرى من حقائق ما نراه وما يرشدنا إليه علم التاريخ ، نرى أن مجتمع الكفاية والعدل يجب أن يقوم فعلاً على قاعدة الكفاية الذاتيّة ، لا الثراء والترف اللامحدود . ولا أراني بحاجة ، لولا روعة الاستشهاد ، أن أذكر كلمة أفلاطون الشهيرة :

AUB LIBRARIES

On doit éviter ces deux maux, « la richesse et la pauvreté; car l'une engendre la mollesse, l'oisiveté et le goût des nouveautés, et l'autre, avec ce même goût des nouveautés, la bassesse et l'envie de mal faire ».

« يجب أن نتجنّب في تطوير المجتمع هذين الشرّين المتقابلين : « الغنى والفقر ؛ لأن أحدهما يولّد الانحلال والكسل والرغبة بكل جديد ، والآخر يولّد رغبة الجديد أيضاً والانحطاط والنزعة إلى التصرف الملتوي . »

فالاكتفاء هو الكفاية ، والسعادة ، على حدّ التعبير القديم ، هي في القناعة في كل شيء .

هذه القواعد والاتجاهات الأساسيّة أردنا أن نركزها في عقولنا وفي مشاعرنا وتصميمنا ، قبل أن نوضح ما يعتمده الحزب عمليّاً لأجل تحقيق ذلك . لأن المهم ليس ما ننجزه ، بل صوابيّة ما ننجزه ، وصوابيّة النهج الذي نتبعه لأجل إنجازه .

ويتوجب مبدأ الكفاية لسبب جوهري آخر ، هو تزايد عدد السكان بشكل مخيف لم تعهده البشريّة ولم ترتقبه فيما قبل ، حتى أضحت نظريات مالتوس في تزايد عدد السكان بنسبة تفوق تنمية الموارد ، تهددنا في حاضرنا ومستقبلنا . وهذه المشكلة هي أخطر بكثير ، على حد تعبير جوليان هكسلي ، من أيّة مشكلة إنسانية أخرى ، أخطر من مشكلة القضاء على التخلف وعلى الجوع وعلى المرض وعلى البطالة ، لأنّها أحد أسباب

كل هذا : فلا يعقل أن تظل فئات في المجتمع متخمة من كثرة ما يرد إليها من سلع وأغراض ، وفئات أخرى تنتظر اللقمة وتسعى إليها جاهدة ولا تجد معظم الأحيان إلى موارد العيش سبيلاً ، وفي كل تكّة ساعة ، أي في كلّ ثانية ، يولد في العالم ثلاثة أطفال جُدد .. ففي الولايات المتحدة ذاتها ، كما يقول العالم جوزوي دي كاسترو رئيس منظمة مكافحة الجوع ، يوجد بقاع ومناطق تجوع . وكما أنّه يوجد على حدّ تعبيره وتعبير الأب لبرا استعمار خارجي ، اختبرت أساليبه البربرية آسيا وإفريقيا ، كذلك يوجد استعمار داخلي غايته التحكم بوسائل الإنتاج والتوزيع والأسعار لمصلحته ، دون النظر إلى حاجة الجماعة وخير الجماعة . ولا نفكّر فقط بمشاكل الهند وأندونيسيا والصين الشعبية وجنوبي آسيا ومصر بشكل أساسي ، حيث تبلغ الأزمة أقصاها . بل أيضاً نقصد كلّ بلد متخلّف . ففي لبنان مثلاً يُرفَضُ المتطوعون للجيش بنسبة خمسين وستين بالمائة وأكثر أحياناً ، لسبب سوء التغذية وما ينجم عنها من ضعف عام وتقلّص بعض الأعضاء وإصابتها بالمرض ..

والجوع هو السبب المباشر في الخمول وعدم الرغبة في العمل اللذين يسيطران على الجماهير الشعبيّة في البلاد المتخلّفة . وكيف يستطيع أن يعمل ، وأن يقدر على ذلك وأن يشعر بالاندفاع إلى ذلك ، من لم يتوفّر في دمه وأغشيته فضلة من

الطاقة المادية ، من ادخار الطعام ، يمكنه أن يصرفها ، وأن تتحوّل في جسده ودماغه إلى عمل وتفكير وتصميم وشعور ؟ . .

فعلاوة على أن مجتمع الكفاية والعدل هو مجتمع طبيعي — ولا يفيد الإنسان من الكثرة والتخمة والاستزادة على الحدّ الطبيعي المفروض ، بل تصيبه من جرّاء ذلك العاهات والأمراض — فإنّ مجتمع الكفاية والعدل هو الذي نستطيع ، نظراً لاكتظاظ الكون ولظروف البشريّة النامية وأوضاع الموارد ، أن نعتمده لحلّ مشكلة التخلّف في بلادنا وفي العالم بأسره .

لا يمكن ولا يجوز أن يظل العالم منقسماً هكذا : إلى فئات تعمل وتسهر لإنّها تخاف من يقظة الذين يجوعون ولا يعملون .

يتحقق مجتمع الكفاية والعدل بما يشير إليه الميثاق من تدابير أهمّها :

« وضع وتطبيق مجموع قانوني عادل للملكيّة والرأسمال يؤمن بينها التعاون المنسجم الرامي إلى الرخاء العام (وشموله) ، ويستمدّ من وظيفتها الاقتصادية والاجتماعيّة » . .

ويتضمّن هذا المجموع القانوني :

أ — مفهوم جديد تقدمي وعملي للملكيّة : تُعتبر الملكيّة مرتكز حريّة الفرد وطمأنينته واستمراره وبقاء

الأسرة وعامل إنتاج وحافز للمبادرة الشخصيّة ، على أن لا تكون علّة تجميد أو تعقيم للثروة ولا أداة للطفيليّة الاجتماعيّة والكسل ، ولا عامل سلطة أو وسيلة ضغط ، وأن لا تتعارض مع مقتضيات التملك العمومي .

ب - العمل هو الشرط الجوهري لإمكانيّة الإنتاج والجدوى في المجتمع .

ج - يؤمن ذلك :

- تأميم جميع المؤسسات التي لها صفة عموميّة ، أو لها أهميّة خاصة في اقتصاديّات البلاد أو في حياتها الاجتماعية والسياسيّة .

- تصفية أملاك الدولة الخاصة ومصادرة الأملاك العقاريّة والزراعيّة المهملة وتوزيعها .

- تقسيم الملكيّات الزراعية الكبيرة وبيعها بالتقسيط من الفلاحين المرابعين وعمال الزراعة .. وتنشيط التعاون الزراعي وإيجاد نظام ملائم للتسليف الزراعي .

- الحدّ بواسطة الضرائب من الدخل الفاحش ، علّة التكديس الخطر وتعقيم الرساميل والأموال غير المنقولة .

- منع ومصادرة الأرباح الفاحشة وغير المبرّرة ، خاصة أرباح المضارب والمرابي والوسيط .

- تبني سياسة طمأنينة واستقرار نقديّة تزيل الجدوى من

المضاربة ومن تجميد المال العقيم، وتشجّع توظيف وتداول الرساميل، وإنشاء مؤسسة إصدار قوميّة.

ـ التنافس الحرّ وحريّة العمل والإنجاز، في نطاق التوجيه الاقتصادي العام، من ضمن الأصول المهيّئة والخير الاجتماعي، ومنع تكتلات الرساميل والأشخاص الرامية إلى خنق أو إزالة هذه الحريّات لمنفعة خاصّة.

ـ اعتماد النظام التعاوني، حيث أمكن، في مختلف فروع الإنتاج والاستهلاك.

ـ جعل الشغيلة ذوي مصلحة في نجاح العمل وخاصّة في المساهمة في الربح، فالعامل شريك في العمل بحيث تكون له أجرته، أمّا الأرباح الصافية فتقسّم وفقاً لنسبة عادلة بين الرأسمال واليد العاملة. (وبين الدولة واليد العاملة في حال التأميم)..

ـ نهضة بالقرية منهجيّة ـ من حيث هي الخليّة السكنيّة الأساسيّة في المجتمع ـ، وإعادة التوازن بين سكنى القرية وسكنى المدينة، محافظة على قداسة ارتباط الإنسان بالأرض ـ مصدر كل حضارة ـ «واعتماد نظام الخدمة الاجتماعيّة الإجباريّة».

وسواها من التدابير الرامية إلى جعل الاقتصاد والتقنية ومفاهيم التنمية والارتقاء والتقدم في خدمة الإنسان، ولتكوين

مجتمع إنساني يرتاح في ظلاله هذا الكائن الذي هو نحن . وبكلمة للحيوان غريزة تقوده وتدلّه وترشده . هذه الغريزة قد نمت وتطورت إلى فكر وعقل في مستوى الإنسان . فعلينا أن نستخدم العقل – هذا الحس السادس – وما يتضمنه من وظيفة احتكام وتمييز ، لكي نعيد وظائفنا إلى مدار نشاطها الطبيعي وإلى ما خُلقت لأجله ، وأن نعود بالإنسان المضلَّل إلى نطاق حياته الطبيعيّة التي لأجل تحقيقها أوجده التطور . .

هذا العالم الإنساني ، هذا المجتمع الإنساني ، يستحق أن نعمل لأجله بجميع قوى عقلنا وشعورنا وطاقة نفسنا وجهد أيدينا وحواسنا ، وهذه الحضارة التي نرتجيها توجب علينا النضال لأجل تحققها ، لأنَّ فيها وحدها سعادة الإنسان .

إن أفكارنا هذه – أفكار الحزب التقدمي الاشتراكي – هي البعث الحقيقي الجديد ، هي تجاوب لأصداء حركات فكريّة مماثلة في العالم ، إذا ما عملنا لأجل فهمها واستيعابها ونشرها جاهدين ، فإنّها تحدث ثورة حقيقيّة في نفوسنا وفي نفوس الآخرين ، وتبدّل جوهريّاً من مجرى حياتنا ومن حياة المجتمع وصورته ومثالاته وأهدافه ونوعيته وروحه .

هذه الأفكار ، إذا دخلت فينا ، أدخلت روحاً جديدة ، تحيي الوافر من الآمال ، وتوقظ الأنفس الناعسات ، وتبعث اليقين

AUB LIBRARIES

بالحق الذي نلقاه في كل يوم ، وتصبح إذ ذاك ، بطاقتنا ووعينا ، قوّة غالبة وظافرة في المجتمع الذي نحن منه ونعمل لأجله ، وتقطع الأودية وتخترق الجبال وتجوب البحار ، لتتلاقى مع أولي العزم والفطنة وأبناء التضحية في كل صقع وتحت كل سماء ، لتنشر رسالة الإنسان ، في هذا المنعطف من التاريخ ، أي رسالة الاشتراكية المباركة ، الواعية لحقيقة الإنسان ولحقيقة مطلبه ، على بني البشر ، قبل أن تعتورهم في عماهتهم مصيبة جديدة من صنع أيديهم المضلّلة ، فتقضي عليهم كما قضت على من سبقهم من الأمم والشعوب .

AUB LIBRARIES

نظام الدولة : الديموقراطية الاجتماعية السياسية

في البحث الذي كنّا أعددناهُ لنلقيه في اجتماع كامد اللوز ، أظهرنا أن مجتمع الكفاية والعدل ، أو الكفاف والعدل ، يرتكز في تصوّره على المبادىء الأساسيّة التي أوضحها الميثاق التقدمي الاشتراكي وفي رأسها :

١ً — توجيه الاقتصاد إلى الغايات الاجتماعية التي لأجلها يقوم المجتمع وإلى تحقيقها يسعى . فلا اقتصاد بدون هدف اجتماعي . . والفارق بين الاقتصاد الرأسمالي الفردي والاقتصاد الاشتراكي ، هو أن الاقتصاد الرأسمالي الفردي ينزع ، بطبيعة الحرية الاقتصادية المطلقة ، وبسبب تكوينه وظروف عمله ، إلى الربح الفردي فقط ، دون أن تتوجّه وسائل الإنتاج والتوزيع إلى الردّ المباشر على حاجات الإنسان الأساسيّة الطبيعيّة في العيش والتنمية .

٢ً — إنَّ ما يقصده الحزب التقدمي الاشتراكي بحاجات

الإنسان الطبيعيّة هو ما تفرضه ، من أغراض ورغبات وتطلّبات ، طبيعة الإنسان ذاتها ومدار حياته الطبيعي ، كما هو عليه الإنسان فيما يتكوّن فيه من أغشية ووظائف وأعصاب وتوق للراحة والسلامة الجسديّة والنفسيّة ، وتوفير جوّ ملائم لتنمية مواهب كل إنسان وفق ما تضمّنته واستبطنته خلاياه الوراثيّة من كفاءات وطاقات ، وتنوع فكر وشعور ، وتخصّص عمل . ونقول أكثر من ذلك : إنّ وظيفة الإنسان هي الانتظام في عمليّة خلق الكون وسنن هذا التكوين . . وعليه أن يلعب بنار المعرفة في غير السنن التي قام على أساسها هذا الخلق الفسيح . .

٣ً – تركيز كلّ نشاط إلى العمل . فالعمل وحده يصقل الإنسان وينمي مواهبه الدفينة ويبرزها جسداً وعقلاً . . إنّ الأرض تفسد بدون نشاط أبنائها وهم يفسدون ، والعمل هو حقّاً الملح الطاهر للأرض ولكل حياة . ولذا كان العمال عنوان هذا الشرف الرفيع الذي يمارسه الإنسان في حياته . . ونكاد لا نتصوّر مجتمعاً لا يكون فيه عملٌ . فالعمل هو في أعماق تصميم هذا الكون وقصده ، ومحرّك تطوّره . والحركة هي في الواقع الطاقة ذاتها ، كما تدّعي تلك النظريّة اليابانيّة القديمة ، ويؤكدها العلم من جديد . على أن العمل يجب أن يكون كاللعب تماماً ، أي أن نقوم به بروح الفرح دائماً وأبداً . فهذا

العالم ليس هو وادي الدموع بل هو حلبة تجلّي الروعة والجمال والفرح . والفرح هو من صميم طبيعتنا الحقيقيّة . .

٤ً — التفريق بين حريّة الاقتصاد، كما يصوّرها الاقتصاد الرأسمالي ، وبين حركة المبادرة الفرديّة . فحريّة الاقتصاد الرأسمالية، المطلقة من كلّ قيد، هي شيء، وحريّة المبادرة شيء آخر. والحزب لا يبغي مطلقاً القضاء على حريّة المبادرة ، بل يعتبرها أسّاً جوهريّاً في تحقّق كل نشاط بشريّ، شرط أن تتوجّه إلى الأهداف الاجتماعيّة والمعنويّة . . وبعدُ، كيف يصح القضاء على حريّة المبادرة ، وكل نشاط مصدره في النهاية المواطن الفرد العامل — في الأعمال الخاصة والأعمال الحكوميّة على سواء ، في المؤسّسة الجماعيّة التي أمّمتها الدولة وفي تعاونيّة الإنتاج والاستهلاك ، كما في المؤسسات التي يملكها ويديرها أفراد ؟

٥ً — التشديد على أنّ التوزيع هو مهم كالإنتاج ، لأنّه من الوجهة الاجتماعيّة لا ينفصل عن الإنتاج ، فيجب تنظيم التوزيع لكي تشمل الكفاية جميع المواطنين .

٦ً — اعتماد مبدإ العدل في توزيع الإنتاج وفق القاعدة : لكلّ على قدر حاجته وكفاءته . والناس غير متساوين فيما بينهم إلاّ فيما يتطلبونه من حدّ أدنى لمعايشهم . فالتوزيع على أساس الحاجة والكفاءة هو تتميم مباشر لاعتمادنا مبدأ الانتاج

وفق حاجات المجتمع الأساسيّة والطبيعيّة، أي الحقيقيّة، أي الإنسانيّة.

٧ً — مبدأ الكفاية أو الكفاف — الذي هو مبدأ اقتصادي طبيعي يفرضه توفير الممكنات للجميع وشريعة سلامة الإنسان جسداً ونفساً، ممّا ينجم عنه من مضار الارتواء والشّبع والتنعّم بدون حدّ، وبما لا تطيقه ولا تستسيغه وظائف النفس والجسد. فهذه النظريّة القائلة بحاجات الإنسان غير المحدودة هي نظرة خاطئة للإنسان ولحياته، وقد تكون الرأسماليّة الحديثة هي التي ابتدعتها وروّجت ذهنيتها لغرض تصريف منتوجاتها لا أكثر..

٨ً — جعل جميع الخدمات التي لها وظيفة اجتماعيّة خاضعة لتوجيه المجتمع، أو تحويلها إلى مؤسّسات اجتماعيّة تشرف عليها الدولة مباشرة.

مجتمع الكفاية والعدل، المجتمع الذي يتوافق أكثر ما يمكن مع طبيعة الإنسان وظروف تنميته المتكافئة، هو الذي يعنيه الحزب عندما يعلن: «أن الغاية الوحيدة لكل عمل ومؤسّسة بشريّين هي تفتّح كامل ومتناسق لمقدور الفرد — أي لما هو عليه الفرد بطبيعته ولما يكمن فيه من نزعات بديهيّة، لا ما يفرض عليه في إطار اصطناعي من الرغبات والعيش — وأن المجتمع في كلّ مؤسّساته — ومنها السياسيّة — ليس في

AUB LIBRARIES

ذاته غاية بل وسيلة إلى بناء هذا الإنسان ، فالدولة تقدّس أو تلعن ، تخصب مؤسّساتها أو تعقم بقدر ما تخدم أو لا تخدم هذا الإنسان » .

مجتمع الكفاية والعدل هو مجتمع ينصهر فيه « الشعب في وحدة اجتماعية تامّة » ، وتنسجم فيه وترابط وتتساند وتتكامل ضمنه النشاطات المختلفة للإنسان المواطن ، يمتدّ بها ويغلّفها ويرفعها هذا النشاط الأخير الذي هو الدين — الدين الذي ليس هو مظهراً للتعصب والتحجر الفكري والتّمسُّك التقليدي كما يتصوّر البعض — إنّما الدين على حقيقته ، من حيث هو باب يشرف منه الإنسان على حقيقته التي هي حقيقة الوجود ، ونور يبدّد به عتمة المعتقدات ويتعدّاها . فالدين مسلك وطريق وليس هو غاية وقبلة ومحجّة .

مجتمع الكفاية والعدل ليس هو مجموعة أفراد ، كما ينزع إلى تصوّر ذلك أصحاب النظريّات الفرديّة في الديموقراطيّة ، المنتسبون إلى روسو وإلى مدرسة الثورة الفرنسيّة ، بل المجتمع هو « كلٌّ عضوي ، حيويّته في تنوّعه ، لكل عمل فيه (مقامه) وكرامته ، ولا تفضل مهنة مهنة إلاّ في تأمين انتظام المجتمع واستمراره وترقّيه » .

ومن الخطل الكبير أن يستمرّ المواطن والمفكّر في اعتماد النظرة الفرديّة للإنسان وللمجتمع التي قامت عليها فكرة

الديموقراطيّة الغربيّة والمدنيّة الغربيّة، وأدّت إلى انفلات الإنسان من كلّ قيد تقريباً، وإلى الاتجاه به في نقيض حقيقة الوجود. وإنّما كلّ شيء في الوجود الظاهر والباطن ينزع إلى الوحدة، إلى الواحد إذا شئنا التعبير الصواب، العلم الحديث كعلم الحكمة والعرفان، الدين كالتصرف البشري، الحبّ والشعور كالعقل ذاته. وما التوحيد في كل دين إلاّ انطلاق المتعبد، من قواعد الاعتقاد وسنن المجاهدة والعمل بالخير، إلى مناجاة تلك الوحدة.

وإنّما المجتمع مظهر لهذه الوحدة من الترابط والتضامن والتعاون بين المواطنين. فهل ينشدون الخلاص إلاّ فيها ومن خلالها وإلى محورها؟

وهذا المجتمع التقدمي الاشتراكي الذي يتركز على الظاهرة الجماعيّة للتطور التي تهدف، فيما تهدف إليه، إلى «القضاء على عوامل التفرقة والتشتيت والعداء غير المثمر في صلب المجتمع وأوضاعه، وخاصّة إلغاء نظام الطائفيّة السياسيّة»، و«مكافحة الطبقيّة والإقطاعيّة، والتمهيد لقيام القيادات الصحيحة، وإيقاظ الشعور بالتضامن والمسؤوليّة الاجتماعيين»، هذا التضامن وهذه المسؤوليّة التي تتحقّق وتبرز بشكل عملي عندما يعتمد الحزب إنشاء تعاونيات الاستهلاك والإنتاج ونظام «الخدمة الاجتماعيّة الإجباريّة».

AUB LIBRARIES

هذه النظرة الجماعيّة العضويّة الحقيقيّة للمجتمع تبعده في آن واحد عن المجتمع الانحلالي المتفكك ، والذي يسمّونه خطأً « المتحرّر » في لغة من ينشدون التحرر في التخلّص من التضامن والتعاون والمسؤولية . وهذه النظرة الجماعيّة ذاتها تبعد المجتمع التقدمي الاشتراكي عن الأنظمة الكليّة على إطلاقها (أي الماركسيّة الشيوعيّة والفاشيّة وسواهما) ، من حيث أن هذه النظرة التقدميّة تنفتح ولا تنغلق على تطلّع دائم وأخير إلى حقيقة الوجود وحقيقة الإنسان ، إلى هذه الوحدة الجوهريّة التي تستقطب المجتمع والإنسان في جميع نشاطاته ، ولكنّها تتعدّاهما ، فهي من خلال المجتمع والعمل البشري والنشاط العقلي والعلمي والتأمّل الروحي ، هي المحور الأساسي وقطب الرحى الذي يدور عليه كلُّ شيء ، ينشقُّ منه ويعود إليه في حركة الخلق الدائب . وهذا الاعتبار للتنوّع الضروري ضمن الوحدة الشاملة ، وهذا الانتظام للجميع « الذي يهدف صوب ترقي المجتمع نحو الكمال الإنساني » ، لا حشد الإنسان خليّة ضمن خلايا قفير النحل ، هما الفاصل الوضعي بين النظام التقدمي الاشتراكي وبين الأنظمة الكليّة على إطلاقها ، التي أصبح فيها الفرد جزءاً من كلّ ، لا قيمة تتفاعل مع سائر قيم هذا المجتمع .

وفي هذا السياق « يوضح الحزب هذا التوافق والانسجام

ـ بالمؤسّسات والأوضاع التي يرمي إلى تحقيقها في نضاله ـ بين الوعي والحريّة من جهة ، والجماعيّة من جهة ثانية ، عندما يؤكد « ضرورة قيام وضع معتدل متوازن آخذ « بالتنوّع في الوحدة وبالفرديّة النازعة إلى تحقيق الشخصيّة » (لا بالفرديّة التي تكون بذرة انفلات وعزلة وتهديم) ، يؤسّس على « تضامن أخوي يكون نتيجة للتخصّص الوظيفي ولمرتبيّة مرتكزة على تفاوت المواهب في المواطنين » ، وعلى ضرورة الشخصيّة القائدة الخلاّقة المسؤولة » في جميع المستويات . وهل ينجح عمل دون أن يكون في أساسه وتكوينه عقل مسؤول ، وهل المجتمع من بعض وجوهه سوى مجال لتحقيق ما يفكّر ويشعر به ويتصوّره ، ويدفعه في حقل التنفيذ ، أفراد عرفوا أن ينبوع الخلق والتجديد إنّما يكمن في صميم الفرد الإنسان العاقل الخلاق المسؤول ؛ « وبذا يبتعد الحزب ، كما ينصّ على ذلك الميثاق ، عن كلّ فكرة مبتذلة وخطرة تعتمد المساواة الحسابيّة والغوغائيّة التي لا تحترم شخصيّة (المواطن) الفرد ، والتي تقف حائلاً دون إمكانيّة انتفاع المجتمع به ، وتفسح المجال ، في النهاية ، إلى قيام الأنظمة الكليّة المرهقة . . وهذا المفهوم الجديد (والواقعي الحقيقي) للمساواة ، الذي نعني بعبارة (المساواة العضويّة والوظيفيّة) ، يأخذ بعين الاعتبار التفاوت الطبيعي في المواهب والمقدرة

والكفاءة والأخلاق ، هذا التفاوت الطبيعي الذي هو الثابت في واقع الحال » .

وهذه النظرة للمساواة العضويّة تجعلنا ندرك ما هو الخطأ الأساسي الذي تتعثر به الأنظمة البرلمانيّة المعتمدة للنظرة الحسابيّة في المساواة، ولماذا لا تُبرز هذه الأنظمة القادة الحقيقيين للشعوب وأرباب الكفاءة الصحيحة في حقل السياسة بشكل خاص ، ولماذا لا توصِل إلاّ متوسطي المقدرة والكفاءة وأرباب اعتدال الذكاء والكفاءة أو معدوميها في كل حال . أو كما يقول أحدهم :

La Démocratie parlementaire est le régime des médiocres.

« إن النظام الديموقراطيّ البرلمانيّ هو نظام البُله أو معتدلي الكفاءة والعقل » .

وفي هذا النهج في التوجّه ، نستوعب أيضاً لماذا يكافح ميثاق الحزب الإقطاعيّة كتيار سياسي مسيطر ، بوصفها لم تعد تمثل ككلٍّ روح الكفاءة القياديّة في المجتمع الذي نعيشه ، لأنّها تحجّرت ولم تتوجه نحو إبراز الأفضل والأرجح من أبنائها، بل اكتفت بالاسم وتوقفت عند الشهرة واعتمدت مبدأ الوجاهة الظاهرة الموروثة . . ولا يعني ذلك أن الأرستقراطيّة — في أيّام ازدهارها، أي في عهود جهاد السيف واستشعار الفروسيّة والشرف ، واستقطاب الشجاعة والشهامة والبطولة والتضحية

والخدمة العامة ــ لم تقم بدورها التاريخي على أفضل ما يمكن.. فالأرستقراطيّة نزعة الحياة، كما كان يقول العالم كاريل، وهدف التطوّر دائماً وأبداً، أي نزعة إبراز الأفضل على الدوام، الأقدر والأكثر شجاعة وصبراً وعقلاً وخلقاً.. وعندما لا يعود المجتمع، بسبب فساده أو فساد أنظمته، أو تحوّلها عن المرحلة التي كانت تتلاءم معها في مجرى التطور، إذ ذاك لا تعود الفئات القائدة تمثل الأفضل والأصلح والأصوب في تشخيصها لتيار التطور المرحلي، فيقع التناقض، ويحل عدم الملاءمة والموافقة بين ما هو وما يجب أن يكون، وينفتح الباب إذ ذاك لشتّى التبديلات والتغييرات في المجتمع وفي الدولة؛ وتندلع نار الثورة إذا تفاقم الوضع ولم يعد مردٌّ من إشعال الهشيم واقتلاع اليابس والقضاء على انحلال القيادة الفاسدة.

هدف الحياة، هدف التطوّر، هو إبراز الأفضل والأقوى والأقدر. وفساد المجتمع يكون عندما لا يستطيع أن يبرز الأفضل والأقوى والأقدر. ومرض القيادات الاجتماعيّة السياسيّة وانحطاطها يكون عندما لا تعود تمثّل الأفضل والأقدر والأقوى. والغاية الأساسيّة من الأنظمة السياسيّة يجب أن تكون إبراز أفضل القوى البشريّة الإنسانيّة التي تستطيع ــ في كلّ مرحلة من مراحل تطور المجتمع ــ أن تقود المجتمع والسياسة ــ وهما لا ينفصلان ــ لا أن تحافظ على الاستقرار المزعوم

AUB LIBRARIES

المتلبّس بالظلامة الطاغية أو سواها من مفاهيم الأوضاع القائمة .

والقائد، في هذا المعنى ، يجب أن تكون له روح ثوريّة ونظرة ثوريّة، دون أن تتحوّل عينه عن الواقع ، الواقع الذي هو فيه .. ولا يفيد الإنسان أن يكون مثاليّاً ، بل يفيده ويفيد مجتمعه أن يكون مثاليّاً واقعيّاً Un idéaliste réaliste ، كما يقول المهاتما غاندي . . هذا هو المعنى الحقيقي للماركسيّة في هذا الوجه ، لو كانت تتسع لمفهوم كامل وشامل للإنسان وللتطور .

وهذه النخبة، التي ألمحنا إليها، تعيش في مدى التطور ، وتحيا مفهومه كأنها قطعة منه أو كأن روحه قد دخلت في سياق حياتها الفرديّة . ولذا فإنّها لا تنحصر في زمانها ومكانها ، بل تتعداهما إلى ما يخطّطه وينبثق عنه الماضي والحاضر في مجالات المستقبل القريب والبعيد . والمكان والزمان قطعة متحرّكة أو حقل متبدّل على الدوام ، لا كيان خاص له بحد ذاته إلاّ على قدر ما يتشخّص فيه الماضي ويحتضن من بذور المقبل في نطاق التطور المبدع الدائب ـ وإنّما الإنسان الذي عرف هكذا مقامه في سلّم تعاقب الأحداث ـ وهو حدث منها يتعداها بشعوره بوجوده أي بوعيه ـ هو حدث منها يساهم في تكوين المجتمع وفي تخطيط قدره . هذا الإنسان الذي يشير إليه ميثاق الحزب بقوله : « هذه الوجهة للتطوّر الموحّدة للعنصر البشري وللكون بات يتحسّس بها ، كأخوّة جامعة وفاهمة ، جماعة

من الناس يتزايد عددها أكثر فأكثر — جماعة الإنسان التطوّري » L'homme évolutif .

ولا بد من التوضيح ، في المقابلة ، بين الحِقَب التي مرّت فيها البشريّة إبّان صعودها التاريخي من إنسان الكهف والقنص وقطف الثمار ، والتي انحصر فيها الإنسان في منطق وإطار تاريخ قومه وشعبه على شاكلة قبيلة كبرى توسّعت مفاهيمها ، ولكنها ما زالت تفكر وتشعر بذهنية أبناء جلدتها وقوميّتها الضيقة ، وبين انطلاقة هذا الإنسان الجديد من مداره المحدود التاريخي إلى الاستبصار والتوجّه بمفهوم شامل للتطور . ولا يعني ذلك أن الإنسان التاريخي الذي عشنا على مفاهيمه آلاف السنين ينقرض فينا ويزول ، بل إنه يبقى ، ولكنّ أفقه يتسع ونظرته تشمل ، ومصادر معين حياته وفكره وشعوره تتخذ لها أسساً فيما يتعدى التاريخ وما قبل التاريخ ذاته في ما هو حقيقة انبعاثه وتطوره ومصيره . إنّه انقلاب في الواقع في تاريخ الإنسان أن يصبح في نظره تاريخه هو تاريخ الجنس البشري ، تاريخ التطور المادي النباتي الحيواني ، تاريخ الكون بأسره . وبذا يستطيع الإنسان وتستطيع الجماعة أن ترتفع فوق ما يسمّونه مجاري القدر ، لأنه ولأنها يكونان قد استوعبا شرائع هذا القدر الدفين — والذي هو السلك الداخلي للتطور — وسننه من الداخل ، كمن يرى الأشياء تتهيّأ للظهور من الغيب المجهول . ولأنّ الوعي يكون

قد تكامل في هذا الإنسان الذي وصل إلى هذه القمّة من مرتقاه.

ولا مندوحة لنا من إظهار دور التقليد ــ التقليد السليم ــ في كل هذه التنشئة للإنسان وللمجتمع الجديد .. وكثيرون من السذّج والمضلّلين يعتقدون أنّ التحرر هو في نبذ كل تقليد، والتخلص من كل ما يمسك بنا بالماضي ويشدنا إلى إطار اجتماعي ومعنوي، كأننا أصبحنا أبناء الساعة وليس وراءنا شيء نستمد منه ونندفع بمقاييسه. هذا ليس تحرّراً، إنّه بدعة في التحرّر، إنّه مسخ للتحرّر. بين الفوضويّة والانفلات أو الانحلال وبين التحرّر بون شاسع. وكيف يستطيع الإنسان، على حدّ تعبير أحدهم، أن يرتفع فوق الأرض إن لم يستند إليها. فالتقاليد، علاوة على أنّها قوّة في مصير الجماعات وتلاحمها وارتباطها، هي السنن الحقيقيّة للمجتمع. وما الغاية من القانون ــ من كل قانون ــ إلاّ أن يتحوّل، مع مجرى العادة، إلى ذهنية وتقليد. إنّ الشعوب التي تعيش بدون تقاليد في الحياة هي كالأشجار التي نحاول اقتلاعها من الأرض وفصلها عنها. وهل يقصد الميثاق شيئاً سوى تنمية هذا التقليد السليم في المجتمع السليم، عندما يعلن ضرورة «تثقيف الشعب سياسيّاً واجتماعيّاً، بغية التوصّل إلى وضع ديموقراطي استقراري بفضل تنمية رابطة انضباطية Discipline ونهج في المواطن تكون محض اختياريّة».

على أن التقليد، كما سبق وأشرنا، يجب أن يتخلّص من

الشوائب العالقة به ، وأن يتّفق مع الفكرة السليمة الحقيقيّة التي تكوّنت لنا عن الإنسان . والتقاليد في هذا المعنى هي تشخيص وتكريس لعادات في النفس سليمة يكون المجتمع قد خزنها في إطاره .

هذا المجتمع التقدمي الاشتراكي ، الذي تبيّنّا وحدته الحيّة وانسجامه مع تيار التمثيل الحياتي العميق ، يتنكّر ، بطبيعة الحال ، لكل طبقيّة ، ولكل مفهوم للطبقيّة . فالطبقيّة شيء ، والرتبيّة الناجمة عن أفضل تخطيط اجتماعي لإبراز القيم ولقيادة النشاطات في مختلف المستويات شيء آخر . وعندما تتجرّد الرتبية Hiérarchie من الكفاءة تتحوّل إلى طبقيّة وإقطاعية وسواهما من المفاهيم ، تماماً كما تنسحب الحياة تدريجيّاً من بعض أعضاء الجسد النشيط ، أو يعتريها المرض ، فيدخلها الوهن وتفقد مكنة النشاط جزئيّاً أو كليّاً . وهذا ما عناه الحزب « بالتضامن الأخوي الناجم عن التخصص الوظيفي وعن رتبيّة مرتكزة على تفاوت المواهب في المواطنين » ، وعلى إفساح مجال المسؤوليّة والمبادرة ، أي على « ضرورة الشخصيّة القائدة المسؤولة » .

هذه النظرة تتنكر للطبقيّة ، أو إذا تحدّثت عنها واستثارتها ، فلغاية الانتقاد وإظهار العيب المسيطر والعلّة المشكوّ منها . أو تصبح الطبقيّة أحد عوامل الدفع الثوري ، عندما تسيطر وتضغط وتحجز انطلاق معظم قوى المجتمع . وهذا لا يحدث إلاّ ندرة ،

AUB LIBRARIES

ونظراً لظروف تاريخيّة واجتماعيّة قاهرة . أمّا الواقع العام فهو أن المجتمع يتحسّس بالتيارات المتحرّرة ككلّ شامل لمعظم أعضائه ، وأن جميع قوى الشعب الواعية المتحرّرة تنطلق، وكأنّها على ميعاد واحد ، للعمل في سبيل تبديل واقع الحال والقضاء على الطبقيّة ، وتحويلها إلى رتبيّة حقيقيّة للمواهب ؛ هذا ما يحدث في ظل نضال شعبي اجتماعي سليم . هذا ما تفتحت عنه اختبارات الشعوب في الجيل العشرين الذي نعيشه .

لذا صحّ للميثاق أن يعلن أنّه : « يبدو للناظر ، من وجهة التطوّر الشامل إلى الماركسيّة القائمة على النضال الطبقي وانتصار الطبقيّة في صراع نتيجته تأميم وسائل الإنتاج والاستهلاك وزوال الدّولة من الوجود ، أنّ الماركسيّة قد تكون ، أو كانت بالفعل في بعض البلدان ، مرحلة لا أكثر من مراحل التطوّر البشري ، ولكنّها أضحت اليوم مسبوقة عن وضع هذا التطوّر بمراحل ، كما لم تكن تزيد في واقعها عن أنّها أسلوب وطريق فقط لتحقيق نزعة وفكرة للعدالة وللأخوّة الإنسانيّة استبطنتها .. »

« وما كان الحزب التقدمي الاشتراكي ، وهو جناح مبسوط تمدّ به أكفّ التطوّر ، ما كان ليجمد على أساليب يتعبّدها ، وإنما شأنه أن يتبنّى منها ما هو أكثر تلاؤماً مع حاديات التطوّر الشامل في كلّ مرحلة من مراحل تنفيذ تعاليمه ومبادئه » .

وهكذا يعتمد الحزب أن يزيل في مجتمعه « الصراع التاريخي بين الطبقات ، الذي استنفد قوى العنصر البشري وإمكانياته في خلافات ونزاعات داخلية مستمرة » ، « فتتحوّل هذه القوى والجهود والإمكانيّات وتعمل متآزرة لتفهم أسرار الطبيعة والنفس وللسيطرة عليها ، وبالتالي لاستكمال مجرى التطوّر في تحقيق وتتميم الكائن البشري » .

ويجب أن نكمل هذه النظرة ، التي اعتمدنا فيها شرح الأسس المبدئيّة لنظام الحزب السياسي ، بلمحة عن القوميّة التي يتصوّرها الحزب ، والتي هي مظهر من مظاهر التجمع البشري في أحد إطاراته ، والتي « يجب أن تقوم على أساس المحبّة والخير الشامل ، والتسابق إلى المساهمة في البنيان العلمي والحضاري . ومن هنا رأى الحزب أن يتقبل الفرد وأن تنفتح الجماعة لكل تيار فكري في العالم ولكل تراث ولكل مدنيّة ، باعتبار أنها مظهر من مظاهر تحقق الشخصية البشرية المتنوعة المتناهية ، والنازعة في صميمها ، بإمعان ، إلى التفاهم الشامل الكامل » .

« هذه الوجهة للتطور الموحّدة للعنصر البشري وللكون ، بات يتحسس بها ، كأخوّة جامعة وفاهمة ، جماعة من الناس يتزايد عددها أكثر فأكثر – جماعة الإنسان التطوري » .

AUB LIBRARIES

الشعب

سلسلة لبنان الغد ومؤسساته الفاعلة

يتردّد في نفسي أنّه قد يكون لنا في الموضوع مكاشفات وخواطر لا تعجب عدداً من النّاس ، لأن لنا آراء خاصة قنصناها في لمحات خاطفة إبّان دراساتنا ، وطيلة خبرتنا السياسيّة الّتي كانت دائماً تنشد المثالات والمبادىء دون أن تغمض جفناً عن الواقع . . هي مدرسة في التفكير والسلوك ، شرقيّة وغربيّة في آن واحد ، قد عبّر المهاتما غاندي عن بعض وجوهها بما أسماه : التأليف الجامع بين الواقعيّة والمثاليّة في قوله : أنا مثالي واقعي « Je suis un idéaliste réaliste » ، وذلك في مقابل ونقيض الذين يدّعون المثاليّة الخياليّة أو الطوبويّة والّتي هي ، معظم الأحيان ، تحجب لوناً رفيعاً أو متورّماً من الأنانيّة الشخصيّة ، فتتستّر المثالية بالطموح ، أو ترتدي لباس الرومنطيقيّة أو الوجوديّة القديمة أو المستحدثة ،

AUB LIBRARIES

وهي ذاتها في الجوهر.

فالشعب اللبناني هو ككلّ شعب : تراث وواقع وتضامن وصيرورة.

فالتراث لنا فيه كلمة طويلة ، لأنّه المرتكز الاساسيُّ الذي يغذّي بالحقيقة شعور الوحدة والتضامن والتماسك ، وينمي وجوديّة الارتباط ، عقلاً وعاطفة. وهذا الشعور ، المندمج بالفهم العقلي ، يزاوجه ويلاحمه في تصوره وتعبيره فيما نسمّيه الرأيَ العام ، يبرز أحياناً ، كما كان يذكرنا ذلك صاحب النَّدوة ، أي عندما ترتفع وتيرة النضال في ساعات الحق الكبرى « Les Heures de Vérité » ، فينسى هذا الشعب تناقضاته الناجمة عن عصبيات الطائفية السياسيّة وعن مشاعر التبعيّة الإقطاعيّة ونزوات الانسياق الزلمي وتحزّبات الوجاهة ، ويتعرّى من هذه الروح النفعية البرجوازيّة ، ليرتفع فوق مستواه ، ولو لفترة قصيرة من الزمن .. ويجب الإشارة إلى الدعوة السياسيّة المجزِّئة للكيان الشعبي ، وإلى العلاقة المصلحية الصغيرة التي تتوثّق بين المرشح للنيابة والزعيم السياسي وبين جمهور ناخبيه ومؤيديه ، وكذلك إلى الذهنية المتخاذلة الملتهية التي تتعمّم بشكل رهيب وتُسهم في نشرها الصحف والشاشة البيضاء والتلفزيون وبعض المجلات والكتب ، والتي تنفث سموم التسلية الرخيصة والدنس الفكري والاضطراب الشعوري

AUB LIBRARIES

وهذه الانانيّة ، وأثر كلّ هذا في تغشية الرأي العام وإلهائه ، ومنعه من الارتفاع إلى مستوى وحدة الفكر الاجتماعي والشعور والتصرف الجماعي .. وقد أضحت بيروت على غرار بابل التوراة أو بيزنطة وكعدد من المدن في بلاد الغرب التي يُفرض فيها التمدن في معناه السطحي .

فكيف يمكن للرأي العام ، الذي هو التعبير العملي المباشر لمفهوم الشعب ، والذي يكوّنه بدوره ، أن ينمو وأن يقوى وأن يسيطر في مثل هذه الأجواء ؟

ولذا نقول بصراحة ، وبعد خبرة طويلة في حقل النضال الشعبي لأجل بعض المبادىء التقدمية : إن لبنان الشعبي ، أي لبنان كشعب لا يزال في دور المخاض ، أو في طور التكوين . لأن الشعب هو تعبير عملي تصوّري لشعور وحدة من الترابط والتضامن أو على الأقل من التكامل الاجتماعي والاشتراك الحياتي ، ولعل فكرة الاشتراك الحياتي هذه أخذت تنمو وتتقوّى منذ سنة ١٩٤٣ أي بعد الاستقلال ، وعبرت بسلام من خلال الانقلاب الأبيض سنة ١٩٥٢ ثمّ ثورة ١٩٥٨ .

ولكن إلى أن يصبح هذا الاشتراك الحياتي تضامناً فعلياً ، وارتباطاً شعبيّاً كاملاً ، وانصهاراً اجتماعيّاً ، ووحدة وطنية أو قوميّة بالمعنى الصحيح ، فإنّنا بحاجة ، في السلوك العادي للتطور ، إلى زمن طويل وإلى معالجة إيجابيّة أكثر اتصالاً .

إنكم تلاحظون مثلاً أن الوحدة الوطنيّة ، التي يتحدثون كثيراً عنها كما يذكرون الكيان في كل مناسبة ، هذه الوحدة التي يجب أن تكون انعكاساً للوحدة الاجتماعيّة الداخليّة ، هي غير موجودة بالحقيقة والواقع . . فالتصور القائم هو وحدة توازن بين الطوائف ، وحدة إنصاف أو توزيع مناسب للحقوق في الوظائف وفي اعتمادات موازنة الدولة والمشاريع العمرانيّة .

ثم علينا أن نلاحظ ، بالمراقبة العفويّة والواقعيّة للأحداث ولانفعال الجماهير بها ، أن المناسبات الرئيسية التي يتجلّى فيها هذا الشعور من الارتباط والتضامن ، والذي هو مظهر وتعبير لفكرة الشعب الواحد ، هي :

أوّلاً : ردود فعل هذا الشعب السليمة الشاملة تقريباً فيما يعود لنهج الأخلاق والنزاهة ، ومكافحة الفساد والإفساد في السياسة ، بالرغم من أن هذا الحسّ قد أضحى أضعف من السابق ، بسبب تغاضي السلطة عن محاسبة كبار المسؤولين السابقين والحاليين في الإدارة وفي الحكم وفي مجال النيابة والسياسة ، ومحاسبتهم على استغلال الوظيفة والرشوة والإثراء غير المشروع ، ونظراً لموجة الفساد المعنوي والإفساد الفكري التي أخذت تتسرّب إلى البلاد من عادات للغرب لا تنتسب إلى مدنيّة الإنسان الحقيقية ، وهي عادات انفلتت تماماً من نظاميّة العقل ومقاييس السلوك الأدبي .

واستجابة الشعب في مثل هذه الحالات ، بالرغم من وهنها الظاهر ، لا تزال نسبياً قوية سليمة وعفوية . أدركنا ذلك في الإضراب العام والانقلاب الشعبي الجماعي السلمي سنة ١٩٥٢ ، ونلاحظ ذلك في بداية كل عهد يوم يباشر رئيس الجمهورية بعض عمليات التنظيم والتطهير الإداري ، وإننا لا نشك من ردود فعل اللبنانيين كشعب إذا وضع مثلاً قانون الإثراء غير المشروع موضع التنفيذ ، شرط أن يتناول السياسيين وموظفي الإدارة في آن واحد. كما أننا نرتقب شعوراً شعبياً موحداً ، إذا ما أقدمت الدولة على تطهير الأندية والإذاعات ، ووسائل الإعلان والتلفزيون والصحف ، من آثار الاختلاط المعنوي والإفساد الفكري السائدين النامين .

ثانياً : ويظهر أيضاً هذا الشعور بالوحدة الشعبيّة في المناسبات الإنسانيّة الكبرى ، إذ يستيقظ المواطن الإنسان على أفضل ما في نفسه من أخوّة بشريّة، ونصرة للقريب، وتضحية لأجل الآخرين ، وحتى لأجل البلاد .

لو عرف المسؤولون والزعماء السياسيون أن يستثيروا شعور الإخلاص والخدمة والتضحية في نفوس اللبنانيين ، وأن يواجهوا المواطنين بالحقائق، ويدفعوهم إليها باستمرار ، لقامت أفضل المبادرات ، وسيطرت أسلم الاتجاهات وتوفرت أقدر أعمال الخدمة الجماعية ومثالات الشهادة والتضحية . تعرفون

AUB LIBRARIES

المثل : كما تكونون يولّى عليكم ، ولكن المثل الأصح هو : كما يولى عليكم تكونون .

وقد تجلّت هذه الأخوّة الإنسانيّة، واستيقظ هذا التضامن، وانبعثت هذه المروءة في أكثر من مواجهة ، نذكر منها على سبيل المثل : أوقات الزلزال الذي خرّب لبنان ، وأيام نكبة طوفان نهر أبي علي ، والتلاقي العفوي والسلام الذي سيطر فوراً في المستوى الشعبي بعد ثورة ١٩٥٨ الوطنيّة الخ .. على أنه يجب الاعتراف أن هذه الانفعالات الأخويّة والمشاعر السمحاء الإنسانيّة كان ينقصها ، في مستوى بعض الوجهاء ونفر من رجال الدين والدنيا ، هذه الأصالة التي تجعل العمل الأخوي التعاضدي شاملاً كاملاً عميقاً ، لأنّه يصدر عن توجّه كامل في الداخل نحو الخير والصيرورة الفاضلة ، ونحن لا نزال نرضخ في هذا البلد ، وفي ذهنيتنا العامة ، لرواسب التمييز المذهبي بين مواطن ومواطن ، ونعاني أزمة الكفر والتكفير المشترك ، ولم ندرك بعد حقّاً معاني كلمة الحسين بن منصور الحلاج البيضاوي البغدادي : « يا بنيّ ، الأديان كلّها لله عزّ وجل ، شغل بكلّ دين طائفة ، لا اختياراً فيهم بل اختياراً عليهم . فمن لام أحداً ببطلان ما هو عليه فقد حكم أنّه اختار ذلك لنفسه ، وهذا مذهب القدرية ، و « القدرية مجوس هذه الأمة » . واعلم أن اليهوديّة والنصرانيّة والإسلام، وغيرَ ذلك من الأديان،

AUB LIBRARIES

هي ألقاب مختلفة وأسامٍ متغايرةٌ ، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف » .

وفي الواقع ، وفي أكثر أنحاء العالم، ننظر إلى الإنسان من وجهة الدين ، ولا نتعدى الأديان إلى الإنسانيّة العميقة فينا التي تنبثق منها جميع المعتقدات الروحيّة كالجداول من مياه الينبوع الواحد ، فننظر آنذاك إلى الدين من جوهر ومن مرتقى الإنسان . كما أنّه يجب ، في معراج آخر للعقل البشري ، وهو أساس مسالك الارتقاء في أي مستوى لاستكشاف الحقيقة ، أن ننظر إلى الدين من عين الله وبعينه ، لا أن نتطلع إلى الله من منظار الدين . والا يضحي لكل مؤمن صنم يتعبّده من خلال فكره وتصوره ، والإله الحقيقي غير هذه الأصنام الفكريّة المختلفة جميعها .

ثالثاً : أما المسلك الثالث الذي يبدو أن هذا التيار البشري يجتمع فيه ويتلاقى ، بالرغم من دعايات التفرقة والتخويف والإثارة العصبية ، وبالرغم من محاولات التفرنج والاستغراب في الأزياء الفكريّة والاجتماعيّة لهذه المدنية المستغرَبة ذاتِها ، فهو الشعور العميق بالتراث الشرقي العربي الذي يبدو كأن فيه سحرَ التاريخ ، وانجذاباتِ البداوة الفطرية السليمة في الإنسان ، واستقطابَ المصير المقبل . وفي الواقع كل نداء يتعدى الحدود الضيقة، التي وضعها المجتمع أو المعتقد أو الإنسان لنفسه، يجد له

صدى في النفوس، وترديداً مستطيلاً مديداً، لأنّه تذكرة وعودة إلى أصالة وحدة الحقيقة الإنسانيّة فينا ، وإلى هذه المساواة الجوهريّة للإنسان، عندما يتعرّى عن جميع العوارض التي وضعها الفكر فوق ذاتنا الحقيقية الأصيلة .

ونظن مخلصين أن هذا الشعب بحاجة إلى وحدة تاريخ وحضارة، وإلى تراث طبيعي أصيل موحّد لكي يصبح فعلاً شعباً، لا مجموعة من الشعوب، أو اتحاداً فيدراليّاً من الطوائف على حد تعبير أحد المؤرخين ، تتنازعه الفئات الرأسماليّة وبعض أرباب العصبية الطائفيّة، وتتجاذب السلطةَ فيه بواسطة التناقضات التي يستثيرونها لأجل استغلال هذا الشعب واستثمار إمكاناته ..

وهذا التراث لا يمكن في نظرنا ، وفي لمحة واقعيّة للتاريخ وللتقليد القديم والمتجدد ، إلا أن يكون هذا التراثَ الشرقيَّ العربيَّ ذاتَه، والذي يؤلف تراثُنا اللبناني الإقليمي جُزءاً منه، ومتصلاً به بحُكم إرث اللغة والأدب والعادات، أي واقعِ الفكر الاجتماعي والمعنوي المشترك – وبحُكم التفاعل الحياتي والمصيري والسياسي والحضاري المستمر . وكل محاولة تجري في غير هذا الاتجاه الطبيعي للأشياء يكون مقضيّاً عليها بالفشل، ولا ينجم عنها عمليّاً إلا الإمعان في التناحر والتفرقة، وتأخير صيرورة هذا الاجتماع البشري اللبناني شعباً واحداً .

AUB LIBRARIES

ويجب أن يُواجه هذا التراث الشعبي بكامله ، وكوحدة لا تتجزأ أقسامها ، فلا ننسى أن الموجات الشعبية الكنعانيّة التي استوطنت هذا الشاطىء والتي سبقتها إليه وتبعتها ، كان معظمُها موجاتٍ ساميّة انطلقت من قلب الجزيرة العربيّة وشواطئِها — ولم تكن الموجات العربيّة فيما بعد التي انتشرت في جميع أنحاء الهلال الخصيب الواسع ، على حد تعبير ريني جروسه« René Grousset » ، أي المنطقة المتقوّسة القائمة ما بين الفرات ودجلة والنيل ، سوى إحدى الموجات السامية المتأخرة الكبرى ، وكان التراث المنتقل والمتوارث والمتحوّل من يد إلى يد ، ومن ذهن إلى ذهن ، ومن حضارة إلى حضارة عَبْرَ التاريخ ، كان هو ذاته . فالتطور والبعث — ونكاد نقول الولادة الجديدة — لا تحصل من لا شيء بل دائماً وأبداً من الكينونة الماديّة والمعنويّة السابقة ، كما أن الخلق لا يعلّه أبداً العدم — وكيف يتّجد الوجود من اللاوجود ؟

وهكذا تتلوّن جميع اختبارات الشعوب العربيّة بأنواعٍ وألوانٍ من تراثها القديم السابق واللاحق للعروبة في كل بلد عربي ، وتغنى بذلك ، هنا بالحضارة المصريّة الفرعونيّة ، وهناك بالحثيّة والكنعانيّة ، وهنالك بالأشوريّة والبابليّة ، وفي سواها بالتراث البدوي والبربري ذاته ، لأنّه ، كما يلاحظ أحد كبار المؤرخين توينبي على ما نذكر ، على هامش درسه لأحوال الغزاة الذين اجتاحوا اوروبا وقسماً من الشرق الأدنى ،

AUB LIBRARIES

ما من شعب منتقل إلا ويحمل معه لوناً من ألوان التقنية المادية والحرفية والعسكريّة، وتقليداً لوجه من الحضارة. ولولا ذلك لما تغلبت الشعوب البدائيّة الغازية على أبناء الحضارات ذاتِها، ثمّ بعثوها أو بُعِثوا بها بعد فترة من جديد.

فهذا التلوّن والتنوّع، من ضمن التراث الحضاري العربي الشرقي ذاتِه، هو تلوين ملازم لهذا التراث، وسبب رئيسي في تألق وثراء وبحبوحة الخلق والعطاء التي تمثلت في القرون الغابرة بالحضارة العربية المعنية. والمطلوب هو أن ندرك هذا التلوّن من ضمن وحدة التحضّر الأصيلة.

طبعاً هنالك لون من البداوة الجاهلية، نقيض البداوة البطولية العربية التي استهوت لورنس، كما تستهوي خيالنا وعقلانيةَ الغرب. وهناك وجه من الرجعيّة، وحتى من العصبية الطائفية لا تزال عالقة بهذا التراث العربي، يجعل بعض اللبنانيين، بطبيعة حَساسيتهم التقليديّة والعفويّة والمفتعلة، والتي تستثيرها وتغذيها شتى الدعوات المغرضة والدعايات، يتقلّصون في قوقعة صخورهم، وينعزلون ويتشوّفون القلق والخوف.. وتدرك أحياناً هذه التغشية بعض كبار المؤرخين اللبنانيين أنفسهم، فيكتبون في التاريخ فصولاً وأشياءَ يناقضون بها ذواتهم، ويتناسَوْن الوقائع والأحداث، ويحرِّفون وينحرفون، فيرون الأشياء من خلال جريان هذه الانعزالية في نفوسهم، حيث

تسمّرت أعينهم إلى بعض ألوان الرجعيّة العربيّة ، فيضحي ذلك مرضاً نفسيّاً . فينطبق عليهم مَثَل ذلك الرجل الذي تخيّل أنّه حبة حنطة ، وبعد أن وضعه أهله عدة شهور في مستشفى الأمراض العقلية، ذهبوا ليختبروه، وقد تأكد الأطباء من شِفائه، فلما عادوا به إلى البيت ، رأى الدّجاجة من بعيد فاختبأ في ظلّ شجرة ، فقالوا له : ألا تزال تعتقد كالسابق بأنك حبةُ حنطة ؟ فأجاب عفويّاً : ولكن المهم أن لا تتصور ذلك هي ، أي الدّجاجة .

هذا شاهد لا أكثر لانعكاس هذا التأفّف من الرجعيّة العربيّة حتى في بعض العقول التي قد تكون أكثرَ اطّلاعاً وعلماً من غيرها ، فيُضفي ذلك على درس التاريخ وكتابته ، وبالتالي على السياسة ، لوناً من التحيّز ورواية الأحداث من زاويتها المحدودة الصغيرة ، التي لا يلتفت إليها تطوّر التاريخ في سياق تحققه . وما من مجتمع ، في دور تأخره أو انحطاطه ، وحتى في أوج انفراجه ، إلا وله بعض العصبيات المحدودة والانفعالات المحصورة ، لأن طبيعةَ الإنسان هي مزيجٌ من الضّعف والقوة ، والانفتاح والانغلاق، والمعرفة والجهل ، والتوحّش والحضارة، والظلمة والنور على حد التعبير الزردشتي القديم الذي استعارته الأديان السماوية فيما بعد ، ومن الخير والشر . فعلينا أن نرى كفة الخير تعلو دائماً وتطفو ، وتتقدّم بالتاريخ من خلال جدليته

الثنائية المتحولة المتطورة .

هذا الشعور بالتوحد الشعبي والتقارب والتضامن ، المؤسّس على الفكرة اللبنانيّة العربيّة – والخطأ كل الخطإ في الفصل بين لبنان والعروبة – تلمّسناه في جميع مراحل نضالنا المعاصر لأجل الحريّة والاستقلال والتقدم ، في محاولات الأمراء اللبنانيين جميعهم ، وكان آنذاك لبنان جزءاً من سوريا الطبيعيّة ، وفي العهد القريب منا منذ أن دقّ نفير إبراهيم اليازجي في قصيدته الشهيرة الإيذان بالنهضة الأدبية والسياسيّة العربيّة ، ثمّ لما قامت الجمعيات السريّة على تنوعها تكافح باسم التيار العربي ذاته وتلقى الاضطهاد والتشريد ، إلى اليوم الذي انكفأ فيه الانتداب الفرنسي وانطوى علَمه من على هذا الشاطىء ، في ظل الوحدة التي استنفرت اللبنانيين وجمعتهم تحت شعار السيادة والعروبة : لبنان بلد ذو وجه عربي ، لن يكون للاستعمار مقرّاً أو مستقرّاً أو ممرّاً . ثمّ ما لبث أن انتسب لبنان الرسمي إلى الجامعة العربيّة التي تمثّلت فيها أُسرة هذه الشعوب ، ذات الطابع واللون السياسي والتراث الحضاري الخاص بها .

وإنما الامم تحيا بحياة هذا التراث الشامل لحقيقتها ولتاريخها . وحقيقة الأمة هي حقيقة اجتماعيّة لا تنفصل عن التراث وعن الحضارة وعن التاريخ . ولكن الايحاءات الأجنبية

AUB LIBRARIES

والطائفيّة لا تزال تنهال على هذا البلد لتحاول أن تحوّر معنى هذا التراث، وتؤخّر صيرورة الوحدة بين أبناء الشعب الواحد.

وقد ينطلي هذا الزخرف الباطل على الكثيرين، على حد تعبير أحمد شوقي:

انظر الشعب ديونا كيف يُوحُون إليه
ملأ الجوّ صياحاً بحياتَيْ قاتليه
أثّر البهتانُ فيه وانطلى الزور عليه

وإذ نذكر أيام الاستقلال الأولى، وتلك الموجة العربيّة التي اجتاحت أرجاءه، ودفعت أبناءه إلى الانصهار في وحدة النضال، فلكي نذكر أيضاً بعض ردود الفعل الطبيعية التي ولّدتها هذه الموجة، وتعود إلى بعض الأذهان القصيدة الزجلية التي كانت تتداولها الألسن والأندية، فيُعبِّر من خلالها هذا التخوّف من الرجعية العربيّة:

الاستقلال عال للعال نعمة ما كانت عالبال
يصير الحل بنص السَّلّ والربطة بيد العتال .. الخ

ولو أبصرنا نحن رجعيتنا اللبنانيّة بنفس العين التي نشاهد بها الآخرين، لكان تخوّفنا أكبرَ وقلقُنا أشملَ واحترازُنا أقوى. ولكننا نرى أحياناً القذى في عين غيرنا ولا نرى الوتد في أعيننا، وفق الآية الإنجيليّة الجميلة.

لقد سبق لنا ، في حديث في هذه النّدوة عن « واقع لبنان ومرتجاه » ، أن أوضحنا الأبعاد أو الأعماق الحضاريّة التي تربط أعضاء المجتمع اللبناني من خلال تاريخه وجروده وسواحله وطوائفه ، فتُضفي على لبنان لوناً من التنوع المتعدّد المواجهات لحقيقة الإنسان ، على الأقل في المستوى الروحي والحضاري للكلمة . ونحن لا نقصد هنا إلغاء هذا التنوع كما سنشير إلى ذلك فيما بعد ، بل دمجه وإبقاءه ضمن الوحدة : وحدة المصالح الرئيسيّة لهذا الشعب ، ووحدة الشعور بالتاريخ الواحد ، بالواقع الوطني العربي الواحد ، ووحدة الالتقاء ، ووحدة الصيرورة . كما أننا ربما ألمحنا في تلك المحاضرة إلى أن اللبنانيين ، في تعثر تشوّفهم واستبصارهم لما هم يجهلون عادة في مدى الزمان والمكان من مفهوم العروبة ودنياها واختبارها ، ان لهم مفهوماً خاصّاً للعروبة الوطنيّة والحضاريّة تتقبله الأكثرية الساحقة من المواطنين وترتضيه شعاراً وهدياً ، إلى أن تتساقط حُجُب التغشية عن بعض العقول وتتوارى المركبات العاطفيّة والسطحيّة أو التقليدية المستنفرة للشعور ، فندرك آنذاك أن العالم العربي يتجه بسرعة عجيبة نحو ما نحن لا نزال عن مثالاته متخلفين ، وأن بعض البلدان حقّقت ، في حقل الصيرورة المدنيّة الذاتيّة والتحضّر العلمي والصبغة اللاّطائفيّة للمجتمع وللحكم ، ما نحن لا نزال عنه بعيدين

ومتأخرين ضمن أنظمتنا القائمة وذهنيتنا الجامدة السائدة ، وقد نكون في ذيل تلك القافلة ، وقد لا نكون الآن منها .

الشعب مفهوم فكري

يتوضّح من كلّ ما حلّلناه واقعيّاً وعمليّاً أن الشعب مفهوم فكري يقوى محتواه ، ويشتد أثره ، على قدر ما يتكشف وينحصر معناه وتراثه الموحّد .

وقد تستغربون ، للوهلة الأولى ، أن نقول إن الشعب مفهوم فكري ، تصور فكري « Un concept mental » في ذهن الفرد وفي ذهنيّة الجماعة ، وإن هذا المفهوم الفكري يتعمق محتواه وتبرز كينونته ، ويقوى تكوينه وأثره ، على قدر ما يتكثف هذا المحتوى بمواصفاته المشتركة ودلالاته ومميزاته النفسيّة والاجتماعيّة . ويكتسب طابع الوحدة والانحصار كلما تعمّمت وتعمّقت فيه وشملته هذه المواصفات والدلالات والميزات النفسيّة والاجتماعيّة .

وفي هذا المجال، لا يقوم مجتمع حيّ متفاعل، نابض بالروح التي تنبثق من هذه المواصفات والميزات النفسيّة والاجتماعيّة، ثمّ تشعّ بها على أفراد الجماعة ، إلا إذا توفر لهذا المجتمع لون من الانسجام والوحدة في التقاليد وفي العادات وفي التصور وفي

AUB LIBRARIES

التفهم العام ، التي ينبع منها جميعاً الشعور بالآمال المشتركة ، والتحسّس بالارتباط والتضامن والأُخوة ، وارتقاب المصير الواحد .

بعض الحقائق الأساسيّة

نخلص من هذا العرض إلى بعض الحقائق :

أوّلاً : إن التكوين الطائفي السياسي يحول دون صيرورة الجماعة اللبنانيّة وحدة وطنيّة حقيقيّة ،وكياناً سياسيّاً موحّداً ، وبالتالي شعباً ودولة .

ثانياً : لا وجود ، إلى درجة كبيرة ، لشعب لبناني على أرض لبنان ، لأن كل طائفة دينية تقريباً تنزع إلى تنظيم وتفكير سياسي مستقل عن سائر الطوائف، ترمي من خلاله إلى استخدام الدولة وأجهزة الإدارة لصالحها ، قبل أن تسعى لتأمين مصلحة الشعب اللبناني والوطن .

ثالثاً : الشعب ، كما سبق وقلنا في بداية بحثنا ، وكمفهوم معنوي وتصور فكري في ذهن معظم الأفراد ، قد يكاد يكون مفقوداً ، لولا تحسّسٌ بماض تاريخي سحيق تبلغُهم أمجاده بالرغم من التشويه الملحق بها ، ولولا استشعارهم بمصير واحد

وتطور واحد ، امتداداً لوحدة العيش على الأرض الواحدة .

رابعاً : إن شعب لبنان هو الآن ولا يزال في دور التكوين ، ولـمّا يتـمّ بعدُ مخاضُ هذا التكوين . فهل تظل تسيطر فكرة التجزئة الطائفية على شاكلة مجتمعات وكيانات سياسيّة دينيّة مستقلة بعضها عن بعض ، أم تقوى وتنتشر وتتغلّب فكرة الوحدة الوطنيّة وينتصر مفهوم الشعب ويستأثر النظام المدني ، فتتحوّل الطوائف إلى عائلات تراثيّة روحيّة ولا تبقى كيانات شعبيّة سياسيّة تتفاعل ضمن كيان الدولة الواحدة ، تماماً كما كانت عليه الفرق النصرانيّة قبل بزوغ فجر الإسلام ، أو كالفرق والنِّحل التي قامت في صدر الإسلام ثم عادت فظهرت في عهد الانحطاط .

والفارق بين الطائفة ، كما تكرّس وضعها في لبنان وضمن تكوينه السياسي القائم ، وبين العائلة الروحية والفرقة الدينيّة : أن الطائفة كيان سياسي بحد ذاته ، والعائلة الروحيّة كيان معنوي وتراثي .

ويجب أن نضيف على الطوائف اللبنانيّة في الواقع طائفة هي السابعة عَشْرَةَ ، ناجمة عن هذا الفريق من المراهقين ومن الشباب والكهول اللبنانيين الذين تبنّوا طباعاً يسمونها عصرية ، ومرقوا من كل ما كان يعلق بهم من دين أو ارتباط عائلي

AUB LIBRARIES

ووطني ، يعبثون ويلهون ولا يهتمّون بشيء سوى بعض ما يَطْلَعُ عليهم به الغربُ من اختلاقات جديدة في حقل اللهو واللعب بالحياة وبأسسها ومقوماتها . فهم الطائفة المبتذلة .

الاشتراكية : الحل الوحيد لتعدي الحواجز المفتعلة

وتتوجب الإشارة إلى مواجهات النضال التحرري والشعبي ، والاجتماعي والمهني والسياسي والوطني ، الذي مارسه ويمارسه اللبنانيون ، والذي كانت نزعته الدائمة ، نظرياً وعملياً ، توحيد الجهود وتوحيد الذهنيّة العامة وتوحيد المصالح والمطالب والأهداف ، وبالتالي تكوين الرأيِ العامّ والشعب. ولعلّ أبرزَ هذه المحاولات هي الأحزابُ اللاّطائفيّة، وفي طليعتها الحركات الاشتراكيّة والاجتماعيّة واليساريّة ، ثمّ التكتّلات والنقابات المهنية ، ثمّ الالتقاءات الجماهيرية الكبرى ، التي كان لها إسهام في خرق الحواجز الطائفيّة . وفي ظنّنا وحدسنا أنّه سيكون لالتقاء الأحزاب التقدميّة والشخصيات الوطنيّة حظ كبير في تكوين وصهر شعب لبنان من أسفل ، أي من خلال لقاء عماله وفلاحيه ومنتجيه وشبابه الوطني المثقّف ، وقد بدأ هذا الشباب المتعلّم يتحسس ، كالعامل والفلاح ، بالأزمات الاقتصاديّة والاجتماعيّة تلفّه وتهدّد حاضره ومصيره . وهكذا تكون

الاشتراكيّة الحل الوحيد لتعدي الحواجز الطائفيّة والحزبيّة الريفية، والتناقضات المحليّة، ولتكوين رأي عامّ شامل، وتأليف شعب في المعنى الصحيح للكلمة في المستقبل القريب أو البعيد.

خمسة عوامل تؤخر عملية الانصهار الشعبي اللبناني

ولا بد لاستكمال هذه النظرة من الإلماح إلى خمسة عوامل إضافيّة لها أثرها الكبير في تأخير عمليّة الانصهار الشعبي اللبناني، هي:

أوّلاً: الحزبيات المحليّة الضيقة المتوارثة، و«الغرضيات» العمياء أحياناً، والمؤسَّسة جميعها على فكرة الوجاهة والبروز الأناني في القرية وفي الحي، يقابلها في المدن تجمُّع العائلات في الانتخابات وفِرَق أرباب النفوذ الزلمي الموزعين في جميع الأحياء، ليس أقلّهم الذين يمارسون المقامرة والمغامرة على تنوعها في رضا وغفلة رجال القانون، وأربابُ الموبقات الذين يعطّلون معظم الأحيان فعل التطور الشعبي وتلاحُمَه.

ثانياً: الفئات الغريبة، التي أسمَوْها الطارئين، الذين ينتمون أصلاً إلى أكثر بلدان وشعوب العالم وقومياتها، والذين حصلوا على الجنسيّة اللبنانيّة لأسباب متعدّدة لا مجال لذكرها هنا، وخاصة في العهد الأسبق، فأضحوا يشكّلون مجموعة من

الشعوبيّـة الأمميـّة لا يقل عددها عن بضع مئات من الألوف، وهي دخيلة على الكينونة اللبنانيـّة ، يتطلّب انصهارها في البوتقة الشعبيـّة بضعة أجيال .

ثالثاً : الدعوة الناشطة في البلدان العربيـّة ، وانعكاس ذلك في لبنان — وفي مقابل الطائفيات السياسيـّة المعهودة — للإخوان المسلمين وللتضامن والتحالف الإسلامي ، التي ترمي إلى إيقاظ الرجعيـّة العصبيـّة الطائفيـّة ، ودعوات أُخرى للتفريق بين المحمديين أنفسهم ، وما بين مختلف مذاهبهم وفرقهم . يجري ذلك على غرار ما حصل في التاريخ من خلافات شهيرة استعرت في فجر العروبة والإسلام وفيما بعد ، عند تفاقم تناقض الشيع والفرق بعد العصور العباسيـّة المزدهرة الأولى .

رابعاً : العامل الرابع المعطِّل لفعل الانصهار اللبناني هو النظام غير الديموقراطي وغير المدني السائد في أكثر من نصف مساحة لبنان قياساً ، ويدعى بنظام قانون الطوارىء ، وعمليـّاً يبطنه ويجسّده نظام العشائر . فلبنان من هذه الوجهة لا يزال غيرَ موحد سياسيـّاً وإداريـّاً ، ويسيطر على نصفه نظام خاص لا يشمل نصفه الثاني ، نظام يعيق تطوره واندماجه في الوحدة اللبنانيـّة .

خامساً : التكريس الرسمي الدَّوْلي ، القائم في التشريع وفي الدستور والعُرفِ المتعامَل به ، في وظائف الدولة وفي التمثيل

AUB LIBRARIES

البرلماني ، للطائفية السياسيّة . وكيف يتوحّد شعب لبنان وتزول منه التناقضات الرئيسيّة القائمة ، إذا كان النظام الرسمي للحكم هو الذي يكرّس الطائفيّة السياسيّة ، المسؤولة وحدها عن تمزيق الوحدة اللبنانيّة الأصيلة قبيل وبعد منتصفِ القرن السابق ، وكانت هي المسؤولة أيضاً عن انهيار كيان البلد في واقعه التاريخي النضالي السالف وانحصاره ضمن متصرفية جبل لبنان في القرن التاسع عشر ؟

هو نظام تمثيلي نسبي يعتبر الطوائف الدينيّة أحزاباً ، وبالتالي يحجب ويؤخر تمثيل الأحزاب السياسيّة الحقيقية .

كان يتوجب علينا لأجل تنوير واقع الشعب اللبناني الحالي واظهارِه أن نعالجه بمنظار سرد تاريخه . لكن الموضوع واسع ، ولا يمكن مواجهته في مثل هذا الحديث وفي الزمن المحدد له .

ضرورة الإيمان بتطور لبنان نحو وحدة اجتماعية ووطنية حقيقية

يبقى علينا الإيمان ـ وأذنوا لي أن أقول إنّه قد يكون أفضل المواجهاتِ ـ الإيمان بتطور لبنان نحو وحدة اجتماعيّة ووطنيّة

AUB LIBRARIES

حقيقية ، تجعل منه عضواً إيجابيّاً فاعلاً في المحيط العربي والدولي ، عوضاً أن يتلهى في مناقشة نفسه ، أو أن يتأخر في جمود سياسي قاتل في كل حال لكينونته وصيرورته .

وعلينا أن نؤمن بالفعل الإيجابي – قولاً وعملاً ونضالاً متصلاً – لأجل تطوير هذا الواقع الشعبي اللبناني إلى مستوى تحويله شعباً موحّداً . .

لقد بدأ التطور الاجتماعي مع الوعي الاجتماعي يقضّ مضاجع الذين يتعلّقون بأشكال الماضي وصوره وتقليده . . وقد أخذوا في السنوات الأخيرة يشنّون حرباً ضروساً على القائلين بسُنّة التطوّر ونهج الخلاص من شتى التناقضات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة .

إننا في بداية المرحلة . . فعسى أن نعبرَها بقوة وثبات وبحكمة وأناة في آن واحد ، فلا تتجدّد المشاكل والمآسي التي رافقت ولحقت بأول ثورة تحرريّة فلاحيّة شعبيّة قام بها البطل الكسرواني طنوس شاهين ، بينما كانت تقابلها في سوريا ثورة شعبيّة ظافرة أُخرى قام بها البطل والشاعر الشعبي الملهم شبلي الأطرش ..

وقد يتوقف مصير هذه المعركة ، لأجل توحيد لبنان وإبراز مفهوم شعبه ، على القيادة التي ستتوفر لمثل هذا النضال الكبير

AUB LIBRARIES

الذي أوشك أن يبدأ. وستقع مسؤولية ذلك على المثقفين، وعلى مدى انخراطهم في مجالات العمل الشعبي وتزعّمهم للقيادة، وممارستهم لأفضلها نهجاً وأكثرِها تحرراً.

إن بناءَ دولة الاستقلال أضحى يتطلب إنشاءَ أُمة تستطيع أن تقوم بواجب هذه الرسالة في جميع المستويات، وإلا فاتتنا القافلة، وظللنا في أنظمتنا السياسية والقوميّة نعاني الانهيار المعنوي واللاّمسؤولية، والتدهور الديموقراطي في التمثيل وفي الحُكم، وهذه الفوضى التي تهدد باجتياح كل قيمة.

كما نقول في مستهل ميثاق حزبنا: «إن المجتمع في كلّ مؤسساته — ومنها السياسيّة — ليس في ذاته غاية، بل وسيلةٌ إلى بناء الإنسان، فالدولة تُقدَّس أو تُلعن، تخصب مؤسساتها أو تعقم بقدر ما تخدم أو لا تخدم هذا الإنسان».

إن الواجب الشعبي الوطني الذي يجب أن يتقدَّم كلَّ واجبِ آخر هو: «صهرُ الشعب اللبناني وحدة اجتماعيّة تامة، مع اعتبار الدين أُسّاً جوهريّاً في قيام المجتمع الأسمى..» إلى أن تزول الفوارق الطبيعيّة بدورها، فتنتظم الجماعة وفاقاً لهيكلها الطبيعي.

إن الإيمان بالتطوّر يطرد عُقَداً نفسيّة كثيرة من النفوس، ليس أقلّها هذه الازدواجيةُ بيننا وبين الواقع، ويجعلنا نحيا بتوافق شامل مع واقع حياتنا ومعرفتنا والحضارة التي نعيشها، والتي

AUB LIBRARIES

يزول ثِقلَهُا علينا ، لأننا نضحي كمن يعيش مداها الانفتاحي وقيمها الأصيلة من داخل عقلنا وشعورنا ، فنرى غَثَّها وسمينها ، ونستطيعُ أن نختار فيما بينهما ، لأننا نكونُ قد توحّدنا مع نفحة الحياة ذاتِها في الوجود ، أو تكشّف هذا الوجود في صميم وجودنا ومحور وحي ذاتنا .

ألقيت في الندوة اللبنانية في ٩ كانون الثاني ١٩٦٧

AUB LIBRARIES

الاشتراكية والعالم الجديد

نظن أن ما يتوجّب أن نعنيه بالعالم الجديد، هو العالم المعاصر، والعالم المقبل علينا من خلال تقدّم الحضارة وتطوّر ذهنيّة الإنسان وبعض الفجوات أو الانفراجات المنفتحة أمام بصيرتنا في ما يقترب منّا من مجاري القدر.

لأنّ العالم هو جديد على الدوام ومتجدّدٌ بحد ذاته، كالإنسان نفسه، وكالأرض السيّارة التي نعيش عليها، وكالمجموعة الشمسيّة التي تعلق كرتنا الصغيرة بها فتدور في رفقتها إلى حيث لا يدرك مستقرَّها أحد، أو كالكون اللاّنهائي الذي لا تحدّه لا الفسحة ولا الزمن ولا الخلق ولا النهاية، لأنّها أجزاء وعناصر تعمل من ضمنه وفي جوهر تكوينه ولا تخرج عن إطاره. وهذا وجهٌ للمعنى الحقيقي لنظريّة النسبيّة العلميّة العامة.

فكما أن الكون بأسره، من أصغر أجزاء ذرّاته حتى

AUB LIBRARIES

أضخم مجموعات مجرّاته وسُدُمه ، هو في تكوين وخلق دائب يبرز فيه الجديد دائماً وأبداً ، كذلك الإنسان الذي هو الجرم الصغير والانعكاس الرفيع لطاقة الخلق – لأنَّ العقل الأوّل والأخير والرفيع هو مصدر التكوين وقطبه في كلّ فلسفة حقيقيّة وفي كل دين – كذلك الإنسان هو جديد في كل برهة من تطلّعه وحياته . النهر ، كما كان يقول هيراكليت Héraclite ، لا يظلّ مطلقاً هو ذاتَه ، لأنّ مياهه تجري ولا تستقرّ، وهي دوماً في تبدل وتغيّر إلى ان تنصبّ وتزول في المحيط الواسع الكبير ، وتعود لتختلط بوحدة مياهه .

ومن ينظر هكذا إلى العالم ثمّ إلى نفسه ، يشعر بالفرح وبالدهش وبالغبطة التي لا تنقطع ، ولا يتداخله سأم ولا تعتور بصيرتَه ظلمةٌ أو عماهة أو ضلالة ، لأنّه يكون ينظر بعين الخلق ، بعين الحياة ، بنور ما وراء هذا العيش الظاهر .

إنّما نقصد بالجديد ، ويجب أن نقصد به ، ناحية العمق ، وجهة الارتفاع والمشارف ، حيث تتّخذ الإنسانيّة فينا مفهومَها الحقيقي ، احتواءها الجوهري ، على لغة بولس الرسول . وكان مما لا شك فيه عرفانيّاً Gnostique فيما يعنيه بالقياس الرابع للأشياء ، فيما يتعدى العرض والعمق والطول ، والذي من مرتقاه ندرك الجديد في الأشياء ولا نظلّ سجناء الأشياء .

والاستيعاب لهذا القياس الرابع هو التوحيد الحقيقي ، كما تقول الحكمة الشريفة : « بالتوحيد تُدرك الأشياء (أي حقيقتها) لا بالأشياء (أي بواسطة الأشياء) يُدرك التوحيد » .

والموحّدون من كلّ أمّة ومن كلّ دين أخوة فيما بينهم ، وأمّة روحيّة واحدة ، مهما اختلفت العقائد والمذاهب وتباينت المسالك ، وتعدّدت السلالم والمعارج . هذا هو إنجيل الجيل الجديد ، هذا هو روح العالم الجديد .

أمّا الاشتراكيّة ، فنعني بها الاشتراك والمشاركة والتضامن والإسهام والتعاون في جميع مظاهر العيش ونشاطاته ، طبعاً غيرِ التي لها طابَعٌ محض فردي ، محض شخصي .

وقد ضخّمت الماركسيّة وجسّمت الوجه الاقتصادي للمشاركة وللاشتراك والتضامن والتوحّد ، حتى قالت بالتصميم الشامل ، وبتأميم وسائل الإنتاج ، وبشيوعيّة الملك ، وبالتوزيع على أساس الحاجة في الاستهلاك ، وبالثورة العامّة العالميّة ، وبزوال القوميّة في المعنى التقليدي للكلمة ، وبالتالي بزوال الدولة . وتجرّأت أيضاً على القول بزوال الدين ، مبيّنة المساندة الإيجابيّة أو السلبيّة التي قدّمها معظم رجال الدين للرأسماليّة النامية وللأنظمة المتخلّفة وللإقطاع في الداخل ، وللاستعمار وأساليبه غير الإنسانيّة في الخارج ، في تغاضٍ عن ظروف للعيش وللولادة وللمرض وللإجهاد وللموت لا يمكن أن يتصوّرها

بشر ، وبشكل خاص طوال القرنين الأخيرين وبداية القرن العشرين . فقد انصرف رجال الدين إلى نشر العقيدة وضمان الخلاص الفردي لبعض الناس ، ولم يحاولوا إلاّ نادراً ان يحقّقوا جوهر التعاليم الدينيّة في مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، وجانبوا العمل ، باسم القرآن وباسم الإنجيل ، لأجل رفع الاضطهاد والعذاب عن الشعوب والفئات الاجتماعيّة المضطهدة والمعذّبة ، ولم يرتفعوا بالمعتقدات ذاتها إلى مستوى الخلاص الجماعي والتحقّق الجماعي لمضامين الرسالة . ولكلّ رسالة وجه اجتماعي لا يمكن إنكارُه . وإننا شخصياً كنّا ولا نزال ندّعي أن القرمطيّة التي ظهرت في عصور الإسلام — وهي شيوعيّة الإسلام والشرق العربي — والاشتراكية الماركسيّة التي ظهرت فيما بعد في الغرب ، ما كان لها أن تظهر وأن تشيع وأن تنتصر لو أن رجال الدين ، في مجموعهم ، قاموا بما يتوجب في الحقل السياسي والاجتماعي في رفع المظالم والقضاء على استثمار الإنسان واستعباده لأخيه الإنسان .

وأبرزت النازيّة والفاشيّة من جهة أُخرى ، وسواها من الحركات الكلّيّة الجماعيّة المماثلة ، الوجه الاجتماعي للمشاركة والاشتراك والتضامن والتوحّد . فانبثقت النازيّة من فكرة الشعب المميّز بيولوجياً وعنصرياً ونفسياً ، ومن فكرة العرق الواحد الآري المختار ، وما ينعكس عن هذا المفهوم في القوميّة

الجرمانيّة من تقاليد وفلسفة تطوّر ومصير ، وتصوّر لعلاقات الدولة ولمستقبل الحضارة والكون، في تيّار لا عقلاني Irrationnel وسحري تصدّى إلى الحضارة ذاتها وإلى قيمها وتاريخها ، في محاولة جبّارة لقلب محاورها وتبديل اتجاهاتها وعكس مفاهيمها وتغيير مقاييسها ، حتى أضحى الناس كأنّهم في حلم أو أضغاث أحلام تمرّ عليهم ، وهم لا يفقهون .

وتركّزت الفاشيّة ، من جهتها ، على الوجه الاجتماعي للمجتمع واستيعابه لذاته ولمحاوره كقيمة جامعة كثيفة متكدّسة ومبلورة ، على قيامها على بعض الأسس التاريخيّة ، وعلى فكرة التسلّط أو قوة السلطة وفكرة الشخصيّة القائدة المتمتعة بمسؤوليّة غير محدودة في كلا الحالين . وتجلّت الفاشيّة في مظاهر ومؤسسات سياسيّة واجتماعيّة خاصة بها ، وكانت الكوربوراتيّة النقابيّة إحدى تشخّصاتها .

وحصلت هذه الرّدة الجماعيّة « المتطرفة » التي هي دلالة ولا شك على أنظمة العالم المقبل ، على حد تعبير الأب تيلار دي شاردان ، بعد أن قامت الثورة الفرنسيّة والثورات الأخرى القوميّة والديموقراطيّة السياسيّة ، فكنست الأنظمة الجماعيّة للقرون الوسطى ولعهود المَلكية ، وأحلّت مفهوماً للمواطن « الفرد » مطلقاً فيما ذهب إليه من فرديّة ، متناسية أن الفرد هو محض إمكانيّة بالنسبة للشخصيّة وللمواطن ،

وأنّه كائن اجتماعي لا يتحقق على سلامته وتمامه إلاّ بما يغرفه من المجتمع ، وما ادُّخِرَ فيه وتكدّس ، من قيم ماديّة واجتماعيّة وفكريّة وحضاريّة وروحيّة . .

وكانت الثورة الفرنسيّة ومثيلاتها في العالم تهدف إلى تحقيق المساواة السياسيّة والقانونيّة بين المواطنين ، والديموقراطيّة السياسيّة في معالجة أمور حكمهم : حكم الشعب بواسطة الشعب ، لا بنعمة الإله . وطبعاً كانت الشورى أو الاختيار الشعبي اصطلاحاً لا أكثر ، للحؤول دون التزاحم العنفي على الحكم وكقياس لمنع التسلط الاعتباطي ، كما كانت قاعدة تولية الابن البكر في الأنظمة المَلكية اصطلاحاً لإبعاد التنافس والاقتتال على مركز القيادة الأولى .

ولكن سرعان ما ظهر أن الديموقراطيّة السياسيّة ليست إلاّ مظهراً من مظاهر حريّة الإنسان ، وتعبيراً لمرتكز ورائي قد يكون أهمّ في نظر سواد الناس من هذه الحريّة السياسيّة ذاتها . وفي كلّ حال ما لبث الغرب أن تحسّس أن الديموقراطيّة السياسيّة لا تصلح ولا تنتظم مؤسساتها ، ولا تنمو وتتطوّر وتتأكد إلاّ إذا كانت تعبيراً للمجتمع وللاقتصاد ، أي إذا تحققت الديموقراطيّة الاقتصاديّة والاجتماعيّة بادىء ذي بدء . لأنّ حقّ المواطن في تأمين العمل والعيش والعلم مهمّ كتمكينه من التمتع بالحريّة السياسيّة . ولأن الذين تهمهم الحريّة السياسيّة

AUB LIBRARIES

أساساً وجوهراً قلّة في النهاية ، أمّا الذين يعنيهم العمل والعيش والعلم فهم الكثرة الساحقة من أبناء المجتمع ، هم الشعب في المعنى الصحيح والأخير للكلمة أي الشعب الشغّيل ، المنتج . ولا اقتصاد ولا عيش بلا إنتاج أو عمل .

وظلّت الديموقراطيات السياسيّة الغربيّة تتعثر مدّة جيل ونصف تقريباً في ظلّ الضلالة العامة ، والاستثمار الطاغي للرأسماليّة المنعتقة من كلّ قيد مناقبي ومن كل محذور روحي ومن كلّ ذهنيّة وأهداف إنسانيّة ، إلى أن جاءت الحرب العالميّة الأولى . فقامت الثورات الاجتماعيّة . وكانت الثورة الروسيّة ، على حدّ تعبير جون ستراتشي ، أحد أقطاب الفكر في حزب العمّال البريطاني ، ظاهرة العصر وعلامة العهد الجديد ، بما قصدت إليه من ديموقراطيّة اقتصاديّة شاملة ، كما كانت تماماً الثورة الفرنسيّة التي أبرزت مفهوم الديموقراطيّة السياسيّة بالنسبة لنهاية الجيل الثامن عشر والجيل التاسع عشر في أوروبا . . والثورة هي بحد ذاتها ، على حد تعبير لينين ، قاطرة التاريخ تدفع بالجماعة وبظروف عيشها وبأنظمتها وذهنيتها عدّة حقب إلى الأمام .

ثمّ قامت الثورات النازيّة والفاشيّة في محاولة جماعيّة مماثلة للثورة الماركسيّة الروسيّة ، ولكن بأسلوب آخر ولأهداف مختلفة . على أن جوهر هذه الرّدات الجماعيّة الكلّيّة

كان واحداً : تصحيح ما ذهبت إليه الثورة الفرنسيّة من أخطاء ومغالطات جسيمة ، ليس أقلّها هذه الفرديّة التي أضحت ، في بعض وجوهها ، تمثيلاً للأنانيّة وبالتالي لبوار الذات وضيق وجهة الحياة ، كمن يعيش في قوقعة سُلحفاة ولا يدرك أنّه جزء لا يتجزأ من طاقة الدنيا الأخيرة في مندرج التحليل ومجهر التبصر والعلم — هذه الطاقة المتحوّلة والمترفعة في الإنسان وفي وعيه .

على أن جميع هذه الثورات الاجتماعيّة والسياسيّة — بالرغم من خطورتها البالغة — قامت ونمت وانتصرت وخطّطت وبنت ، تحدوها صوفية للعمل وللتعاون مدهشة ، ولكن في معاكسة التيار الديني والروحي ومغالبة قيمه ورجاله — وهم الذين تحالفوا مع التقليد ضد التجديد ، ولم يدركوا من قبل ومن بعد علامات الزمن والفلك وتحذير السماوات ، على حد التعبير الإنجيلي الملائم . فنجحت هذه الثورات الشعبيّة الهائلة، التي لم يكن آخرها تحوّل سبعمائة وعشرين مليوناً من الصينيين في الشرق الأقصى إلى تسطير أروع صفحات البناء والتعاون والتعاضد، واستقطاب الخير الاجتماعي العام ومصلحة الآخرين . ولكن كلّ ذلك تمّ — في العالم الرأسمالي الفردي وفي العالم الجماعي والشيوعي بشكل خاص ، طالما أن التجربة النازيّة والفاشيّة لم يقدّر لها التطوّر البقاء — تمّ ذلك بدون أي إسهام

AUB LIBRARIES

للتقليد الروحي . . فإذا بنا ، في نهاية المطاف ، نستشعر أن العالمين والمعسكرين التقيا ، أو أنهما سيلتقيان – إذا قدّر لقوى التجمع أن تفعل فعلها ولا تقضي عليها عجلة السباق للحرب النوويّة – ولكن الأرض ظلّت بدون روح . لأن ذهنية الأديان ، المتأخرة في سبل الماضي وتعرجات المنقرض من الأنظمة والقوالب الفكريّة والاجتماعيّة ، ربما لم تتسع بعد لتحويَ روحَ الأرض ، كما يسمّيها تيلار دي شاردان : L'Esprit de la Terre. ظلّت الأرض بلا روح ، وبلا استعلاء لتتعدّى روح الأرض نفسها ، وروح الإنسان الظاهرة ذاتها .

على أنّه ، مهما قُصد من إصلاح ومن تبديل جوهري ، عبر هذه المسالك المتنوعة والمبادىء المتشعّبة ، والتي إنّما يدفع بها إلى التحقُّق توق الإنسان في صميمه إلى الاشتراك والمشاركة والانسجام والوحدة ، تبقى المعضلة المتطوّرة والمتفاقمة في أزمة تكاد تكون مغلقة وفي حلقة تدور على نفسها . فالإنسان لا يستطيع ، فعلاً وواقعاً ، أن يشترك مع الآخرين ، أن ينسجم ويتوحد مع الآخرين في مستوى الجسد وتلبية حاجاته . فالجسد ، الذي هو مادة تتداخلها وتشغلها مدّةً من الزمن طاقة الوعي والوجود ، لا يجمع بل يفرّق ويقضي بالتنوع والتوزّع بين الناس ، والحواس هي أيضاً كذلك ، فلا يتمّ توحّد أو مشاركة حقيقيّة بواسطة ما تبرزه المدنيّة النامية

المتكثّفة ، من صور الحواس وانجذاباتها ورغباتها العفوية الطبيعيّة والمصطنعة ، لأن الحواسّ عنصُر تنوّع واستقطاب انفلاتي إلى الخارج ، لا حركة استدراج إلى محور الداخل حيث تنبع الوحدة الحقيقيّة للإنسان .

والمشاركة والوحدة لا تستطيع أن تتمّ في مستوى الفكر وبواسطته فقط ، لأن الفكر هو بحد ذاته عنصر التمييز الأصيل والتنوع بين البشر — ولا حواس ولا جسد بدون فكر ، كالعنكبوت التي تبني بيتها حولها بتخطيط مُسبق وتصميم باطن متقدم ، كذلك ننسج حولنا جميع ما هو كائن في الظاهر ، وفق صورة الأمبانيشاد الشهيرة .

إذن لا يتم الاشتراك والمشاركة والتوحد إلا فيما يتعدّى الفكر وفيما يتجاوز عناصر التمييز والتفرقة الأخرى في الإنسان ، ولا يتحقق ذلك إلاّ بالحبّ الحقيقي المجرد عن كل غاية والذي هو وجه من وجوه النعمة والمعرفة على وجه الأرض . فالاقتصاد ليس هو الكل كما يدعي الماركسيّون ، والاجتماع ليس هو الكل كما يدعي النازيّون والفاشيّون .

فالمجتمعات الحديثة مهما جَهِدت وبالغت في طلب هذه المشاركة وهذه الوحدة ، ومهما استخدمت من أساليب للعلم لاجل ذلك ، لا يمكنها أن تحقق ما تصبو إليه ، وتظل مادّة بدون روح ، إذا لم ينفَحْها من الداخل الروح العظيم الذي

يصالح ويقارب ويوفق ويصهر بين الأرض والسماء ، بين المادة والطاقة ، بين الجماد والحياة ، بين الوحدة والتنوّع ، لأنـّه يعرف من الداخل بدون إدراك حسي أو استيعاب فكري ، جوهر الكائن القائم في الإنسان ، وأنّ الحياة ، كما يرشدنا العلم الحديث ذاته ، هي مظهر متقدم وأخير للطاقة الكونيّة الأوّليـّة الأزليـّة التي لا بداية لها ولا نهاية .

ملأ هذا الطلاق ، هذا الفراغ بين الروح في المعنى التقليدي والمادة ، ملأ العصور الحديثة منذ انهيار القرون الوسطى المسيحيـّة في الغرب وزوال العهد الوسيط الإسلامي في الشرق ، فأفلتت زمام الأمور من أيّ رادع معنوي أو توجيه مناقبي لحركة المجتمع ونهج السياسة ، فحـَكـَم مكيافيل وسيطر بدون معارض ولا منازع . فشهدنا من المآسي والفواجع والظلامات كما لم يشهده ربما تاريخ العهود القديمة ذاتـُه ، قبل إنزال الإسلام ووحي النصرانيـّة ، كأن الدنيا لم تتغير ولم يأت بالرسالات الجديدة من جاء بها .

وإذا استجمعنا حافظتنا قليلاً وبداهة وبدون تصميم ، برزت لنا من الأحداث ما تجعلنا نخجل ونعتبر ونرعوي مما طالعتنا به هذه العصور الحديثة ، كأننا لم نتقدم إلى الأمام ، وكأن منجزات العلم والأدب والفن الهائلة ظلّت بدون تأثير أو صدًى حقيقي في حياة الإنسان .

وأوّل ما يواجهنا، وبعد الموجة والدعوة المباركة، هذه المنازعات والحروب الدينيّة المتصلة التي سبّبها الجدل البيزنطي حول الطبيعة الواحدة والطبيعتين وأجناس الملائكة والتي ذهب ضحيتها مئات الألوف من البشر في الاناضول وفي سوريا الطبيعيّة وفي أرض مصر والعراق Le Monophysisme et le Diphysisme في أيام الأباطرة جوستان Justin وجوستينيان Justinien وتيبار Tibère وهرقل Héraclus وسواهم. ثمّ ينتشر الإسلام على أنقاض هذه الحرب المعلنة بين مختلف المذاهب، فيستعر الصراع الجديد والاضطهاد لفترة من الزمن في تزاحم على خلافة الرسول الكريم، وتبرز الشيع في الإسلام، إلى أن يستقرّ الحكم وتسيطر الحريّة السياسيّة والأمن العربي على ربوع الأمبراطوريّة الكبرى الجديدة.

ثمّ تبرز القرون الوسطى في أوروبا، وتستطيل مدّة جيلين ونصف من التاريخ وسط هدوء وانتظام نسبي شامل، ويكون الحكم العربي بدأ في الانهيار والتفسخ وجاءت زحوف المغول وهولاكو والتتر ثمّ الترك.

وفي أوروبا نستيقظ على الحروب الدينيّة من جديد بين مختلف المذاهب، أهمها الصراع بين الكثلكة والبروتستنتيّة الناشئة ومع أرباب العلم الحديث.

ثمّ يأتي دور تكوين الرأسماليّة وانتشار الآلة والصناعة

AUB LIBRARIES

بشكل لم يعهده الإنسان فيما قبل في التاريخ المعروف . ومع طغيان الرأسماليّة الفرديّة وانتشار الآلة يبدأ عهد جديد في تاريخ البشريّة يتميّز :

١ً – بالاستعمار الأوروبي لجميع بلدان إفريقيا ولمعظم بلدان آسيا وللأمريكتين ، وما رافق هذه السيطرة من أساليب في الفتح وفي التمركز وفي الاستثمار وفي الاضطهاد أفقرت هذه القارات وحالت دون نموها الاقتصادي والسياسي ، وحجبتها عن مجالي الحضارة والعلم والتقدم ، مكتفية بجعلها أسواقاً للمنتوجات الصناعيّة الأوروبيّة ، وتركت شعوب هذه المستعمرات عرضة للفقر وللمرض وللتأخر والموت ، كما توضح جميع الدراسات الموضوعة لهذه الغاية ، وليس آخرها كتاب الأب لبري Lebret القيم « انتحار الغرب أو بقاؤه » Suicide ou Survie de l'Occident ، فإذا بالاستقلال السياسي يكشف الغطاء عن كل هذه المعاملة البربريّة التي لقيها أبناء هذه القارات الثلاث ، وإذا بمليار من البشر أي ثلث سكان العالم الحالي لا يزالون يعانون الجوع المتصل المستمر ، ويتناولون وجبة غذائية هي دون الحد الأدنى لعدد الوحدات الحراريّة التي يتطلّبها الجسد ، وإذا بمليار آخر ونيّف يعيش في أوضاع اقتصاديّة واجتماعيّة لا تليق بالكائن البشري.

٢ً – الاستثمار الاقتصادي الجشع اللاّمحدود في الداخل

حيث كان العمال يقاسون أفظع ظروف العيش والعمل في المعامل الناشئة وأقساها ، وقد وصفها كارل ماركس بشكل خاص بما اتصفت به من وحشيّة تتقزز لها الضمائر . يكفي أن نذكر نضال الاشتراكي روبرت اوين Robert Owen في بريطانيا لإبطال عمل الأولاد الصغار دون سن العاشرة من عمرهم (وكانوا يُشغلون الأطفال حتى في السنة الخامسة من عمرهم) ، واختصار يوم العمل للعمال من السبع عشرة ساعة إلى العشر ساعات . فكان جحيم المصانع والمساكن القذرة ومصيبة المرض والبطالة و « شريعة الفولاذ » La loi d'airain أشد هولاً على العمال وصغار هذه الأرض من جحيم الآخرة .

ولم تكن ثورة العمال وتحطيمهم للآلة في بداية انتشارها إلاّ صدًى لما لاقاه أولئك المعذَّبون على وجه هذه الأرض ، التي أصبحت فعلاً بالنسبة إليهم « واديَ الدموع » ورمز انقطاع الأمل ، كما أن انتفاضات الشعوب المستمرة وصراعَها الدامي المفجع الذي أثاره وغذّاه استشهاد الملايين وعشرات الملايين ضد جماعة من قساة القلوب لم تتعرف إلى العدل والاستقامة والإنسانيّة ، لم تكن إلاّ حلبة من صراع الآلهة لمناهضة الأبالسة . وحقّاً كان الله أيضاً مرّة أخرى مع المعذَّبين من أبناء الأرض ، ومع المضطهَدين والمستعمَرين والمظلومين إلى أي دين انتسبوا . لأن الله لا يفرق كما نفرق، وإنّما جميع المكافحين

لأجل الحق والعدالة والإنسانيّة هم عياله وخاصته ووجهه المشعّ بين البشر .

ولا أذكر من هذه المآسي إلاّ حرب الأفيون التي فرضتها أوروبا لأجل تصدير هذه المادّة السامّة إلى الصين المسكينة وتخدير أهلها وإمراضهم والقضاء على حيويتهم ، ومجازر الأمريكتين حيث قضي – باسم الفتح أحياناً ، ودائماً باسم الحضارة – على أجناس بشريّة برمّتها ، واقتسام بولونيا واخضاعها للسيطرة الأجنبيّة أكثر من أربع مرات ، ومآسي الهند والعالم العربي وكلّ بقعة من بقاع إفريقيا حيث بلغت الجاهليّة في مجاهل القارة السوداء بشكل خاص ما لم تبلغه في أي مكان آخر ، وحيث كان السيّد الأبيض يصطاد الزنوج للتسلية وللتمرين لا أكثر ، كما يصطاد أولادنا الطيور عندما ينصرفون إلى لهوهم العادي المحبَّب . وكان كفاح أرض المليون شهيد بالقرب منّا وجريمة طرد عرب فلسطين وتسليم هذا البلد للصهاينة من الأمثلة التي عشناها كلّنا بالقرب منّا .

وكلّما تقدمت بنا الخطى المسرعة نحو الحاضر والمستقبل ، ظهر لنا أن عهد الانفصال بين الدين والدولة كان أشدّ فتكاً وترويعاً من أي عهد آخر ، وخاصة بعد أن بطلت نهائيّاً باسم العلمانيّة مشاركة الدين للدولة . وكان العلم الحديث ، في بعض اتجاهاته الخاطئة ، أخذ يكوّن نظريّات في السياسة أعادت

الإنسان عملياً عدة مئات من السنين إلى الوراء فيما فرضته من تصرّف .. ففاقت إجراءات التطهير والمجاعة في الاتحاد السوفياتي في بداية نموّ النظام وتركيز الثورة كل ما كان بالإمكان أن نتخيّله ، وكان ضحيتها على ما يقدّر العارفون بين العشرين والخمسة وعشرين مليوناً من البشر ، ثمّ جاءت النازيّة فإذا أفران الموت في المعتقلات تتلقى جماهير الناس أفواجاً أفواجاً ، كيوم حشر عظيم ، وتحوّل أجسادهم إلى مواد كيماويّة عضويّة وإلى صابون وسواها من المنتجات . ولاقى حتفه – بهذه الطريقة التقدميّة المبتكرة – ومن اليهود فقط ما لا يقل ربما عن الاثني عشر مليون رجل وامرأة وطفل .

وكانت الحرب العالميّة الكبرى التي بلغ مجموع ضحاياها من المدنيين والعسكريين الخمسين مليوناً تقريباً . وها نحن اليوم نمهد للسلم بابتكار الأسلحة النوويّة والصواريخ ، وبالسباق لأجل كل شعاع للموت جديد .

ومما يزيد في حراجة الأزمة المعنويّة التي نلاقيها أن العلم ليس له دين أو مناقبيّة ، بعد أن أضحت السياسة ذاتُها بدون مبدإ أو دين . فكان مكيافيل ولا يزال يحكم سعيداً ، لولا هذا التطوّر الذي خلقه كفاح الشعوب في كلّ مكان لأجل الحق والسلم والعدالة والمساواة والتضامن والحريّة ، والذي كوّن رأياً عاماً عالميّاً يصعب تحديه وتجاوزه ، ولولا هذه

AUB LIBRARIES

المؤسسات الجماعيّة العالميّة والإقليميّة التي أبرزتها الحاجة العامة وفي طليعتها المؤتمر الدائم للأمم المتحدة .

وسط هذه الغياهب من جهل بعض الإنسان وظلامته ، ولكي نكون واقعيين تماماً فيما نقصده ونعنيه ، كان لرجل فقير ، ولد وترعرع في إحدى قرى الهند الحقيرة المتواضعة ، أن يوقظنا على نبرة الأجيال المتقادمة والعابرة إلينا من جميع الكتب المقدسة ، وخاصة من الشاستراس الهندوكية فيما قبل المسيح بعشرات الأجيال .

فأعاد المهاتما غاندي للسياسة معناها الأصيل ونهجَها الصواب ، وأعاد الروحَ العظيم ليتجسد من جديد في مادة الفكر والقلم والتصرّف البشري ، وعاد الإنسان يُنصِت إلى صوته الداخلي الصغير المتواضع « The small little voice » في طيّات جنانه — هذا الروح العظيم الذي كان وهو هو أبداً ولا يزال فينا ، القاطن الحقيقي في غلاف العقل الرفيع ، وإنما أفكارنا وأعمالنا وانجذابتنا وسوء نياتنا هي التي صرفتنا عنه ، وجعلتنا ننهج في حياتنا نهجين : نهجاً لأجل كسب الأرض ونهجاً لأجل ربح السماء .

وكانت الأمثولة التي علّمنا إياها الرجل الكبير والتي هي أساس الجدّة في العالم الجديد ، إذا أردناه فعلاً كذلك : إن الوسيلة لا تنفصل عن الغاية ، لأنها جزء لا يتجزأ من

الغاية ، وتمهيد ومقدمة لها ، وإنما الغاية هي تتميم وامتداد للوسيلة . إذن يجب أن لا نتخابث على أنفسنا ، وأن لا نتخابث ونتجنّى على الروح القدسي فينا. هذا هو التجديف نصّاً ومعنًى ، فيجب أن تكون الوسيلة طاهرة ، وأن تكون طبعاً الغاية طاهرة نقيّة لكي يتمّ تجلي الروح في الفعل .

أعاد المهاتما الصدق إلى السياسة ، أعاد النهج الثوري الذي يتوافق مع الروح ومع الأخلاق أو بالحري ينبثق منهما . هي الوجوديّة الحقيقيّة للإنسان — هي الصدق في أشرف تجلّياته .

وهنالك وجه آخر لهذا النهج الجديد والقديم والأزلي فينا في آن واحد ، هو ممارسة الفعل بنيّة ورغبة عدم الإيذاء ما أمكن ماديّاً ومعنويّاً للآخرين ، أي بروحيّة المحبة والشفقة إلى أقصى حدود الشفقة والمحبة — وليس لها حدود . فقاعدة عدم الإيذاء Ahimsa ، التي ترُجمت خطأً باللاعنف ، لا تنفي استخدام العنف ، وكل عمل في النهاية تعنيف على الأقل معنوي وفرض وجهة نظر على الآخرين وتجريدُهم من حريّة للشرّ وللفساد ، لجعلهم ينصرفون إلى التمتع بحريّة الخير التي هي وحدها الحريّة الحقيقيّة . ولكن هذا النهج المعنوي المفعم بالحب وبإدراك الغاية الأخيرة لا يرتضي العنف إلاّ عندما يفرَغ ، بدون قنوط ولا ملل وبصبر الأولياء والقديسين ، من

استخدام جميع الوسائل ، وضمن شروط تفترضها عناصر القاعدة المعنويّة المناقبيّة التي انطلق القائد منها ليتحرّك .

هذا الاشتراك وهذه المشاركة وهذا التوحد في انسجام عناصر التنوع قد أضحى اليوم ، إذا أنصتنا لصوت بعض كبار علماء الحياة ، تيّاراً حتمياً في مصير ومجرى تطوّر البشريّة الحاليّة . وقد ذهب تيلار دي شردان بشكل خاص إلى التأكيد بأن حركة تكاثر الجنس البشري والتعقد الآلي المطّرد للعلاقات الاقتصاديّة ، والتكثف المادي والمعنوي الناجم عن مساحة الأرض المحدودة التي تقطنها كتلةٌ حيّة في طريق الانتشار المستمر ، كل ذلك يجعلنا نقرّر :

« إن هذه الظاهرة الجماعيّة — التي يعتبرها في الأنظمة السياسيّة الكلّيّة ، النازيّة والشيوعيّة والفاشيّة على السواء ، دلالة متطرفة إلى ما سيحدث في المقبل القريب — إن هذه الظاهرة للتجمع البشري ، إذا أخذناها ، في جوهرها وفي مواصفتها العامة ، لا يمكن تأويلها إلاّ كتحوّل أساسي عميق ، أي كتغيير جذري للحالة البشريّة في مجال قياسات عظيمة ، يرشدنا علم الحياة المقابَل إلى سببها . إن الاضطرابات والحركات الاجتماعيّة الكبرى التي يشعر العالم بها تعني في الظاهر أن البشريّة قد بلغت بدورها السنّ التي توجب فيها الضرورة البيولوجيّة على كل جنس حي بأن يحقق انتظام

عناصره وانسجامها . يبدو أن البشريّة تقترب فينا ومن خلالنا إلى درجة اشتراكها وتوحدها الاجتماعي الدقيق الحاسم . »

« Mais le phénomène, pris dans sa généralité et dans son essence, ne peut guère s'interpréter que comme une transformation de fond, c'est-à-dire comme un changement d'état humain à grandes dimensions dont la biologie comparée nous suggère la cause. Les immenses troubles sociaux dont se sent aujourd'hui agité le monde signifient apparemment que l'Humanité a atteint, à son tour, l'âge où toute espèce doit, de nécessité biologique, passer par une coordination de ses éléments. En nous l'Humanité semble approcher de son point critique de socialisation »

(Les Cahiers du Monde Nouveau, Vol 1 nº 3 — 1945)

هذه الاشتراكية والمشاركة الاجتماعيّة ذاتها هي التي تؤلف الجزء الأهمّ والإرشاد الأكثر قيمة عمليّة وإدراكاً معنويّاً لرسالة البابا يوحنا الثالث والعشرين : « أم ومعلّمة » .. وقد ورد في الترجمة العربيّة لكلمة Socialisation التي استخدمها أيضاً « البابا » بعد أن استخدمها بعض الاشتراكيين وتيلار دي شردان ، ورد خطأً في تعريبها على هذا النحو : الاتجاه الاشتراكي المعاصر ، وهي في الواقع الاتجاه الاشتراكي الاجتماعي الجديد .. وقد ورد حرفياً في هذه الرسالة : ـ « الاتجاه الاشتراكي ميزة من ميزات عصرنا ، فهو تكاثر مطّرد للعلاقات في الحياة العامّة ، ويقتضي أشكالَ حياة مختلفة

AUB LIBRARIES

ونشاطاً مشتركاً وإقامة مؤسسات نظاميّة . هو واقع يتغذّى من معين عوامل تاريخيّة عديدة ، من بينها ينبغي أن نَعدّ التقدم العلمي والتطوّرات التكنيكيّة ، وفعاليّة مثمرة أعظم ، ومستوى حياة عند الناس أرفع .

ثمّ توضح الرسالة : « إن الاتجاه الاشتراكي المعاصر (Socialisation) هو ايضاً ثمرة وتعبير عن ميل طبيعي في الناس ، تقريباً لا يقاوم : ميل إلى التشارك لبلوغ أهداف تتعدّى قوى الأفراد والوسائل التي يستطيعون أن يستخدموها . »

ثمّ تضيف الرسالة تحت عنوان تقدير :

« من البيّن أن الاتجاه الاشتراكي وفقاً لهذا المفهوم ، تتأتى عنه منافع كثيرة . إنّه في الواقع يتيح للناس أن يتمتعوا بحقوق شخصيّة عديدة ولا سيما تلك التي تدعى حقوقاً اقتصاديّة واجتماعيّة . »

وتنفيذاً لهذه الاشتراكيّة الجماعيّة والمشاركة الاجتماعيّة ، تتوجه الرسالة بتشجيع خاص لتعاونيات الإنتاج وخاصة في الحقل الحرفي والزراعي ، والعمل التعاوني في الصناعة ذاتها ، وتعلن من جهة أخرى ضرورة « وجود العمال الفعلي في المؤسسات المتوسطة والكبيرة »

« La Présence active des travailleurs dans les moyennes et grandes entreprises ».

AUB LIBRARIES

وتقول الرسالة في ذلك : « إننا نعتبر شرعياً .. توقَ العمال إلى أن يشتركوا فعلياً في حياة المؤسسات التي ينضمّون إليها ويشتغلون فيها .. ويجب أن نعمل على جعل المؤسّسة تتحوّل إلى جماعة أشخاص فيما يتعلق بعلاقات العاملين فيها ووظائفهم وأوضاعهم .. ويقضي هذا بأن يكون في استطاعة العمّال ان يُسمعوا صوتهم ويقوموا بدور فعّال في تسيير المؤسّسة وتطويرها » .

ثمّ يفصح البابا : « وممّا يجدر الإشارة إليه أن اضطلاع العمال بالمسؤوليّة في أجهزة الإنتاج ، حين يتجاوب مع المقتضيات الشرعيّة المفطور عليها قلب الإنسان ، ينسجم أيضاً مع مجرى التاريخ في الشؤون الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة .. ومن مصلحة الجماعات السياسيّة نفسها أن يشعر كلّ مواطن أنّه مسؤول عن تحقيق الخير العام في جميع نواحي الحياة الاجتماعيّة » .

وفي فقرة أخرى من الرسالة : « وجود العمال في جميع الدرجات » نقرأ : « على أن العوامل التي تؤثر في هذا الوضع لا تقرّر في داخل أجهزة الإنتاج هذه ، بل هي السلطات العامة التي تقرّرها أو منظّماتٌ ذاتُ صلاحيّات عالميّة أو إقليميّة أو قوميّة ، متعلّقةٌ إمّا بالقطاع الاقتصادي وإمّا بأصناف الإنتاج . من هنا المناسبة – بل الضرورة – أن يكون في تلك

السلطات العامّة أو هذه المنظمات ، ما عدا من يقدّمون رؤوس الأموال ومن يمثلون فوائدها ، العمال ومن يمثلون حقوقهم ومطالبهم وأمانيهم . . »

وهذا لا يعني في أي حال القضاء على الملكيّة الفرديّة ، واستعين هنا بميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي الذي هو أوضح ، بل تطوير مفهوم الملكيّة الفرديّة وحصرها ضمن إطارها الطبيعي وممكناتها الاقتصاديّة ، وضرورة الاشتراك العام .

ويوصي ميثاق الحزب (ص ٧٠) :

« - بوضع وتطبيق مجموع قانوني عادل للملكيّة والرأسمال والعمل يؤمّن بينها التعاون المنسجم الرامي إلى الرخاء العام ويُستمدّ من وظيفتها الاقتصاديّة والاجتماعيّة :

أ - في المرحلة الحالية من تطوّر الجماعة ، تُعتبر الملكيّة مرتكز حريّة الفرد وطمأنينته واستمراره ، وبقاء الأسرة ، وعامل إنتاج وحافز للمبادرة الشخصيّة ، على أن لا تكون علّة تجميد أو تعقيم للثروة ولا أداة للطفيليّة الاجتماعيّة والكسل ، ولا عامل سلطة أو وسيلة ضغط ، وأن لا تتعارض مع مقتضيات التملك العمومي .

ب - العمل ، شرعة الحياة البشريّة ونبالتُها ، هو الشرط الجوهري لإمكانيّة الإنتاج والجدوى في المجتمع ، (فمن يقدر ولا يعمل لا يحق له أن يأكل) . »

AUB LIBRARIES

هذه الاشتراكيّة الاجتماعيّة تفرض المشاركة في الإدارة وفي التملك وفي الربح في جميع المؤسسات الصناعيّة ، لا التأميم في المعنى الرأسمالي الساذج والغليظ للكلمة .

هذه الاشتراكيّة الاجتماعيّة تفرض التعاون ، وتحقيق مبدإ التعاون حيث يمكن ذلك في جميع نشاطات الإنتاج والاستهلاك . « لا يجتمع اثنان باسمي إلاّ وأكون بينهما ثالثَهُم » ، على ما ورد في الإنجيل وفي القرآن على السواء .

وهذه الاشتراكيّة الاجتماعيّة تفرض الإنتاج لأجل الحاجة والكفاية والتطلبات الأساسيّة لتنمية الإنسان ، لا الإنتاج لأجل الربح والتخمة والمرض ، في حلقة مغلقة من الانجذابات الحسيّة المختلقة والحاجات المصطنعة للرّد عليها والاتجار بها وتحصيل الربح لا أكثر . هذه الاشتراكيّة تفرض تعديلاً أساسيّاً في اتجاه الحضارة .

هذه الاشتراكيّة الاجتماعيّة تفرض اعتبار الملكيّة للمجتمع أو لله في النهاية ، وحق التصرف بها للأفراد وللجماعات. وكيف يدعي الإنسان ملكاً ، يبقى الملك ولا يزول بفناء الإنسان.

هذه الاشتراكيّة الاجتماعيّة تفرض الحفاظ على العائلة وتهيئة الظروف لبقائها ونموّها ، لا الإبقاء على عوامل تفسيخها وتدميرها واضمحلالها . فالعائلة هي الخليّة الاجتماعيّة الأساسيّة ، ويجدر – ربما قبل توفير الغذاء والحريّة – تنقية جوّ

المجتمع من جميع التيّارات والمظاهر المفسدة للأخلاق وللفضيلة. فغاية المجتمع هي تحقيق رفاه الإنسان وهنائه ، ولا تنمو سعادة الإنسان ولا تتمّ إلاّ بممارسته لكرامة الفضيلة .

هذه الاشتراكيّة الاجتماعيّة تفرض التخلص من مجتمع الإباحيّة والفوضى ، والعودة إلى مجتمع الأخلاق والحشمة الذي فيه تنطلق فعلاً وتتفتح طبيعة الإنسان الحقيقية . ولا فائدة لأحد أن يربح الدنيا وأن يخسر نفسه . وبئس الهدف والتصرّف الذي يمهرُنا بوجوديّة زائفة هي وجوديّة الحواسّ ، ووجوديّة الجسد ، أي وجوديّة البهائم الّتي منها صعدنا وترفّعنا وانبثقنا في حركة الخلق المتطوّر .

هذه الاشتراكيّة الاجتماعيّة ، الجامعة لخير ما في الغرب وما في الشرق العربي من قيم حقيقيّة للحضارة ، تفرض ذهنية الانفتاح الكامل والتلاقي فيما يتعدى حدود كل فئة اجتماعيّة وكل قوميّة وكل لون وكل دين . تفرض المحبّة للآخرين والعمل لأجلهم ، أي صوفية جديدة للهدم وللبناء ، فيما يتعدى حافز الربح والمبادرة ، صوفية المساهمة في الخلق والتكوين ـ هذا الخلق والتكوين الذي هو دائم متصل أمام عيوننا على وجه الأرض وفي الكواكب البعيدة والمجرّات ، في مختبرات الكون اللاّمتناهية في الكبر واللاّمتناهية في الصغر ، حيث تتحوّل الطاقة الأوليّة دائماً وأبداً إلى مادة متطوّرة وإلى

AUB LIBRARIES

نور ، وحيث يعود النور من جديد ليتحوّل إلى طاقة ومادة ، كما ترشدنا نتائج العلم الأخيرة إلى ذلك . أو بكلمة حيث لم يعد هنالك مادّة في المفهوم التقليدي ، بل كلّ شيء هو طاقة حولنا وفينا وفي كل مكان وزمان . وإنما الإنسان والكون هو في جوهره واحد .

هذه الاشتراكيّة الفاضلة تتضمن الانفتاح الكامل على حركة التطوّر الحقيقي في الإنسان . فكما يلاحظ تيلار دي شردان بحق : أن تقسيم الماركسيّة للمجتمع إلى طبقات تتصارع لم يعد واقع العالم الحاضر والقادم الجديد . إنّما التمييز الحقيقي والفاصل سيكون أكثر فأكثر بين الذين اختاروا طريق الانفتاح الكامل ، طريق الحركة في معناها الحقيقي ، مسلك التطوّر ، والذين لم يختاروا سوى ما هم عليه من جمود أو قلّةٍ وتأخّرٍ في انجذابات الخارج وما يبرز منه من تنوّع المظاهر .

في نهاية هذا العرض المحدود الصغير وفي توضيح موقفنا جميعاً من هذا ، من « الاشتراكيّة والعالم الجديد » ، والذي توخينا أن نعالجه من واجهة المفهوم الحقيقي للاشتراكيّة النامية أو المشاركة الاجتماعيّة التي لا تزيل التنوع والتفرع ، بل تسجمهُ وتستقطبهُ ، ولا تلغي الحريّة بل ترفعها إلى إطارها الحقيقي وتجعل لها معنى ورسالة ، بعد أن طغى المدلول الاقتصادي المحض على المفهوم الاشتراكي في ذهن الجمهور ، يصحّ أن

AUB LIBRARIES

نتذكر بعض الآيات الكريمة في ختامنا ، تتلاقى في النهج والتوصية .

ولنصغِ إلى صوت محمّد في لغة العرب الصافية ، التي تتجلى بالآيات على حد تعبير ماسينيون دائماً وأبداً : « من كان له فضلُ ظهر ، فليعد به على من لا ظهرَ له ، ومن يكن له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له . » ... « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعامُ ثلاثة فليذهب برابع ، بخامس » . « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه ، وهو يعلم » .

ومن أروع الأحاديث : « إن ما لك ما أكلت فأفنيت ، وما لبست فأبليت ، وما تصدّقت فأبقيت ، وما دونْ ذلك فلغيرك . »

وهذا صوت الناصري من قبل يوصي بالعدل وبالرحمة وبالمحبّة التي لا تطلب لها ثواباً أو مقابلاً ، ويرجم أغنياء الأرض أي الذين تعلّقوا بالمال كما يربِط المرء حجر الطاحون في عنقه ، ولم يقوموا بما يتوجب عليهم في بناء مجتمع العدالة والأخوّة والتضامن والتعاضد والتكافؤ في فرص العيش والتنمية لكل فرد ، « إنّما جئت لأجل هؤلاء : أي الفقراء (أي في عدم تعلقهم بالمجد وبالمال) ، ولأجل البسطاء (أي بتوجههم العفوي إلى مصدر الرفعة في الإنسان) ، ولأجل

التعساء ». « إن مرور جمل من ثقب الإبرة أيسرُ من أن يدخل الغني إلى ملكوت الله ». لأن الأغنياء « قد نالوا عزاءهم »، لأنّهم لم ينظروا إلى أحد حولهم. « لا تقتنوا ذهباً ولا فضّة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مذوداً للطريق، لأن العامل يستحق طعامه ».

أولم يقل البوذا قبل ذلك بستة أجيال: « لا تفعلوا مع الآخرين إلاّ الذي تريدون أن يفعله هؤلاء بالنسبة اليكم ».

وسواها من الأقوال التي لا مجال لذكرها هنا. ولكن علينا أن نسمع نداءهم بالذهنيّة ذاتها التي دفعتهم أن يخاطبونا بها من فوق عشرات الأجيال، وأن نتقبّلها كالأرض الجيّدة، وأن لا نتلهّى بقشور الحضارة وانجذاباتها التافهة: إنّما الحضارة الحقيقيّة هي حضارة الإنسان، حضارة الداخل لا الخارج، وإنّما وجدت لأجل الإنسان ولم يوجد الإنسان لأجل الحضارة.

وإن لم نفعل ذلك، سيأتي وقت وينزل قدر محتوم فيطوي صحيفة هذه البشريّة من على وجه الأرض، في موجة من الانحلال ثمّ الزوال، كما طوى فيما قبل وحجب عنا الإنسانَ المتطور الأوّل، البشري السعدان l'Australopithèque منذ أقل أو أكثر من خمسمائة ألف سنة، ثمّ قضى على الإنسان الصيني الأوّل، ثمّ على إنسان كرومانيون Cromagnon

وسواهم . وليس هذا مجرّد خيال : فقد يكون هذا التكاثر الهائل للبشر الذي قد يبلغ ستة مليارات في نهاية هذا القرن ، وربما ثلاثين ملياراً في ختام القرن المقبل ، قد يكون هذا التكاثر ، الذي يرافقه الانحلال والفوضى في روادع الإنسان الجنسيّة ، دلالةً على اقتراب الأجل ، تماماً كما أن الشجرة التي تشرف على الموت تكتسي ببساط من الزهور والأكاليل والأثمار للمرّة الأخيرة .

آن الوقت لمختلف المعتقدات أن تعود إلى مفهوم رسالتها الاجتماعيّة الكبرى ، دون أن تهمل لأجل ذلك رسالتها الصغرى بالنسبة لإصلاح الفرد والإسهام في تكوين القيادة ، لأن الآية المعكوسة هي أيضاً صحيحة : « كما يولّى عليكم تكونون » . « إذا فَسُدَ المِلح فبماذا يُمَلَّح ؟ »

آن لنا أن نبدأ ، في المعنى والقصد الأرضي ، ومنذ الساعة ، أن نحقّق ما كان يذهب إليه هذا الولي الحنفي الكبير في انفتاح رحمته وسعة شفقته وتوقد نيران معرفته وتوحيده ، أبو يزيد البسطامي ، من أنّه سيرفضُ الدخول إلى جنّة الرحمن إذا لم يُخرج الله آخر معذّب قد حُجز عليه في بيت النار .

ولنبادر إلى إنقاذ هؤلاء أي الفقراء ، المساكين ، أولياء ملكوت الله على وجه هذه البسيطة من الجحيم الأرضي ، ومن الجوع ومن المرض ومن البطالة ومن انعدام السكنى ، في الوقت ذاته أو قبل أن نوفّر عليهم حجرة في جحيم الآخرة .

AUB LIBRARIES

الروحية التقدمية الاشتراكية

الذهنيّة التي نواجه بها الأنظمة والأشخاص والأشياء والحوادث هي أهم بكثير من الأنظمة ذاتها . فالتقدميّة الاشتراكيّة هي روح عدل ومساواة ، ومجابهة صدق ، ومبادرة وتضحية ، وتفهُّم إنساني منفتح ، قبل أن تكون أنظمة وسنناً وقواعد ودستوراً ، وقوانين اجتماع واقتصاد وعيش مشترك . . فالروح التقدميّة الاشتراكيّة هي التي توحي بهذه الأنظمة وتدفع إلى تحقيقها ، وتحييها من الداخل ، وتصبغ مناهجها ، وتنفح العلاقات بين المؤسسات وبين المواطنين . . ولولا ذلك لما كان للأنظمة والقوانين التقدميّة من معنى وقصد إنساني عميق ، ولما كان لها في حلبة الصراع من توجيه . .

وإنما بناء الإنسان الحقيقي فينا هو القصد والغرض والهدف ، وليس هو مجرد ارتياح الفكر واغتباط الشعور لاستنباط الأنظمة والشرائع الجديدة ، ولقيام الدولة التقدميّة الاشتراكيّة العتيدة .
ولذا ورد في الميثاق : « إن الغاية الوحيدة لكل عمل

AUB LIBRARIES

ومؤسسة بشريين هي تفتّح كامل ومتناسق لمقدور الفرد (وإنني أفضل: لمقدور الإنسان فينا). وإن المجتمع في كل مؤسساته – ومنها السياسيّة – ليس في ذاته غاية، بل وسيلة إلى بناء الإنسان.. فالدولة تقدَّس أو تُلعن، تخصب مؤسساتها أو تعقم، بقدر ما تخدم أو لا تخدم هذا الإنسان».

طبعاً علينا بادىء ذي بدء أن نحدد ما هو هذا الإنسان الذي يتوجب أن نضعه هدفاً وقطباً وغاية لما نصبو إليه.. وقد آثرت إبدال كلمة الفرد بالإنسان تعمُّداً، لأن الفرد ليس له قيمة بحد ذاته ولا كيان إلاّ بالنسبة لهذا الإنسان.

يكفي أن نعلن وأن نكرّر دائماً أننا لسنا بعد ذاك، بل علينا أن نصبح ذاك الإنسان.. وإن علينا أن نفتح أمامنا واسعاً باب التنقيب والتفكير، وأن نستقطب قوى الحدس والشعور، وأن ننكبَّ نسائل أنفسنا على ضوء التاريخ والدين والعلم الحقيقي واختبار التصرف في كل عصر ومكان واعتمال مسالك الحقيقة الأخيرة.. علينا أن نفتش عن الإله المجهول الموجود فينا..

ما هو سعي العلم – إذا طبعاً لم نتلهَّ ببعض تطبيقات العلم في الحقل الدنيوي، وهي توافه الحواشي وقشور التوافه بالنسبة لاستقصاءات العلم النظريّة، أو كمن يريد أن يبصر الشمس بنور القنديل – وما هو سعي العلم وغايته التي ينكبُّ عليها أُناس زهدوا وتصوفوا لمثل هذا الغرض: هو محاولة الوصول إلى

الجملة الهندسيّة والجبرية الأخيرة التي بها نستطيع تفسير ظواهر هذا الكون بأسره ، هو التفتيش عن وحدة للحلول التي تتراءى لمختلف الباحثين في شتى المسالك ، هو السعي لتوحيد مصدر هذه الحوادث والظواهر ، هو في الواقع استكشاف الحقيقة الواحدة التي تكمن وراء هذه الحقائق الجزئيّة والنسبيّة ، تماماً كما يسعى العابد الموحّد، عبر اختبارات ذاته، إلى التوصل إلى معرفة الجوهر الذي يوحي إليه بالضمير وبالخلق السوي ، وبرغبة الانصهار والتضحية ، من وراء هذه العوارض من هواجس الشعور وتبدل صور الفكر ومدركات الحواس . .

وسعي الإنسان البديهي ومطلبه العفوي ما هو في الواقع ؟ هو طلب الأفضل على الدوام ، حتى ولو ضاع الإنسان في متاهات حواسّه وشذوذ غرائزه والتواءات تصور أفكاره — والعارف والجاهل سيّان في ذلك . . إنّه يطلب الأفضل لأنه يطلب المعرفة — ويطلب الوجود ويطلب السعادة . . فهذا يراها في هذا الغرض، وذاك يراها في غرض آخر، والثالث يستشفّها في غيرها من الدُّرُوب والمناهج والمسالك . .

وغاية العلم وقصده ، وغاية الرجل العادي أيّاً كان ، في هذا الاتجاه واحد .

يبقى علينا أن نتبين ما هو الأفضل ، وأن نميز المسلك الذي يوصلنا إلى معرفة أوضح وأثبت مع الزمن وإلى السعادة الحقيقيّة

AUB LIBRARIES

التي لا تتبدل ولا تتحوّل بتبدل الأحداث وتحوّل المناسبات وتغيير الظواهر..

المهم إذن هو التمييز والتفضيل والمقابلة لأجل التبين والاختيار.. هي صفة الكائن الأساسيّة ــ صفة الانتقاد والتمييز التي بدونها لا يمكن أن يتصوّب فكر الإنسان، وتصفو وترقى عواطفه ونزعاته، ويصبح قادراً على اختيار الحياة الافضل وانتهاجها..

وظيفة العقل وهبته الأساسيّة هي التدقيق والتمييز.. وإلاّ إذا كان علينا أن نقبل بكل شيء كما هو وكما يأتينا، بطلت هذه الوظيفة، ووقع واحدنا في عاهة التقليد الأعمى، وهو لا يكون يفطن، أنّه عندما ينتقد التابعين للتقليد الماضي ويصمهم بالرجعيّة والإسفاف والتجاهل والتعامي، دون أن يعمل التمييز في إرث الأجيال الواصل إليه، إنما يكون هو لا يبصر أنّه واقع ومستقرّ في حفرة من التقليد أدهى وأخطر: هي تقليد كل جديد والتبعيّة لكلّ ابتكار محدث، والاسترقاق لكلّ ما يبرز من صور وعادات وانجذابات، دون أن يجهد فيها نور البصيرة والتمييز. فهذا مقلّد وذاك مقلّد. ولا فرق بين الاثنين إلاّ أن ذاك تمسّك بالماضي، وهذا استهوته حتّى الاستعباد مظاهر المتجدد من المدنية البرّاقة المتبدلة على الدوام كالصور المنعكسة على شاشة السينما.

والعصر الذي نعيشه أضحى بحاجة إلى قدرة التمييز وكفاءة التدقيق أكثر من أي عصر آخر، لتعدّد مظاهر سحر الأغراض وتنوّعها أمام أعين الإنسان البدائي المتوحّش القاطن فينا، وأيضاً لأنّ تطبيق العلم الذي نراه «هو من توافه أغراض العلم وهو يجري على غير هدى»، لا كما يريده العلم ويبغيه العلماء، بل كما تقذف به إلى التحقّق وإلى السوق الأيدي التجاريّة التي تهدف إلى الكسب وإلى الكسب المتصل الدائم، أيّة كانت منافع هذه التطبيقات العلميّة أو مضارّها، أي بدون تمييز وبدون تمحيص أو تدقيق على الإطلاق..

فالعلم التطبيقي، في عصر الصناعة القائم، هو أبعد ما يكون عن العلم الحقيقي، لأنّه يقصد منه الربح لا خير الإنسان أساساً وانطلاقاً وغاية..

وللمثل لا أكثر، أضع أمام أعينكم هذه الاحصاءات التي عثرت عليها في إحدى مطالعاتي عن الحالة الصحيّة للشعوب الأكثر تمدناً، نتيجة لهذه الحياة الاصطناعيّة التي خلقتها الحضارة التجاريّة حولنا:

إن عدد المرضى المزمنين وغير المزمنين في الولايات المتحدة قد بلغ سنة ١٩٥٨ مائة وعشرين مليوناً من المرضى من أصل مجموع المائة وسبعين مليوناً من المواطنين، الذين كانوا يؤلفون شعب هذه الدولة الكبيرة، التي كانت ولا تزال في طليعة التقدّم

AUB LIBRARIES

الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة في العالم . أي أنّه لا يوجد في الشعب الأميركي الشمالي أكثر من خمسين مليوناً من الأصحّاء . .

ونرى أرقاماً متقاربة ومماثلة في أوروبا الغربيّة . . كما أن موازنات الضمان الصحي هي في ارتفاع نسبي مستمر وتشكّل عبئاً متزايداً على موازنات الدول ، بدلاً من أن تنخفض كما نتصور . .

ويبلغ عدد المصابين بداء المفاصل وحده في مجموع العالم الغربي مائة مليون من البشر ، ويزيد عدد المعتوهين على العشرين مليوناً .

ويجب أن لا ندهش لذلك . . فنحن نتيجة كيمائية وماديّة لما نأكل وما نشرب ، وما يتسجّل في أعضائنا وجوارحنا وأنسجتنا وأعصابنا ، من هذا المحيط الجشع الصاخب الذي نعيش فيه . . وماذا تطلب هذه الحضارة التجاريّة ؟ أن نتصرّف عكس ما تفرضه قواعد الطبيعة . فمقياس الحضارة يكون على قدر ازدياد استهلاك المواطن للسكّر واللحوم وللطاقة الحراريّة وللمحروقات ، وشراء عدد وافر من السلع نحن لسنا بحاجة إليها ، ولكنّ السوق يفرضها بدعايته لتتمكن بعض المصانع من أن تنتج ، والجيوب من أن تمتلىء ، إلى أن يبرز اختراع جديد ، وهكذا دواليك ، فيُطرح في السوق ، لتمديد عملية الاتجار الدائمة ،

بحواس الإنسان وبماله . .

وهذا طبعاً ليس مقياس حضارة إنسانيّة تهدف إلى الرد على حاجات الإنسان ، ومصلحته الحقيقيّة في الوجود الحي ، وفي الارتقاء العلمي والنفساني والاجتماعي . .

هذه ليست حضارة . .

ويمكننا أن نحكم ، من خلال كل ذلك ، على المدنيّة القائمة ذاتها ، التي هي في معظم مظاهرها مدنيّة ربح وتجارة ، لا مدنيّة الإنسان ، لأن رساميل الإنتاج لأجل الربح هي التي تتحكّم بها ، لا مصالح الإنسان الحقيقيّة . .

وهذا الإنسان ، قد أوضح معالمه واستبانه وأنار وجهه بالنسبة إلينا ميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي ، عندما أعاد الإنسان إلى سياق تيار تطوّره ومصادر بعثه وارتقائه ، متعدّياً الإطار الاقتصادي وظاهرة الاجتماع البشري ، ورابطاً الإنسان بالمجتمع في آن واحد . والمجتمعيّة مظهر من مظاهر هذا التطور ذاته :

« إن العلوم البيولوجيّة ، وما تفرضه من استنتاجات ، تُظهر لنا الحياة كأنها تنزع عن قصد أو عن غير قصد — في أحد اتجاهاتها الكبرى — إلى الزيادة المطّردة في مقدار وعي الكائن الحي ، وحدّة هذا الوعي ، وإلى الزيادة في حريّته وطاقته في التصرّف خلال قيود المادة وسننها — كلّما ارتقى في سلّم الأجناس والفصائل والفروع التي تتطوّر باتجاه الدوحة الحيوانيّة

التي يتوّجها ويختمها الإنسان .

» ويظهر لنا ، كنتيجة لهذا الوعي ولهذه الحريّة في الإنسان ، أن التطوّر كأنّه عدل عن نزعته البيولوجيّة الظاهرة ، وعلى الأقل عن نزعته باتجاه الدوحة التي ختمها الكائن البشري منذ بضع مئات الألوف من السنين — والرامية إلى التحقّق والامتداد والتنوع بأجناس وفروع وفصائل جديدة — وإن تطوّر الحياة قد تحوّل ، بفضل هذا الوعي وهذه الحريّة ، إلى تطوّر اجتماعي وأخلاقي ونفسي ، هدفه استنباط القيم وإنشاء الأنظمة الاجتماعيّة والأخلاقيّة والروحيّة — ولعلّ هذا هو الفاصل الوضعي بين عالم النبات والحيوان وعالم الإنسان .

» على ضوء هذا الإدراك ، يتّضح لنا خلال عمليّة التطوّر غرض الحياة منّا وفينا ، وأنّنا أداة مكلفة في الواقع بتحويل التيار الحي ، الزاخر بالإمكانيات منذ فجر الحياة ، إلى فكر وشعور وإشراق ، وقيم حق ومحبّة وجمال ، ويتضح لنا أيضاً أيّة قيمة هي الشخصيّة البشريّة ، وأيّة قيمة هي حياة كل كائن بشري ورسالته ، وذلك بالاستقلال التام عن أي مبدإ ميتافيزيقي ولاهوتي كان ، لو استطعنا أن نقرّر ذلك دون أن نستنير بالاختبارات الروحيّة الحيّة . . »

فأين نحن هنا من إنسان الماركسيّة ، أو حتى من إنسان الاشتراكيّة الغربيّة على السواء ، في هذا التصوير الذي أوردناه

والتخطيط الذي استدللناه . . فإنسانهم يبدو شاحباً وتافهاً بالنسبة للإنسان على حقيقته ، لأنّه في الواقع إنسان مرحلة من المراحل التي استحوذ فيها الضنك والحرمان والاستثمار الاقتصادي ، أي في الأجيال الثلاثة الأخيرة في أوروبا ، فتوجّه القصد والتنبُّه والعناية إلى الإنسان الاقتصادي L'homo economicus دون سواه .

وهذا الإنسان على حقيقته يبدو أيضاً بعيداً وغريباً عن الإنسان الفرد، أو الإنسان الشخص في المفهوم الغربي للكلمة، كما يتجلى من خلال المدنيّة القائمة ؛ وهو يبدو ، لولا هذا الاعتبار للحرية ، كأنّه مسخ الإنسان وتشويه صورة الإله فيه . لأنّه إنسان ما هبّ ودبّ من الرغبات والتصورات والنزعات والأفكار ، وما عصف بالإرادة أو ما تمخضت عنه الآلة من حاجات ومشتهيات ، إنسان الانفلات اللاّمسؤول والشخصيّة الأنانية التي لا يوجّهها مقياس ولا يقيّدها رادع مناقبي أو اجتماعي أو روحي سوى ربما هذا الأدب الاجتماعي السطحي ، وهذه القوميّة التي استبدلت بها مقاييس الضمير والانضباط الروحي والمعتقد ـ أيّ معتقد ـ والدين . .

وإذا شئنا التنوير والإشارة البيّنة ، إنّ هذه الروحية أو الذهنية الخاصة بالتقدميّة الاشتراكيّة ، تتوضح في بعض ما نتخذه من وجهات أو توجهات في الحياة ، أو ما نصدره من أحكام .

١ً – إنّها ذهنية التطوّر بمفهومه الحياتي الشامل العميق ، الذي هو تطوّر الحياة ذاتها على وجه الأرض ، لا بالمفهوم العادي للكلمة الذي يعني فقط المرور من حال إلى حال ، والعبور من طور إلى طور ، من ضمن حياتنا القصيرة العابرة . .

فبعضنا يتصور خطأً أن ذهنيّة التطوّر تفرض عليه أن يتبنّى كل جديد ويسير في ركبه ، ويسمي ذلك تقدماً وتقدمية ، وأن يتنكر لكلّ ماض أو واقع قائم ، ويسمي هذا رجعيّة وتخلفاً . فالتطوّر الذي نعنيه هو التطوّر البشري ، تطوّر البشريّة نحو الأنظمة والأهداف التي عليها أن تبلغها . هو تطوّر الإنسان والإنسانيّة فينا نحو غاياتها الأخيرة . . ولولا هذه الإنسانيّة ، وقيمها المتظهّرة فينا ، لما كانت هنالك أيّة قيمة للأنظمة وللسياسة وللاقتصاد وللاجتماع ، ولما استحقّت أن نعمل لأجلها ولأجل بلوغها ساعة . .

ولا تستحوذنا ذهنيّة التطوّر ، إلاّ إذا أدركنا باديء ذي بدء غاية الوجود والحياة منّا وفينا . فالمعرفة أساسٌ وشرط لمثل هذا المطلب . . فعلينا أن ننبش كتب العلم ، ونتقصّى آخر مفترضاته ومستنتجاته لأجل ذلك ، وأن لا نتلهّى بسحر بعض التطبيقات الصغيرة لنظريات العلم ، كما تبرز من خلال الصناعة وتعميم بعض المنتجات ؛ فالذي كشفه العلم أو دلّ إليه ، في حقل بعض الحقائق الأخيرة من نشوء الكون وانبثاق الحياة .

AUB LIBRARIES

واستشعار قوى الروح العجيب فينا ، وهذه الطاقة التي دفعتنا أن نكون ما نحن عليه وما سنصيره ، أخطر شأناً من هذه الدمى التي يرميها أرباب الربح والتجارة والصناعة لتستهوي عيوننا ، فنبتاعها دون أن نعرف لها فائدة معظم الأحيان . . والعقل الذي أبدع العلم هو أعظم من العلم ذاته . . والإنسان فينا الذي حوى العقل ، واستنبط شرائع المادة والكون ولا يزال ، هو أعظم من هذا العقل الصغير .

والغايات الأخيرة لهذا التطور هي الوعي والحريّة ، وهما في الواقع كلمتان لمفهوم واحد ، فلولا الوعي لما كانت الحريّة ، وعلى قدر ما يتكامل فينا الوعي ، نشعر بالحريّة ، لا الحريّة الخارجيّة القلقة التي تنتقل من مطلب إلى مطلب ، بل الحريّة الداخليّة الحقيقيّة فينا ، الحريّة الجوهريّة إذا شئنا التعبير الموافق . . وإذ ذاك فعلاً تكون الحريّة الخارجيّة، التي يتمتّع بها المواطن، حريّةً صحيحة وسليمة وثابتة ومستقرّة ، وتتحقق بشكل عفوي ضمن إطار المناقبية وقيم الإنسان العليا ، لأنّها تضحي انعكاساً بديهيّاً لهذه الحريّة الداخلية الحقيقيّة ، حريّة الإنسان الذي حقق بعض معانيه ومضامينه ، لا الإنسان الفرد أو الإنسان الشخص . .

وإلاّ يكون واحدنا كتلة من لحم ودم ، وحركة مسعورة لا تعرف هي ماذا تريد .

وهذا الوعي ليس هو الوعي في مفهومه الساذج العادي، كما يعنيه الجاهل منّا – أي وعي المصالح والحقوق والواجبات – بل هو التنبّه العارف واليقظة، كمن أضاء نوراً في نفسه يستضيء به على الدوام ، في ظلمة الليل وفي نور النهار على السواء .

وهذا النور الذي هو من جوهر كياننا، هو الوعي المطلق الذي نقصده .

والوعي في هذا المستوى ، أي هذه البصيرة فينا ، إمّا أن تجذبه الأغراض على غير هدًى ومحاكمة وتمييز – أغراض الفكر وأغراض العالم على السواء – فيضلّ ويتيه ويبعد به صاحبه عن الغاية ، وإمّا أن يتوجّه إلى الحقيقة على الدوام .

ولا يستقيم المرء إلاّ بهذا التوجّه إلى الحقيقة . . هذا هو المطلب الأساسي للإنسانيّة فينا ، للتطوّر فينا ، للحياة ، للوجود . لذا كان الصدق هو ذاته الصراط المستقيم .

من منّا يعرف أن هذا كذب وبهتان ، وينصرف صافياً ومرتاحاً إليه ؟

٢ً – وعندما يتوفر لنا، من خلال تعويد الفكر وترويض الرغبة، أن نطلب الحقيقة والحقّ والعدل في كل شيء ، ونتميّزه في كل ما يحيط بنا ، إذ ذاك تتفتّح النفس لشعور الاستساغة والانجذاب إليه – على غير معنى انجذاب الفكر والحواس – ويستوي العيش ويعمر العقل بالمقاييس الصحيحة

AUB LIBRARIES

للعيش وللتاريخ، وللمجتمع وللاقتصاد وللسياسة، وللفن وللحضارة، ويتجلّى الوعي فينا ويهيمن، لأننا نكون قد أزلنا من طريقه العقبات، وأخذنا نعرف أننا نعيش..

النبات والحيوان يعيش ولا يعرف تماماً أنّه يعيش.. ومعظم البشر يعيشون ولا يعرفون أنهم يعيشون.. فعلينا أن نحيا، وأن نعرف في الوقت ذاته أننا نحيا.. هو وجه من وجوه الوعي وارتقائه أو تظهّره في الإنسان.

والوجه الآخر الذي لا ينفصل عنه هو إدراك الأهداف الأخيرة للإنسان وللتطور.

٣ً – ومراس الصدق هذا هو المجاهدة الحقيقية للجيل الذي نعيشه، وهو المسلك الصواب، والذي يوصل إلى تفتيح ما نحن عليه من إمكانات وتوجيه ما يخفق فينا من نزعات.

وليس علينا أن نقول دائماً ما نفكر به، أو أن نفصح عن الحقيقة بكاملها، عندما تُخدش أو تجرح أو تؤذي على غير هدًى ولغير فائدة الكائن الذي نتوجه إليه ونرجو له الخير من ضمن هذا الصدق ذاته.. والمهم هو تصرفنا أكثر مما نقوله ونعلنه أو ننشره.. والمحبة العميقة يجب أن تكون دائماً وراء كل نهج أو عمل أو رأي أو قول، حتى في صميم معركة التعنيف المعنوي أو العنف المادي.

ومراس الصدق يجعلنا نحترم أنفسنا ونحترم الآخرين أيضاً،

ونقلّ من كلامنا ونضبط ناحية فكرنا وشعورنا ، وترتوي جوارحنا ويفيض جناننا بهذه القوة المعنويّة التي تفرض تأثيرها السحري على الآخرين ، وترمي بثقل الموازنة والثقة والإيمان في حياتنا . .

٤ً — على أن هذه الروحيّة لا تتم إلاّ إذا ظلّت صافية ، طاهرة نقيّة لا يدنّسها الشعور بالأنا . . فكلّ انعكاس على أنفسنا وكل تطلُّع داخلي إلى ما نفكّر به وما نشعر به وما نعمله يشوّه العمل والفكر والشعور وقصدَه ، حتى ولو كان لأجل الخير والصلاح والفضيلة والمبدإ القويم، ويفسده ، ويدنّسه بظلمة الأنا الأنانية . .

وهذا الانعكاس على ما نحن عليه أمر غير طبيعي، ترفضه الفطرة، ويمجّه الذوق، ويجانبه التجرّد والإخلاص . . فيجب أن نعمل لأجل العمل لا غير ، دون التعلّق بما يؤول إليه من ربح أو خسارة ، ودون الاهتمام بما يضفي على النفس من غبطة وانشراح، أو انقباض وألم ، ودون الارتداد إلى ما وراء، لننسب هذه الأعمال إلى الشاهد الصامت فينا الذي هو بريء منها في كلّ حال . .

وترويض الجسد والحواس والفكر على مثل هذا التحصّن والصيانة من انعكاسات الأنانيّة يفتح أمامنا الباب واسعاً للتضحية، وللجهاد الصابر ، وللارتقاء بالنفس إلى حيث يجب أن

تدرك معالم الإنسانيّة الحقيقية ، ويفسح معظم الأحيان للفوز مجالاً رحباً فيما نسعى إليه . . لأن الوسيلة التي نسلكها لا يمكن أن تنفصل في حال من الأحوال عن الغاية ذاتها . . فعلى قدر ما تصفو هذه الوسيلة وتتطهر وتعدل ولا تحقد ولا تتنكر ، يكون النجاح في نهاية المطاف قد عُقِد لنا لواؤه . . فنحن الذين نصنع قدرنا ، من هذه الوجهة وفي هذا المقياس ، فلا تينع ثمار الوسيلة والأداة إلا بما تكون قد استحقت وكانت له مُعَدّة . . والغاية جزء من الوسيلة ذاتها وتتميم لها .

٥ً — وهذه الذهنية أو هذه الروحية هي ذهنية تحرّر وانفتاح ، وذلك لأنّها تعمد إلى التمحيص والتدقيق والتمييز ، وتنمي فينا هذه الصفة العقلية الأساسيّة التي لولاها لانصرف المرء إلى التفكير والعمل على هواه . . فلا تستأثرها الانطباعات والاعتقادات ، والعادات والأفكار ، ووجهات التصرّف التي تكون قد وصلت إلينا وأحاطتنا ودخلت فينا بحكم التراث الذي يلفنّا ونعيشه ، كما أنّها لا تتأثّر بزخرف الجديد المقبل علينا في حاضرنا ، والذي يطغى على جوهر الحضارة وكل حضارة . . وهي بذلك لا تتخلّى عن التقليد القديم الشرقي العربي في بلادنا ، المشبع بروح الأجيال واختباراتها ، والمفعم بعنصر غالب من الأخلاق ومبادىء الدين والشرف والاحتشام وأدب المعاملة وارتباط العائلة وانسجامها ووحدتها ، وحلاوة

العيش الساذج البسيط ، لتتعلّق بالتقليد الحضاري الحديث وعاداته أو انعدام كل عادة فيه ، إلاّ على قدر ما تستسيغ النفس الطيّبة ، وما يميّزه الحدس السليم ، وما تدركه وترتضيه بصيرة العقل في اعتداله واتزانه وموازنته للأمور .. فالإنسان لم يوجد ليكون غرضاً وعبداً للحضارة ، إنّما وجدت الحضارة ونمت وتطوّرت لأجله ، أو على الأقل هكذا يجب أن تكون .. وفي سياق هذه المعالجة ، فإن هذه الذهنية تتحسّس ، بشعور مرهف عميق ، أنّ ما أنشأته ، في تراكمها وتوضّحها خمسة آلاف سنة من الحضارة ومن التاريخ ، لا يجوز لنا أن نسعى إلى تقويضه وإلى هدمه بهذه اللامبالاة ، وبهذا الجهل ، وبهذا التسرع ؛ كمن يُدخل الفيل إلى صحن الدار ، حيث جُمع من الأواني والأدوات الخزفيّة والزجاجيّة أبهاها وأحلاها ، فيمعن فيها الحيوان الكبير لعباً وتكسيراً ، وهو يجهل قيمتها والعمل والفن الألفي الذي تكدّس فيها .. وهذه الذهنيّة تدرك أن التقدّم لا يعني هدم البيت الذي عمرته أيدي أجيال متتالية من البشر ، عبر مئات السنين من الجهد والتعب والتفكير والشعور والتبصّر ، لأجل بناء بيت جديد في سرعة قيام الأعمدة الخرسانيّة وانبثاقها من الأرض ، بل التقدّم يعني أن تفيد من إرث الأجيال واختبار البشريّة التي سبقتنا ، وذلك في جميع حقول التفكير والاعتقاد والشعور ، والفن والمعاملة وعادات

العيش، وتشذّب وتصلح وتقوّم، لتعود فتكمل البناء وتزيد في قيمته وصلاحه وروعته ..

ومن البديهي أن من يمارس ذهنيّة التحرّر والتمييز هذه، لا يعود يقع في مهاوي العصبيّة وفي منزلق التعصّب والأثرة، لأن الذي يطلب الحقيقة في كل شيء، ويسعى إليها ليكتشفها ويستوعبها ويضيف أجزاءها إلى خزائن ذاته، لا يعود يستطيع أن يتعصّب لمعتقد أو لحزب أو لقوميّة أو لبلد أو لتقليد أو لجماعة .. وحيث أنّه يكون قد روّض بصيرته وشعوره على ملكة التمييز الصواب، وعلى التمحيص والتدقيق المحكم، في الجوهريّ والعارض، فإنّه يتحرر في الحين ذاته من ذهنيّة التمييز والتفريق والتكفير الأخرى، الدارجة على عادة بعض أبناء الأديان والجماعات والفئات الاجتماعيّة والأمم والأحزاب ..

والذي يطلب الحقيقة وينشد العدل والأخوّة والتضامن، يقدّر كل قضيّة وفق ما تستحقّه، ويعلم أن قاعدة النسبيّة هي قائمة في الأنظمة وفي علاقات البشر ومواجهاتهم للعيش، كما هي قائمة في سنن المادة وفي كل شيء، تستقطبها وتشدّها وتفعل فيها قيم الحق والعدالة والأخوّة والتضامن، التي نكون قد آمنّا بها، وتسلّطت علينا، فجعلت المجتمع، في كل مؤسساته، يندرج في إطار مفاهيمها وإطلاقها ..

وفي هذه المواجهة، يبرز فارق آخر بين تقدميّتنا

AUB LIBRARIES

واشتراكيّتنا والاشتراكيّة الماركسيّة . فالماركسيّة تعتمد على صراع الطبقات وتنافُر الفئات الاجتماعيّة، كما ظهر في مرحلة قريبة منّا من التاريخ، وما تسمّيه بمصلحة الطبقة العاملة التي هي طبعاً ما تفترضه القيادة الماركسيّة من حلول ونظريّات، وذلك دونما أيّ اعتبار لقيم عدل وأُخوّة وتضامن وحريّة ومساواة، أو الانتساب إلى هذه القيم . .

أمّا الذهنيّة التقدميّة الاشتراكيّة، فإنّها قد ربطت نفسها وصراعها ونهجها بمبادىء العدل والأخوّة والتضامن والحقيقة كما تبدو لنا . هذه « العدالة المستوحاة، على حد تعبير الميثاق، من الإخاء والتعاون والتضامن »، لا من المفاهيم الفرديّة للحياة .

وأخيراً فإن روحيّة التحرر والتمييز السليم تعتمد العلم الحقيقي ومستنتجاته، لا العلم السطحي الظاهر الذي تسيطر على تطبيقاته، في حقل الإنتاج العملي، روح الربح والتجارة . . واستكشافاتُ العلم الحقيقيّة ونظريّاته توصي، بشكل مستمر وملحّ، بالعودة بالإنسان إلى جوّه الطبيعي الذي يتلاءم مع أغشيته وأعصابه، وحاجاته الصحيحة لا المصطنعة . وإلى ذلك أشار ميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي عندما أوضح : إن أكثر رجال العلم قد نوّهوا « بالخطر الناجم، حيال البشريّة وحيال الحضارة، من انحطاط السلالات البشريّة، مثل نتيجة محتومة لأوضاع المدنيّة التقنية القائمة، ولإهمال المؤسسات العامّة هذه

الناحية الجوهريّة من حياتنا » (ص ١٨) .

« إن إحدى مشاكل المدنيّة والأنظمة القائمة على إطلاقها ، (الكليّة الشيوعيّة منها والديموقراطيّة الغربيّة) ، هي أنّها لم توفّق إلى حل معضلة الأضرار الماديّة والنفسيّة المتزايدة ، والناجمة في حياة الإنسان من جراء انتشار الآلة والصناعة الحديثة ، والتوفيق بين تطوّر الآلة وبين حالة أغشية الإنسان ونزعاته الطبيعيّة والنفسيّة » .

« إن الحزب يعتبر ، كقضيّة أساسيّة ، تنقية جوّ العمل والمتجر والمحترف ، وإزالة الصخب والضجيج والجلبة من المدينة ، وإذا لم يكن من بدّ ، هدم المدن وإعادة تخطيطها وبنائها بشكل يتلاءم أكثر فأكثر مع متطلّبات الفرد وراحته ، بحيث تتوفّر له المتعة النفسيّة والجسديّة في أجواء فسيحة من الحدائق والغابات . .

« ويجدر تنقية جو الصحافة والملاهي والاحتفالات والاجتماعات الشعبية ، كي يتوفّر للفرد الاطلاع على أكبر قسم من الفنون والعلوم . . »

« ويجدر بصورة خاصّة التنبّه إلى أهميّة ارتباط الإنسان بالأرض ، إذ أن كثيراً من المصاعب والمشاكل القائمة هنا وفي العالم ناتج عن تجربة قاسية في هذا الحقل ، أي عن إهمال علاقة الإنسان بالأرض . . » (ص ٢٠ — ٢٢) .

AUB LIBRARIES

هذا وجه من وجوه الثورة التي يعتمد الحزب القيام بها ، إلى جانب الثورة في تسلّم ملكيّة وسائل الإنتاج ، والإشراف عليها ، وتحقيق نظام التعاون الاجتماعي والتصميم الشامل والتنمية الكاملة .

٦ً – وفي سياق هذه النظرة الأخيرة ، فإن الروحيّة الاشتراكية التقدميّة تعتبر منذ الساعة أن الملكيّة هي لصالح الجماعة ، وخاصة في طور هذا التجمّع البشري الخطير الذي نعيشه ، وإنّ علينا أن نعتبر أنفسنا منذ الساعة قيّمين على ما نملك وما ننتج ، وأنّنا نقوم بذلك لصالح الغير ، لصالح المجتمع ، فتنتفي من نفوسنا روح الأثرة والتحكّم ، والجشع المادي ، والطموح للإثراء وللمزيد من الرفاهية ، فنقنع بما نحن بحاجة إليه وبالضروري اللازم لحياتنا وحياة عائلاتنا . . . والقناعة هي من صميم الصفات الاشتراكيّة ، يقابلها الجشع الرأسمالي المعروف ، على أن تتجلّى هذه القناعة بشكل خاص في المأكل والمشرب واللباس والتنقّل وعدم الانصراف إلى ملاهي الحياة ، وأن نعتاد الطبيعيّ من كل شيء ، على أن ندّخر ما أمكن لتهذيب أولادنا وتعليمهم ، فلا تعود تجذبنا سلع هذه المدنيّة التجاريّة بسحرها المشؤوم .

هذه خواطر نامية وسريعة جاءتنا في محضر معالجتنا هذا الموضوع ، نعرضها كاتجاهات كبرى لهذا النهج في التفكير وفي

الشعور وفي التصرّف الذي يصطبغ بالروحيّة الاشتراكيّة .

إنّما نقصد هنا بالروحيّة وجهة التطلّع والتفكير والشعور والرّد التي يجب أن نتخذها بالنسبة للعالم وللتاريخ وللحضارة وللأحداث . . وإنّما يعيش كلٌّ منّا ويتفاعل مع بيئته بهذا التراث الذي يكون قد نما في نفسه ، وحدّد اتجاهاتها ومفاهيمها ، وخطّط في الباطن المجهول ردود فعلها . . والإنسان وليد ما تجمّع وتراكم في أغشيته وخلايا أعصابه ودماغه ، وما استبطنته محاور غرائزه ونزعاته ، من هذه الأحقاب المتعاقبة والمؤلفة من عشرات الألوف وملايين السنين ، التي دفع فيها التطوُّر الحياة من المادة الحيّة البرتوبلاسميّة الأولى ، في البحار الدافئة التي كانت تضيئها وتسقيها الأشعة اللّيلكيّة وما بعد اللّيلكيّة ، وتقذفها باستمرار الأشعة الكونيّة والهادمة والبانية على الدوام ، وتحضنها بوتيرتها الانفجارات المترادفة للمواد الذريّة المشعّة الأولى ، إلى أن برز الإنسان الأوّل على وجه البسيطة .

وعلينا أن لا ننسى ذلك على الإطلاق : إنّنا وحدة لا تتجزّأ من صميم هذه الأرض ، التي ارتفعت فوقها قشرة الحياة في أوج اعتلاء تبلور الطاقة الكونيّة وترفّعها وتوقها إلى وعي وجودها ، والاستشعار بدفء السعادة وطراوة الحريّة . . فنحن لا نزال مجموعة من الخلايا لا أكثر ، قد سجّل فيها التطور قدرَ حياتنا ، وأيّام وساعات عمرنا ، وجرزة نزعاتنا واندفاعاتنا

AUB LIBRARIES

وغرائزنا وعواطفنا ، ودقّات قلبنا ، وحركة تقلّصات أوردتنا وشرايينا وتمدّدها الدائبة ، وأعجوبة عمل أجهزة جسدنا وعقلنا التي لا يغفو للقائم عليها والمدبّر لشؤونها جفن ، ولا يتحوّل ولا يسهو ولا ينسى في الظاهر ولا في الباطن ، في الصحو وفي النوم وفي الحلم على السواء ، وما تتضمّنه من عمليات التغذية وتحويل الهواء في رئتينا والمواد المأكولة في أمعائنا إلى خلايا جديدة وأنسجة جديدة وطاقة حرارة وحياة جديدة ، وعمل سواها من أجهزة الامتصاص الداخلي ، واختزان المواد وإحراقها ، ثم التخلّص منها ، وإفراز مئات الملايين من الخلايا التي تموت في كل برهة ، وفي كل يوم وساعة ، ولا نستطيع العيش والاستمرار به إلاّ بفضل هذا الموت الدائم لجزء منّا . لقسم من جسدنا ، حتّى إن كامل جسدنا بما فيه من أنسجة وعظام يتجدّد في كل مدى سبع سنوات ، كأنّه ولد لنا جسد جديد ، وهكذا على الدوام . .

ومن هذا المنظار ، تبرز لنا إحدى الحقائق البيولوجيّة أي الحياتيّة الأساسيّة : إن الحياة تولد على الدوام من الموت ذاته . . ولا يوجد في هذا المستوى تناقض بين الموت والحياة ، إنّما كل شيء يتحوّل إلى عكسه ، كأنّما اليد الخفيّة ، أو فكرة تصميم الطاقة المكوّنة ، تأخذه لتعجنه من جديد ، وتنظمه في عقد الوجود الحي . .

هذا علاوة على ما نكتسبه على الدوام من محيط الشمس والهواء والماء وعوامل الطبيعة حولنا، ومن تأثير الأجرام الفلكيّة وعبور تياراتها وأمواج أشعتّها الظاهرة وغير المرئيّة على السواء من خلال خلايا جسدنا، وضغطها علينا وجذبها لدمائنا وللسوائل الزاخرة فينا، وسواها مما نكتسبه من محيط البيئة الاجتماعيّة والتاريخ، حتى يبدو كأن إنساناً آخر قد طُعّم على الإنسان الآخر فينا.. فنحن في الحقيقة جزء لا يتجزّأ من الكون بأسره.

هذا التحسّس، بما نحن عليه واقعاً وحقيقة من رباط وعلاقات وانتساب، يسكب نوراً جديداً على حياتنا، ويخلق روحاً جديداً متفهّماً وشاملاً، هو ذاته روح الجيل المقبل علينا، إذا أذنت لنا ألاعيب الحرب الذريّة وملاهي التفجيرات وإطلاق الصواريخ وتناقضات القوميّات الضيقة أن تستمرّ البشريّة في العيش، ولا تحذفها وتزيلها إلى أمد طويل، عن سطح هذه المسكونة، موجة تدمير وإبادة..

AUB LIBRARIES

دور الأحزاب والهيئات الاجتماعية
في مستقبل الديموقراطية

لم تعد الديموقراطية مفهوماً ينحصر ويتحدد في إطار الأوطان ، بل ، بفضل تطور النفسية البشرية الشاملة واستنباطها للأنظمة الدولية ونمو الحق الدولي ، ونزعة المساواة والانتظام العام ، أضحت الديموقراطية مبدأ شاملا للدول فيما بينها وللأفراد فيما يختص بهم وبعلاقاتهم بعضهم ببعض .

ودور الأحزاب في الداخل والخارج رئيسي وحاسم في تحقيق مفاهيم هذه الديموقراطية .

إنّنا سنعالج الموضوع ، من ناحيته العامّة الشاملة المتقدمة ، كما نراه في المستقبل القريب ، لأنّه بالحقيقة لا يمكن الفصل واقعيّاً ونظريّاً بين لبنان والعالم المحيط ، بين لبنان والعالم الأوسع ، وقد أضحينا ، خاصة بعد انقضاء الحرب العالميّة الثانية ، نعيش في دنيا معنويّة وفعليّة تتشابك وتتداخل فيها العلاقات الماديّة والفكريّة بين الشعوب والمجتمعات والأفراد ، وتتكاثف الاتصالات الجرميّة والوُصْلات المعنويّة بين

AUB LIBRARIES

العواطف وبين العقول ، فيما تتقارب وتترابط وتتلاحم وتتلاقى البشريّة في جميع أقطارها ، وعَبْرَ حدود أوطانها الضيّقة ، بحكم ازدياد عدد السكّان في سرعة تصاعديّة كبيرة تغطّي وتشمل بانتشارها رقاع الأرض المكوّرة المحدودة مساحة ومدًى . وقليل منّا يدرك أن عدد سكان لبنان ذاته أصبح يربي على المليونين وثلثمائة ألف نسمة تقريباً ، ويزيد بنسبة ستّين ألف نسمة سنويّاً ، أي أصبحت الكثافة السكنيّة مائتين وثلاثين في الكيلومتر المربّع ؛ بينما يقفز عدد المواطنين في آسيا وإفريقيا والاتحاد السوفياتي وأميركا اللاتينيّة بشكل خاصّ بسرعة متعاظمة تمثّل انفجاراً بشريّاً حقيقيّاً مريعاً على حد تعبير Julian Huxley وسواه من كبار البيولوجيين ، سيرفع سنة ١٩٩٠ على الأكثر ، أي بعد مرور خمسٍ وعشرين سنة فقط ، مجموع البشر إلى ستة مليارات نسمة ؛ ومن المرتقب أن يكون إنتاج المحاصيل والمواد الزراعية لا يزال متأخّراً جدّاً ، ومتخلّفاً عن اللحاق بركب السكان.

وإذا ما نظرنا من وجهة العالم الأنتروبولوجي والاجتماعي للمرحلة البشريّة والحضاريّة التي نجتازها ، وتطلّعنا في الحين ذاته إلى انعكاسات ما نلاحظه ونرقبه ونتبيّنه على أوضاع الجماعة وعلى الحُكم السياسي والأنظمة الديموقراطيّة في الحقل الدولي بشكل خاص ، نرى :

AUB LIBRARIES

١ – أنّه بفضل التكاثف الاقتصادي والسياسي والفكري والثقافي والمعنوي ، وتداخل المشاكل الاقتصاديّة والتّقنيّة والسياسيّة الكبرى التي يصعب حلّها إلاّ في نطاق إقليميّ واسع أو نطاق قاريّ أو عالمي ، فإنّ المجتمعات البشريّة تنزِع في كل مكان إلى الالتقاء والتلاقي والوحدة . ورغم أنّنا لا نزال ، في لبنان ، نعيش في وهم الانعزال وجهالة وعصبيّة الانفراد ، الناجمة عمّا تبقّى في زوايا النفسيّة العامّة من رواسب متسللة إلينا واتجاهات تاريخيّة خاطئة تحجب عن البصيرة رؤية تطور الأوضاع كما هي ، فإنّه يتوجب علينا الإقرار بأن المرحلة التي نواجهها هي مرحلة اتحاد وتوحيد كونيين على مستويات ثلاثة متتالية : على مستوى داخلي ، وعلى مستوى إقليمي عربي ، وعلى مستوى دولي عالمي . وهذا يعني أن المفهوم القومي الغابر للسيادة الوطنيّة المطلقة ينزِع بطبيعته ، وفي مدى تفاعله ، إلى التضاؤل والزوال ، وأنّ مفهوم السيادة القومية النسبيّة ، أي مبدأ اللامركزيّة السياسيّة ، هو الذي سينتصر ويستقر في أذهان الرأي العام ، ويستقطبُ دون سواه إيمان الجماعة . . وهكذا يكون المفهوم الديموقراطي قد تمكّن أيضاً من السيطرة والانتشار في الحقل الإقليمي الواسع وفي الحقل الدولي . .

هذه النظرة المنفتحة الواقعيّة لتيّار التجمّع البشري ، وتحقّقاته الحتميّة في المجال الإقليمي والدولي ، أعلنها الحزب

التقدمي الاشتراكي منذ تأسيسه سنة ١٩٤٨ في ميثاقه ، وأوضح المفهوم المتبلور المتطوّر للقوميّة ، فشدّد « على ضرورة دخول الجماعة ، كعضو فعّال ، في حركة تطوّر الإنسانيّة النازعة إلى التضامن البشري والحضارة الكاملة » . .

وأشار إلى أنّه « على هذه النظرة الموحّدة للجماعات البشريّة ، والرامية إلى انسجام تعاونها ومصيرها ، يتبنّى الحزب نظريّة في القوميّة تتنكّر لكلّ فكرة تقوم على القوّة واستثارة كبرياء الفرد والجماعة ، لبناء أمّة نزعتها الانكماش على ذاتها والعصبيّة المفرّقة الحقود ، والاتساع على حساب غيرها من الجماعات . .

« فالقوميّة التي يعنيها الحزب يجب أن تقوم على أساس المحبّة والخير الشامل ، والتسابق إلى المساهمة في البنيان العلمي والحضاري . ومن هنا رأى الحزب أن يتقبّل الفرد ، وأن تنفتح الجماعة ، لكلّ تيّار فكري في العالم ولكل تراث ولكل مدنيّة ، باعتبار أنّها مظهرٌ من مظاهر تحقّق الشخصيّة البشريّة المتنوّعة المتناهية ، والنازعة في صميمها ، بإمعان ، إلى التفاهم الشامل الكامل » . ويؤكد الحزب بشكل خاص ضرورة إحياء وتنمية الحضارات الشرقيّة التي تحوي في تراثها المسحة الإنسانيّة والمعنويّة العميقة الغالبة ، والتي تستطيع وحدها أن تقيّم وتحييَ مفهوم الجماعة والقوميّة وتعطي روحاً لمدنيّة الآلة ، ويأتي إحياء وإنماء التراث الحضاري العربي في طليعة هذه

المحاولة الخيّرة .

ولا بدّ من التصريح بأنّ مثل هذه المواجهة للتطور الجماعي، ولنزعة الوحدة وللجماعة وللقوميّة وللحضارة، لا تتمّ على كفايتها وصحّة مثالها إلاّ في نطاق الاشتراكية وتحقّقها في الدولة .

وقد تعرّف التاريخ البشري في بعض حِقَبه إلى مثل هذه الروحيّة الاجتماعيّة. نذكر، على سبيل المثل لا الحصر، النظرة المعروفة بالشُّمول الكوني العمرني L'Universalisme Amarnien التي تحقّقت في مجالات طويلة من عهود الفرعونيّة القديمة وخاصّة في عهد الملك أمنوفيس الرابع المعروف بأخناتون، وكذلك حُكم بعض كبار أباطرة الصين القدماء الملقّبين بالأباطرة الأسطوريين ونظرتهم الشاملة للكون وللأشياء ولعلاقاتها بعضها ببعض، ومثال الأمبراطور الهندوكي جناكا والأمبراطور البوذي أشوكا، وأخيراً لا آخراً الأمبراطور الإسلامي الكبير أكبر .

وفي لبنان، أكثر من أي بلد آخر، نحن بحاجة إلى نشر وتعميم هذا المفهوم الديموقراطي لتيّار التجمّع البشري الحتمي الفاعل في مجال القوميّات والشعوب وتآزرها وتعاونها والتقائها .

ومن تطلّع إلى الوراء في مثل ذلك، وإلى الرواسب المعنويّة التي تحجب وتُخفي حقيقة الواقع والمصير، يكون

كامرأة لوط في التوراة ، لم يُفِدْها التلفّت إلاّ أنّها تحوّلت إلى تمثال من الجماد الملح الأجاج ، رمز انعزاليّة النفس وضيق شرفتها ، وانحصارها في رغبتها السابقة أو الحاضرة .

تتذكّرون أو يذكر بعضكم تلك الأيّام الحالكة المفجعة ، يوم أُلقي بالشعلة الذرّيّة الهائلة الأولى في نهاية الحرب العظمى على مدن نغزاكي وهيروشيما ، ذاك العمل البربري الذي ارتكبه ، للتجربة والاختبار ودعم سلطتها السياسيّة في المفاوضة ، قادة من الولايات المتّحدة آنذاك ! ولا نزال نُصْغي إلى بيان التحذير والإنذار الذي وجهه علماء العالم المجتمعون حينئذٍ وعلى رأسهم اينشتين ، يعلنون منه سخطهم واستنكارهم ، ويشيرون إلى الخطر الحاسم الحتمي على مصير الإنسانيّة ، ويطلبون من رئيس الولايات المتحدة ورئيس الحكومة السوفياتيّة وكبار الحلفاء وقادة العالم أن يجتمعوا فوراً ، ليقرّروا مبدأ ونظام وحدة اتحاديّة فدراليّة تشمل العالم بأسره ، يكون أسّها وركيزتها تعميمَ موارد الكون بشكل منهجي على جميع الشعوب ، والتنمية الشاملة المصححة لهذه الموارد بحيث يتوارى شبح الفقر والجوع والتخلّف الماثل في العالم ، ويتمّ تحظير السلاح وخاصّة السلاح الذرّي الرهيب الجديد ، وتفكّك القنابل المصطنعة وتطمر في أعماق الأرض أو في أغوار البحار .

وكانت تلك الصرخة تتقدّم طبعاً الذهنيّة السياسيّة المسيطرة

المتأخّرة آنذاك . والتي كانت لا تزال عالقة في شباك تخيّلات الماضي الاجتماعيّة وتأثير الاستعمار وغلاف القوميّة المتطرّفة؛

ولو فعل قادة الشعوب ذلك آنئذٍ ، لكان زال خطر الحروب من العالم . ومن أسباب الحروب الرئيسيّة : الجوع والبطر أي المرح على لغة القرآن : « ولا تمشِ في الأرض مرَحاً » . وكلاهما اليوم حاصل .

أمّا الاتحادات الإقليميّة ، أيّاً كان نوعها ، والناجمة عن قوّة بعض الدول الاقتصاديّة والعسكريّة المتعاظمة ، على شاكلة الوحدة الأوروبيّة أو الأميركيّة أو على شاكلة الوحدة العربيّة المرتقبة . فإنّها تسهم في حلّ المعضلات المشتركة . وتمهّد بروحيّتها ومراسها وأنظمتها لقيام المؤسّسة الاتحاديّة أو شبه الاتحاديّة الدوليّة العالميّة الكبرى .

إنَّ استيعاب ونشر هذا التفكير التجمّعي الاتحادي هو في رأس مهمّة الأحزاب في الجيل الذي نعيشه .

هذا هو دور الأحزاب في النطاق الدولي . وفيما يختصّ بما أسميناه بتأسيس وتنمية أنظمة الديموقراطيّة الدوليّة . وتأكيد سلطان الحق والقانون والمساواة .

أمّا دور الأحزاب في بعث وتكوين الديموقراطيّة في داخل المجتمع . فإنّه يُعتبر أساسيّاً . لا تستوي بدونه أيّة ديموقراطيّة . ولا يصحّ أيّ نظام شوري للحُكم . وذلك

AUB LIBRARIES

لأسباب أصبحنا اليوم ندركها ، بعد مرور الزمن واختبار أحوال السياسة ، منذ أن ألغت الثورة الفرنسيّة الملكيّة واعتمدت نظام الانتخاب ، وتبعتها في ذلك جميع دول أوروبا — كانت بريطانيا وبعض دول أوروبا الشماليّة قد سبقت في حقل تقرير مبدإ الانتخاب الشعبي — توهّم الناس — وما أسهل ترسّخ الوهم والخداع في هذا المجال — أن الشّعب سيحسن الاختيار وفق قاعدة حصول المرشح على الأكثريّة ، ويكون اختيارهم أفضل ممّا كانت تجري عليه قاعدة اختيار الابن الأكبر لتولّي الملك .

ولكن ما لبث النّاس أن تنبّهوا إلى أن الشعب ، وإن كان مبدئيّاً يُعدّ مصدرَ السلطة في الأنظمة الديموقراطيّة الحديثة ، وبالتالي يُفترض أن يتضمّن جميع الطاقات والقدرات ومكنة الفطنة والتمييز والشعور بالخير العام وسواها مِمّا حمّلته الديموقراطيّة لهذا المفهوم النظري إلى حدّ بعيد الذي هو الشعب ، كما كان الحقّ الإلهي والنعمة الإلهيّة يشكّلان افتراضاً مناقضاً في الاستقطاب ، ولكن مماثلاً تماماً لهذه النظرة الأسطوريّة الملتبسة المنطوية على لون من التكريس الخاطىء والرمزيّة الخياليّة ، تنبهوا إلى أن الشعب ، إن لم يتوفّر له التوجيه السليم بواسطة أجهزة الأحزاب والهيئات ورأي الصحافة الصادق ، فإنّه معظمَ الأحيان لا يعرف أن يختار .

ولكنَّ الأمرَ أكثرُ تعقيداً وتنوّعاً ممّا أشرنا إليه .. فقد رأينا بلداناً عديدة ، منها ألمانيا جمهوريّة ڤيمار والنمسا قبيل شوشنيغ وفرنسا وإيطاليا واليونان ومصر ما قبل الثورة المصريّة ، وسوريا قبل زوال النظام البرلماني فيها ، وسواها من بلدان العالم ، تتعثّر في مسلك الديموقراطيّة ، ولا تنجح الحياة السياسيّة فيها بالرغم من وجود أحزاب كبرى منظمة على الطريقة البرجوازيّة التكتليّة أو على طريقة الفروع أو الخلايا اليساريّة . وسبب ذلك أنَّ هذه الأحزاب لم تمثّل دورها الطبيعي البيولوجي داخل المجتمع . وما هو هذا الدور الذي ربطناه بتيار الحياة ونهجها : هو اختيار الأقوى والأفضل ، أي الأكثر كفاءة للقيادة الاجتماعيّة والسياسيّة ، لكي تقدّمَه فيما بعد للشعب الناخب وتطلب منه تأييد اختياره . بل اكتفت هذه الأحزاب بالتّكتّلات الداخليّة السَّطحيّة العفويّة والتجمّعات الدعائيّة التي لا يُقصد منها تعريف الرأي العام بالقادة الحقيقيين – والقائد الصحيح يفرِض نفسه ولا يستجدي توجّه الناس إليه ، رغم سعيه الدائب لإقناعهم بنهجه وبمبادئه وأفكاره – بل كانت هذه الأحزاب تتقدّم بالمرشح لكسب الأصوات الانتخابيّة والفوز بالأكثريّة في كلّ حال ، أيّة كانت الوسائل المستخدمة ، وأيّاً كان هو الشخص ، فانحدرت الأحزاب والشخصيّات السياسيّة إلى مستوى حلقة المصالح

AUB LIBRARIES

الجهنميّة المغلقة ، حلقة الزبائن والزبانية ، وارتباط المرشح بها . فلم يعد المرشّح أو القائد السياسي حرّاً في مبادئه وأفكاره، وحتّى في وقته ومسلكه ونهجه ، — وكيف تصحّ القيادة إلاّ في حريّة التمييز والمبادرة وجرأة الإعلان وشجاعة العدل والحق في العمل — وفقد جمهور الناخبين أيضاً حرّيتهم واستقلالهم المفروض ، وأصبحوا عبيداً للمفهوم المَصْلحي في السياسة ، وفَسَدت الأحزاب من جرّاء كلّ ذلك ، وانعكس فسادها على الدولة وعلى المجتمع : إذا كان الملح فاسداً فبماذا يُمَلَّح ؟

ويبلغ الانحراف في هذا المجال أقصاه ، لدى بعض الفئات الشعبيّة ، التي لا تلبث أن تتصوّر أنّ الإقدام على الاقتراع هو تفضّل منها ومنّة لمعروف مقبل يسدى إليها ، أو خدمة أو مصلحة يكافىء بها المرشّح الناخبَ على تجشّمه الإقدام على الذّهاب إلى أقلام الاقتراع ، ولا يدرك أن ذلك هو حقّ من حقوقه الرئيسيّة ، يمارسه المواطن بسلطة وسيادة وفطنة وجرأة وتمييز مبدئي . . فيضحي الاقتراع عقداً بين الناخب والمرشح ، ويفقد أيّ معنى من معاني الحقّ وتوجّه الإرادة . فإذا بكلّ نائب تقريباً وبكل مرشح له ذيل من الزبائن أو حاشية يمدّونه ويمدّهم — واحدة مقابل واحدة — يربطونه ويجرّونه إلى الوراء ، إلى مستوى مصالحهم الخاصة وأنانيّاتهم الصغيرة ،

ويجذبهم هو بدوره بقدرته على تقديم الخدمات، ويستعبدهم بما استعبدوا به أنفسهم من ارتباط برغباتهم ومصالحهم. ويبلغ الاستهتار بالمسؤوليّة العامّة ذروته، عندما ينجرف الناخب والمرشح على السواء – إذا كان المرشّح غنيّاً ومن أصحاب الملايين – إلى الدفع والقبض.

وحيث أنّ لهذه الفئات الشعبيّة، المرتشية في الحالتين، أهميّة في تكوين الأكثريّة – لأنّ الانتخابات قد تُربح أو تخسر بصوت واحد أو ببضع عشرات من الأصوات – فإنّ نتائج الاقتراع تأتي دائماً وأبداً ملتوية وغير صحيحة. ونسمّي، نحن أرباب العقائد السياسيّة، هذه الحلقة من مطالب الخدمات وإيفائها، حصّة الشيطان. والشيطان معظم الأحيان هو الرابح.

وهنالك حقائق ثلاث يجب إيضاحُها في معرض الاختيار الشعبي:

أوّلاً: إنّ مبدأ الاختيار الشعبي هو اصطلاح وعادة قانونيّة متّبَعة par convention، على غرار اصطلاح اختيار الابن البكر في تنظيم انتقال الملك من العاهل الراحل إلى ابنه، أي أنّ المقصودَ من نظام الحصول على الأكثريّة هو في النهاية منع الخلاف، وإيجاد قاعدة للفصل في أمر الاختيار. وقد يكون الناخب، الذي رجّح كفّة فلان على فلان، مبتلًى بالعته، أو مضلّلاً أو مرتشياً، أو محكوماً بجريمة سابقة شائنة مرّ عليها الزمن،

أو ضعيف العقل وبليد الفطنة ، فلا يستطيع حتى فهم برامج المرشّحين ، أو له ثأر شخصي على فلان لعدم تلبيته بخدمة أو بقرض مال أو بتدبير وظيفة .

فيجب إذن أن ننتزِع من أفكارنا فكرة التقديس والاعتبار التي تعوّدنا أن نوليها لمبدإ الاختيار الشعبي .

ثانياً : إن أكثر الشعب لا يعرف كيف يختار . وقد يبدو ذلك غريباً لأوّل وهلة ، ولكن هو الواقع المرير الماثل . لأنّ الشعب مفهوم تجريديّ مطلقٌ لمجموع من المواطنين، يتفاوتون في الذكاء والإرادة والشعور ، والتنبّه والقدرة الذاتيّة والطاقة المعنويّة . فالمساواة بينهم لا تتعدّى أن تكون مبدأ ينطبق على كونهم بشراً ، أي حيوانات عاقلة لا أكثر . فهم متساوون في جوهرهم الإنساني ومادّتهم الناسوتية الأولى التي أُبدعوا من طينتها ، ولكنهم متفاوتون فيما بينهم ، مختلفون متباينون كاختلاف وتباين الكواكب في السماوات ، أو كتباين واختلاف الحياة في تحقّقاتها الشاملة . فمنهم من لا يزال يرتبط بغريزته، ولمّا يرتفع بعدُ ويتخلّص من الحيوانيّة التي تشدّه إلى الوراء ، ومنهم من يندفع على غير بصيرة في هذا التفكير أو هذا الاتجاه ؛ وتتنوّعُ رغباتهم وتتلوّن أمزجتهم، وتتشعّب مواصفات ومرتكزات شخصيّاتهم ، إلى ما لا حدّ ولا حصر له . وإنّنا معظم الأحيان ننسى أو نتناسى أنّنا خاضعون لقاعدة

« مندل » للوراثة . وأننا أبناء هذه الحويصلات الوراثيّة التي تتضمّنها نُطْفَةُ الوالد وبويضة الأم ، وأنَّ كياننا الجسديّ والماديّ والفكريّ والمعنويّ مُنْطوٍ مُنْحَصِرٌ فيها ، كما ينحصر مارد الخيال في قمقم الساحر .

وهذه الحويصلات الوراثيّة تتجمّع ، وترتبط بعضها ببعض ، وتتداخل وتنصهر في ألف ألف لون وشكل وتأليف ، كاللاعب بورق اللعب عندما يخلطه بيديه ، أو كمؤلف الأنغام عندما تتلاقى في ذهن وإبداع الموسيقيين ألف تشكيلة وقطعة .

هذه الحقيقة البيولوجية الحياتية الرئيسيّة الأولى ، التي هي في أساس تكوّن الحياة وتشخّص تحقّقاتها في النبات والحيوان والإنسان ، نجهلها أو نتجاهلها أحياناً ، في انجذابنا لهذه المساواة الخُرافيّة البرّاقة الطوبويّة ، التي نتصورها منذ أن ضلّلتنا وجرفتنا بعض تعاليم الثورة الفرنسيّة ، التي ما زلنا نعيش على بعض مفاهيمها الخاطئة .

وكيف تكون الكائنات البشريّة متساوية ، وهي تتفاوت وتتنوّع إلى ما لا نهاية في رسوبها وتقلقلها أو في تخلّصها وتحررها من هذه الأدمة الحيوانيّة التي استنبطها التطور منها ، وهي لا تزال تتغلّف فيه ، في تفاوت وتدرج انطلاق العقل ، ونموّه وولادته من الغريزة ، إلى أن يشرف على عالم المثالات العقليّة

والروحيّة الصرف ، وهو عالم الإنسان الجوهري الحقيقي .

ثالثاً : الحقيقة الثالثة ، وقد تبدو أيضاً غريبة ، هي أنّ الناس يتوجّهون ، معظم الأحيان وفي الأحوال العاديّة ، في اختيارهم إلى متوسطي الكفاءة وأصحاب البلادة من الرجال Médiocres ، ولا يرغبون بالأقوياء الأكفاء الذين يتجاوزون متوسّط العامّة بكثير . وما من قائد عبقري شعبي استطاع ، في الأحوال والظروف العاديّة ، أن يتوصّل إلى الحكم بواسطة السُلّم الانتخابي أو المعراج البرلماني . .

ففي الأحوال العاديّة يتوجّه الناس إلى المتوسطين كفاءة ، ولا يختارون القائد القوي ، والرجل المقتدر ، إلاّ عندما تتأزّم الأوضاع ، فيؤتى به إذ ذاك لإنقاذ الأمّة . فالمبادىء السياسيّة والاجتماعيّة الكبرى تتطلّب وتفرض دائماً وأبداً النهج الثوري ، إذا لم تتوفّر ظروف العمل الثوري المباشر .

من جميع هذه الحقائق التي كان يجب أن تكون بديهيّة عفويّة لكل من راقب شؤون الجماعة ، لولا احتجاب بصيرتنا بالتعاليم والمفاهيم الخاطئة للون من الديموقراطيّة الغربيّة ، نخلص إلى التأكيد والتشديد بأنّ وظيفة الأحزاب الأولى المبدئيّة والرئيسيّة هي اكتشاف وإبراز القيادات السياسيّة والاجتماعيّة الصحيحة السليمة في جميع المستويات ، أي التي تتوفّر فيها بحكم انتقاء الحياة ذاتها ميزاتُ ومسؤوليّة القيادة .

AUB LIBRARIES

مهمّة الأحزاب والهيئات السياسيّة والاجتماعيّة هي في حقيقتها تتميمٌ لوظيفة الطبيعة والحياة البيولوجيّة في إبراز النخبة، في إبراز الأفضل والأقدر والأسلم. كما أنّه في المعارك الحربيّة، وفي ميادين الثورة، يتوجّه الأفراد بشكل طبيعي للأفضل والأقوى والأصلب بينهم والأقدرِ على إدارة العمليّات، كذلك يجب أن تكون مهمّة الأحزاب أيّام السلم.

بعد أن أشرفت الديموقراطيّة السياسيّة في مفهومها الفردي على التقلّص والزوال، بفضل نموّ الفكرة الاجتماعيّة والمفهوم الاجتماعي، التي لم تكن الثورات الكلّيّة الجماعيّة - ماركسيّة كانت أم نازيّة أو فاشستيّة - سوى مظهرٍ لهذه الفكرة الاجتماعيّة مبالغٍ فيه، فإن الوجهة البيولوجيّة للحياة ستتغلّب أكثر فأكثر في الأنظمة الديموقراطيّة الاجتماعيّة والاشتراكيّة، «بحيث يعلُو الإنسان وينخفضُ إلى مستوى ما تؤهّله له أغشيته وأعصابه وصفات ذهنه» على حدّ تعبير ألكسيس كاريل. وسيتحوّل بفعل ذلك مفهوم المساواة المطلقة إلى مساواة وظيفية، ويضحي الاجتماع البشري مجتمعاً حقيقيّاً عضوِيَّ التركيب، لا مجتمعاً حسابيّاً كما هي اليوم صفته الغالبة.

دور الأحزاب الحقيقي هو في اختيار النُّخبة وتنقيتها

وتربيتها وإظهارها. هو تتميم لدور الحياة ذاتها الزاخرة فينا منذ ملايين السنين، والكامنة فينا في طاقات وراثيّة متكدّسة متراكمة تراكم آلاف الأجيال.

وفي هذا المفترق من تاريخ منتصف الجيل العشرين، تتجلّى واضحةً ضرورةُ تطبيق بعض الشرائع البيولوجيّة على حياة الإنسان، وعلى سلامة الصحة، وعلى تنقية النسل وعلى تقنينه، دون أن نُغْرِق في كلّ ذلك فيما ذهبت إليه النازيّة من تطرّفات ومفاهيمَ عنصريّة، ونظريّات طوبويّة للتفوّق والعبقريّة. على أن قاعدة الوراثة Varnashrama هي شرعة أزليّة، على حدّ تعبير المهاتما غاندي، فلا يمكن أن تُهمل أو لا يؤبه بنتائجها، وإلاّ سادت العالم الفوضى والانحلال والتشتّت والخراب. وفي نظرته الموحّدة الكونيّة، التي حاول فيها الحزب التقدمي الاشتراكي ربط تطوّر العقل واستنباطِ مفاهيمه، وقيامِ الأنظمة الاجتماعيّة، بتطوّر الحياة ذاتها، وربط هذا التطوّر الحياتي بتطوّر طاقات المادّة والكون، في نظرة توحيديّة علميّة أخيرة للوجود، كان على الحزب أن يعلنَ في سياق هذا المعراج للأشياء، وصدورها بعضِها من بعض في علاقة النتيجة والمسبّب بالعلّة والسبب: «أن إحدى وظائف الدولة الأساسيّة أن تتدبّر ما به تحقُّق المحافظة على سلامة النسل، وازديادُ حيويّة العنصر البشري، وقوّتِه ونبوغِه المتنوع

المتناهي » . وإلاّ نتساءل كيف نستطيعُ أن نبنيَ شعباً من أحجار من الآجُرّ ضعيفة أو متفسخة لا تصلح للبنيان ؟

ومن وجهة أخرى إن العصر الإداري القادم علينا، والمنبثق من التكثف الاقتصادي والثقافي، يفرض علينا تطويراً أساسيّاً في مفهوم الديموقراطيّة نحو مفهوم وظيفي عضوي أكثر فأكثر.

ومن زاوية هذا البحث العاجل في دور الأحزاب في تكوين النخبة وإبرازها، وتعميم المبادىء الاجتماعيّة الاشتراكيّة السليمة ومفاهيم المجتمع العضوي والديموقراطيّة الاجتماعيّة، وكذلك في مجال الترشيح والانتخاب، تظهر لنا أهميّة دور الصحافة الذي لا ينفصل خطورةً عن دور الأحزاب.

فكيف يمكن للأحزاب أن تقوم بدورها في تطوير الديموقراطيّة القائمة، وفي تخطيط مستقبلها، إذا ظلت الصحافة خاضعة للتوجيه الفردي والانتهازي ولسيطرة الإعلان، وإذا ظل معظمُ أرباب الصحف ومحرّريها تعوزهم الثقافة العلميّة الإنسانيّة العميقة الشاملة ؟

هذه الخواطر، التي حاولنا حصرها وتحديدها وإيجازها ما أمكن، تتناول تكوين الأحزاب، وطريقة فعلها ودور نشاطها في المجتمع .

والحزب في اعتبارنا « هو وجهة نظر في الحياة على إطلاقها : سياسيّة واجتماعيّة وروحيّة .

«إنّ الأحزاب أجزاء وأعضاء ضروريّة في تطوّر حياة الشعوب، ولكن عليها أن تتنزّه، أي أن تتصوّف، بحيث تنصهر فيها الأفراد والجماعات على أساس فكرة اعتقاديّة واعية مجرّدة. فالأحزاب، من هذه الناحية، ينبغي أن تكون أشبهَ شيء بالهيئات والمؤسسات والجماعات العلميّة أو الروحيّة الكبرى.. ومن فكرة هذه المؤسسات، ونزعتها في التزكية لعمل ما، إنّها تستبعد كلّ غاية من ورائها، سوى التضحيةِ والنفعِ العامِّ، وخيرِ المجتمع والبشريّةِ عامّة.

«وفي هذا وحدَه الأساسُ الصالح لقيام حزب حقيقي، ليس يُستَصْنَعُ النّاس فيه للتسخير الخادع» (ميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي ص ٩).

كنت منذ مدّة أقرأ كتاباً عن حياة وتعاليم فيثاغورس له السلام، وهو حكيم من أكبر حكماء اليونان والشرق، والحكمة هي التحقّق في المعنى الروحي الصوفي الكامل للكلمة، ودهشت لانطباق معظم أفكاره وآرائه على المرحلة القادمة من حياة البشريّة. وممّا يوقف الانتباهَ طويلاً، في غفوة نشوة العقل وحلم المخيِّلَة، تلك المؤسسة الواقعيّة العجيبة التي أنشأها الحكيم الكبير، هذه الأكاديميّة بالمعنى القديم الشامل والتي كان يضاف إليها طبعاً التعليم الخلقي والروحي، ثمّ الكشف عن أسرار العرفان، ثمّ كانت تتوجها العلوم

الاجتماعيّة والسياسيّة .

نعم، وخاصة في العصر الذي نعيشه أصبحت السياسة علماً، وعلماً شاملاً ، ولم يعد يستطيع أن يمتهنها عفويّاً أحد .

إن قيادة المجتمعات الحديثة أضحت من الصعوبة والتعقيد والاختبار والتفهّم والتعلم، بحيث لا يتمكن كلّ أحد، ويجب أن لا يتمكن ، أن يمارسها دون أن تكون له ثقافة قياديّة كاملة وسليمة ، وأن يدخل البيوت من أبوابها . وإلاّ انحطّ مستوى التمثيل وضمر حجم عقل القادة المتهنين ، وضاع الناخب والمرشح والدولة والمجتمع في الفوضى وفي الديموقراطيّة الزائفة ، كما هو حاصل في بعض الدول البرلمانيّة وفي لبنان . .

ولا أجد لهذا الختام أفضل من هذه الرؤية البعيدة في القدم، والقريبة منّا جداً في المقبل من الأيّام، هذه الأكاديميّة والتعاليم الفيثاغوريّة، إن شئنا تجنّب حكم التقنوقراطيين ونظريّاتهم المدرسيّة الخطرة.

وإذا ما عدنا للبنان ، نرى أن الأحزاب السياسيّة، وخاصة اليساريّة منها، وفي الواقع لا يوجد سواها في مجال التأثير المباشر وغير المباشر والدعوة الصريحة الواعية ، فإنّ هذه الأحزاب استطاعت أن تكون منذ عهد الاستقلال أداة ضغط فكري ومعنوي هائل على المسؤولين ، ووسيلة لنشر الأفكار وتعميمها وجعل الرأي العام يطالب بتحقيقها .. فما من فكرة عولجت

AUB LIBRARIES

أو فازت على الصعيد الرسمي بالدرس والتطبيق ، إلاّ وكان لهذه الأحزاب اليساريّة، وخاصة للحزب التقدمي الاشتراكي، دورها ودوره وأثرها في ذلك ..

فمهمة الحكام في لبنان كانت ولا تزال تطبيق وتنفيذ ما تفكّر به هذه الأحزاب ، لسبب بسيط هو أن معظم المسؤولين الذين تتألف منهم الحكومات اللبنانيّة ليس لديهم أفكار .

واستطاعت الأحزاب، في مناسبات عدّة، أن تستقطب الشعب اللبناني بأسره لمطالبها ، وأن تتزعّم الإضرابات والتظاهرات والانقلابات الشعبيّة الواسعة . ولكنّها لم تستطع أن تعبّىء الشعب اللبناني في مناطقه كافة ، لثقل رواسب العادات والتقليد فيه ، ولسبب جوهري آخر : هو تخلّف معظم الفئات المثقّفة عن واجبها القومي والسّياسي والاجتماعي، وعيشُها على هامش الحياة اللبنانيّة ، وتكرّسها لكسب العيش فقط دون اعتمارِها بأي طموح. فلم تتكوّن الحلقة الدعائيّة الموجّهة الواصلة، المفقودة بين الفئات الشعبيّة ، أي الجماهير ، وبين القيادات المركزية للأحزاب .

عسى أن يجدَ إخوانُنا في هذا البحث الصغير دعوة مباشرة للعمل وللإقدام على تكوين القيادات الشعبيّة والاجتماعيّة ، وعلى ملء الفراغ الرئيسي في المجتمع . وقديماً قيل : إن قيادة الرجال - كما يتوجب أن يقادوا طبعاً - هي أشرف ما

يمارسه الإنسان من نشاط في هذا الوجود . وخدمة الآخرين هي الوسيلة العاديّة لممارسة الفضائل والمناقب ، ولتعرفنا إلى حقيقة حياتنا وكينونتنا، ولبناء شخصيتنا في جميع المستويات .

ولنتذكر دائماً أنّنا ، إذا عملنا لأجل المجتمع وترقيته وانتظامه وفق نظامه وسننه الطبيعيّة ، فإنما نكون نعمل كأداة يتحقّق تيار الحياة ، الشامل للوجود الكوني بأسره ، على يدها . والحياة ليست في النهاية وبالحقيقة إلاّ « طاقةً مترفّعةً » لطاقة هذا الذي نسمّيه خطأً مادّة ، لطاقة الوجود ، على حدّ تعبير أحد كبار البيولوجيين Chardin . وحتى من الوجهة الماديّة الجسديّة الصرفة ، فإنّ العنصرَ الخالد الوحيد في الإنسان ، أيّ إنسان ، هو هذه الخلايا الوراثيّة التي تنتقل دون أي تغيير ظاهر أو هلاك ، منذ ولادة هذه السلالة البشريّة التي جاءت في أعقاب أربع سلالات منقرضة . .

فلنعمل بهذه النظرة الواقعيّة الحقيقيّة ، التي تحدّد مقامنا في سُلّمِ نموّ وانطلاق هذه الدوحة الحياتيّة ، نَعِشْ ظافرين بأنفسنا ، مدركين لوحدة الكون الأساسيّة المتحقّقة في الأعمال والأشكال والأدوار من خلالنا ، فلا يعود يصدر عنّا نشاط أو تفكير أو شعور يؤذي حقيقة الحياة ونزعتها الأصيلة فينا ، ولا يؤخّر تحقّقها . وكفى بهذه الوجوديّة الإنسانيّة الحياتيّة الكونيّة غبطةً واعتزازاً وكرامةً ، لمن لا يبغي في الحياة إلاّ

AUB LIBRARIES

أن يعيشها عامرة بجميع الإمكانيات ، بامكانياتها الحقيقيّة الأصيلة . .

وتساءلوا معي : هل نبغي شيئاً في النهاية في تفكرنا ، في شعورنا، في توقنا وإرادتنا وفي عملنا، سوى هذه الوجوديّة الكاملة ؟ . . إنّما نعمل حقّاً لأجل أنفسنا وتتميمها وسعادتها، عندما نعمل ونفكر ونريد لأجل الآخرين .

ألقيت في نادي رأس بيروت الثقافي في ١٧ شباط ١٩٦٦

AUB LIBRARIES

أزمة الديموقراطية ونظام الحكم الجديد

عندما ننظر إلى خريطة للعالم معيّنة ، ونقابل بينها وبين سابقاتها منذ بضع سنوات أو أكثر ، نلحظ أن النظام الديموقراطي في مضمونه وشكله التقليدي المعروف ، كما ولّدته في أذهاننا مفاهيم الثورة الفرنسية ، آخذ في التقلّص باستمرار في كلّ مكان تقريباً . حتى إنّه ليبدو أنّ الحكمَ الشخصيّ أو السلطةَ الشخصيّةَ تتقوّى باستمرار ، وينتشر ويتعمّق جذريّاً محتواها ، أو كأنّ القائدَ في النهاية هو الأساس في الحكم والنفوذ الفعلي ، لا النظام . وهذه العلاقة الشخصيّة ، التي نعاكسها ونضادّها بالعلاقة الشرعيّة أو القانونيّة أو الدستوريّة ، تعود بنا بضعَ مئات من السنين إلى الوراء . أي إلى ما يقابل ويذكّر بسلطان الملوك والأباطرة ، أو إلى ما هو أقرب منّا من ذلك زمناً ، إلى رباط الانقياد والانجذاب والمحبّة الذي كان يربط الشعب بنابوليون وبالفوهرر أو بالأمين الأوّل ستالين ، ويرتبطون به ، هم بدورهم ، بشعوبهم في إطار من

AUB LIBRARIES

العلائق والمداخلة النفسيّة المشتركة كانت توحي إلى جوبلز كلمته الشهيرة في تحديد الديموقراطيّة :

« La Démocratie est autorité liée au peuple

« الديموقراطيّة نظام سلطة مرتبط بالشعب » .

وفي الواقع ، في نظام ديموقراطي ديناميّ حيّ ، منطلق الإمكانات ، منفتح على التوليد والاستنباط والعبقريّة ، فإنّ القائد يخلق الشعب ويطوّره باستمرار وفق سنن الإبداع وشرع التكوين والتطوّر الطبيعيّة الأزليّة ، التي يستوحيها ويتشخّصها من وفي رؤيته للمثالات المعنويّة المتجلّية في أعماق الذّات الإنسانيّة ، ويقابلها دائماً وأبداً بالواقع ؛ والشعب بدوره يكوّن القائد ، ويعكس عليه مفاهيمه الاجتماعيّة التقليديّة والمبتكرة المتجددة معاً ، ويمنحه بولائه ويشاركه استبصاره ورؤيته واستقراءه لعناصر التطوّر والارتقاء والصيرورة في المستقبل ، ويرتفع جماعيّاً بالتوجيه المثابر وبالتثقيف والتأمل والتفكّر والحماسة الخلاّقة إلى تحقيق مثالاته المعنويّة ، ثمّ يشحنُ القائدَ باستمرارٍ بطاقاته التعاونيّة المنبعثة من ينبوع من الأمل والإيمان والقدرة لا ينضُب ، في وهم تصوّره وإيحائه لوحدة الجماعة ولقوى الصيرورة والخلق والتضامن والعمل وكينونة الوجود والغبطة ، التي يستمدّها من حتميقة الذات الإنسانيّة اللامتناهية القدرة .

AUB LIBRARIES

هذا التكوين العضوي البيولوجي للمجتمع ، على مثال كائن حيّ معنويّ مرتبط الأجزاء ، متداخل الصلات ، مترادف الوُصلات ، متشابك العلائق والتأثيرات ، متكاثف في تركيبه ، ومستقطب لمحورٍ ونقطة دائرةٍ من البيكار على حد التعبير التوحيدي المعروف ، هي الرأس بالنسبة للجسد تتركّز فيه وتعود إليها منابع النشاطات ومصادر التصميم والتخطيط والتوجيه .

وفي كلّ مجتمع عبَر التاريخ ، كانت هذه الذهنيّة الاجتماعيّة وهذه المبادرة الموجّهة الصفةَ الملازمة والواقعَ الماثل لهذه المجتمعات . مهما اختلفت في ظاهر تركيبها وفي مدى انتشارها وشُمولها . إنّما تطوّرت هذه النفسيّة الاجتماعيّة من حيث الشمول أوّلاً ، وكانت تنحصر وتتحدّد فيما مضى في العائلة القبليّة الواسعة الأولى ، ثمّ انتقلت إلى القبيلة والعشيرة ، ثمّ إلى المدينة المجتمع La Cité ، ثمّ إلى المجتمع الديني القروسطي أو الوسيط ، ثم إلى المجتمع القومي الحديث ، ثمّ أخيراً إلى المجتمع الجماعي الاشتراكي . .

وتطوّرت هذه النفسيّة الاجتماعيّة ثانياً من حيث التكاثر البشري والتشابك والتعقد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي ، بحيث أضحى هذا التكثّفُ ، على حدّ تعبير تيلار دي شردان ، يشكّل ارتقاءَ نوعية جديدة في التكوين الاجتماعي

لا درجة من التعقيد فحسب .

وتطوّرت هذه النفسيّة ثالثاً في تحرّرها الدائب من الغريزة إلى الفكر ، ومن الاشتهاء إلى التصوّر ، ومن الإدراك الحسي إلى الإدراك المعنوي ، تماماً كما يتطوّر الإنسان في ارتقائه وترفّعه منذ ولادته .. وذلك يستدعي التصميم الشامل والتخطيط الكامل وجماعيّة العمل والمبادرة ، أي الاشتراكيّة في المعنى الصحيح ، أو الاجتماعيّة والجَماعيّة في المعنى الأساسي لكلمة Socialisme على لغة مؤسسي ومطلقي التفكير الاشتراكي الحديث ، أو Socialisation وهو فعل الصهر الاجتماعي والاستقطاب والتوحّد الاجتماعي على لغة العالم الأنتروبولوجي تيلار دي شردان والبيولوجي جوليان هكسلي وسواهما .

وهذا التحوّل والنموّ من الغريزة إلى الفكر في تطوّر النفسيّة الاجتماعيّة قد يفسّر لنا إلى حدّ بعيد ، في مقابلة وموازاة وتأثير نموّ العلم الحديث ، نزعة الناس الشاملة في الحاضر للانفلات والتحرّر من التقليد ومن المعتقدات السالفة القائمة ومنها الدينيّة ، وتفتيش الفكر وتنقيبه عن نظرة تفسيريّة موحدة جديدة للوجود ترتفع من معطيات العلم الأخيرة ذاتها أو تنسجم معها وتتعدّاها .

ولعلّ المرحلة التالية المقبلة من التطوّر ستكون ، على شيء من لغة اوروبندو جوز Aurobindo Ghose أو على لغة

AUB LIBRARIES

أبناء التوحيد في كلّ دين ، تطوّر الفكر إلى مرتبة العقل ومستوى انبثاقه ، وهي التي ستبعدنا عن جميع متاهات الإيديولجيّات والمعتقدات والتصوّرات السابقة، من ديموقراطيّة غربيّة برلمانيّةومن كليّة جماعيّة نازيّة أو فاشيّة أو ماركسيّة، وستعود بنا إلى السنن والمثالات الطبيعيّة الجوهريّة المنطلقة من مصادر إبداع التكوين مدى الأزل والأبد أو المشخّصة في هبوطها منها ؛ هذه المحاولة التي ستجمع حتماً بين الماديّة والروحيّة ، وهما في الأصل الذي يتعداهما كلتيهما ، في الازدواجيّة وبالحقيقة ، واحد ، فيصبح العقل سيّد الأمم .

قد يحصل ذلك إذا استقام سعينا ، وتجرّدت عن الأنانيّة نوايانا ومقاصدنا وأفكارُنا وعواطفنا وجهودنا ونشاطاتنا ؛ في جميع المستويات (المستوى الفردي ، والمستوى المهني ، والمستوى القومي والاجتماعي ، والمستوى العلمي والديني) .

وقد تكون الماركسيّة والاشتراكيّة الماثلة أقربَ إلى تحقيق هذا الهدف الأخير في تطوّر الجماعة من طور الفكر إلى طور العقل ـ بالرغم من ماديّتها الظاهرة ، بل بفعل هذه الماديّة الجدليّة ذاتها ـ من الأنظمة الديموقراطيّة والرأسماليّة الأخرى . لأنّ ما نزع إليه التطرّف ـ بطبيعة الاختبار الأوّل والمحاولة البشريّة ـ لا بدّ له أن يعتدل مع الزمن ، ويتّخذ الأهداف والنُّهُج الأقرب إلى سنن الطبيعة وشرع العقل الذي

هو الغاية الأخيرة والنَّهج الأوّليّ والأخير لتطوّر هذه الطبيعة من غلافها المادّي الأصلي ، الكامنة فيه طاقة الوعي والحياة ككمون النار في صوّانه . وهذا ما يراه تيلار دي شردان ذاته ، لأنّ اتجاه التجربات الاشتراكيّة الماركسيّة الكبرى هو الجماعيّة ، هو تحقيق هذه النفسيّة الجماعيّة في مرحلة تكوينها وظهورها السابق لمرحلة العقل .

قلنا قد يحصل هذا التحقّق التفاؤلي في اكتمال دورة مصير التطور والتاريخ ، ويرتفع الإنسان من مرتبة الفكر إلى مرتبة العقل ، بعد أن اعتلى من مرتبة الغريزة إلى مرتبة الفكر . . وقد يحصل ذلك بعد محن واختبارات مفجعة ، ليست أقلّها الحربُ المحرقة الذرّيّة التي يهيّئون لها العدّة والسلاح ، وهي النتيجة الطبيعية لانقسام البشريّة إلى مُسْتَثْمِرٍ ومُسْتَثْمَرٍ ، وقطعانٍ من المتخلفين والجياعِ بنسبة النصف إلى الثلثين من مجموع سكان الأرض ، ومن مجتمعات متخمة مترفة ، ونظراً لازدياد عدد البشر بشكل تصاعدي مريع ، ولأنّ الفكر هو الذي لا يزال يتحكّم بحياة الناس وصيرورتهم وعملهم وإيمانهم ، لا العقل .

وقد لا يحدث أبداً ما نتمنّاه ونرجوه ونتخيّله من خلال التفاؤل العقلي والمنطقي بمصير المجتمع وقضيّة الإنسان لأسباب بسيطة منها :

أوّلاً : لأنّ كمال النظام واكتمال المجتمع وتتميم معنى

ومفهوم الإنسان ، كلّ ذلك لا يتحقّق دون أن يلازم ذلك جميعاً النقصان والتعطيل والظل المعاكس والتيّار المناقض .

فالكمال ، كالخير ، هو مفهوم نسبي ، أي بالنسبة إلى شيء آخر . فكما أن الخير لا يمكن أن يوجد بدون الشرّ الذي يعطيه معناه ويحدّده ويـَصِفُه بالتناقض والمقابلة ، كذلك كمال كلّ شيء وتمامه لا يتمّ بدون ملازمة النقص والخسوف له دائماً وأبداً .

ولذا قال الحكماء الصينيّون القدماء ، قبل أن تضع الجدليّة الماركسيّة هذه القاعدة : إن كلّ شيء يبلغ أوجه التحقيقي التاريخي أو الحياتي — سمّه ما شئت — يبدأ بالانحلال والانهيار لتكوين تأليف وتشخيص آخر . وهي قاعدة « الإن يانغ » الشهيرة التي تمثّلتها بالتصوير الهندسي المعروف ، وكانت النظرة اللاازدواجيّة الهنديّة قد أعلنت ذلك — قبل أينشتين بآلاف السنين — بالنظريّة النسبيّة الشاملة للوجود الحسّي والفكري بأسره . إذ كلّ ما هو إدراك حسي أو اعتمال فكري يخضع لتناقض الازدواجيّة وتطوّر أقطابها ، ولشرعة النسبيّة الشاملة فيما بينها [1] .

١ وهذا هو المثال الهندسي الصيني :
عندما يبلغ السواد حده يكون البياض قد بدأ في النمو معاكساً ، وهكذا دواليك . .

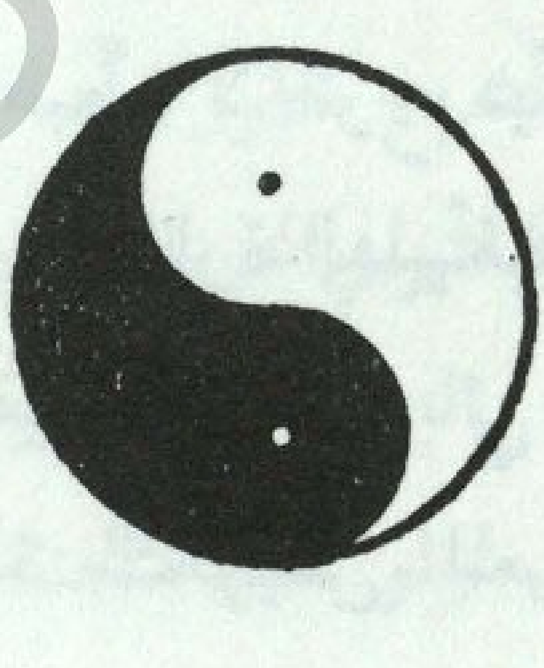

AUB LIBRARIES

لكلِّ شيء إذا ما تمّ نقصانُ فلا يُغرَّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ من سرّه زمن ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

ثانياً : الكمال لا يتمّ في نطاق النظام والحضارة والفكر ، لسبب بسيط آخر . لأنّه كما أنّ الأشياء والأغراض الماديّة تخضع لقاعدة السببيّة ، كذلك جميع الأحداث النفسيّة والمعنويّة تخضع لشرعة السببيّة ذاتها . فالسببيّة تحكم كل شيء وتسيطر على كلّ شيء ، انطلاقاً من خصلة العشب إلى النجوم والمجرّات ، ومن الغريزة إلى الفكر ، ومن حيوان الأميبا البدائي إلى الإنسان . « وابتناه من كلّ شيء سبباً فاتبع سببه » .

فالطاقة الروحيّة والنفسيّة واحدة في الكون ، وهي خاضعة لما يسمونه بالفيزياء قاعدة التعويض والموازاة La loi de compensation ولقاعدة تساوي الطاقة وبقائها وحفاظها La loi de conservation de l'énergie.

والشرّ لا يختلف عن الخير ، في هذه المواجهة الحركيّة الواقعيّة طبعاً ، لا الوجوديّة الأخيرة ، إلا أنّه ظلّه ، وبالاتجاه فقط أي بالإشارة السلبيّة في مقابل الإشارة الإيجابيّة على حدّ التعبير الفيزيائي الكهربائي . وكلّ تيار نفسي ينتج ما يقابله في قاعدة التحريض المعروفة La loi d'Induction من تيار

معاكس . والسعي في التفاضل ، أكان في الخير أم في الشر على السواء . يعبّر في النهاية عن نزعة الكائن للمطلق وتوقه إلى الكمال الخفي . في الأوّل عن بصيرة وهدًى وإيمان . وفي الثاني عن عماهة وضلالٍ وجحود .

ولا يبطل سلطان الازدواجيّة أو الثنائيّة إلاّ عندما يتجاوز الإنسان بعقله الأرفع الفكر . فيدرك الأشياء على حقيقتها وفي عين انبثاقها فيما يتعدى الغرض وعكسه . والتيار ونقيضه . فيستوي على عرش الملكوت . ولكنّ هذا الاستطراد يخرج عن نطاق بحثنا .

والآن إذا تأمّلنا من هذه المشارفة وتطلّعنا إلى أزمة الديموقراطيّة المعاصرة . على ضوء ما تقدّم من أسباب واستنتاجات وشُرُعٍ للوجود الحياتي والنفسي والاجتماعي والمادّي . إلى أزمة الديموقراطيّة المعاصرة وإلى ما يُتوقّع لها من تطوّر حتمي في سياق ظهور نظام الحكم التقدمي الجديد . نلاحظ :

أوّلاً : أن تفهّمنا لمجاري الأحداث وعللها ومسبّباتها ، واستيعابنا لقواعد نموّ المجتمع ولشرع تطوّر الجماعة والحضارة والذهن البشري ، يمكّننا من التأثير المباشر في تحريك المعطيات ، ودفع الطاقات ، وتصويب الاتجاهات ، وتوجيه التيّارات . ولسنا نحن الذين نخلق للكون شرائعه ، ولو أنّنا منحنا عطيّة الفكر

AUB LIBRARIES

ونعمة حريّة الاختيار الظاهر والمبادرة المسؤولة ، وإنّما عقلنا جزء وانبعاث وخاتمة وتتويج لطاقة الكون ذاته ، ونتيجة ونتاج لتطوّر الحياة في شمولها وإطلاقها ، ومرحلة في مسلك تحقق تطوّر هذه الطاقة الكونيّة ، ومنها الحياة ، إلى ما يتعدّى ما نحن فيه وعليه .

وهذا التفهّم والاستيعاب يمنحنا القدرة على الإسهام الفعلي في تعجيل أو تقديم أو تأخير حركة التطوير ، وعلى الاشتراك في عمليّة توليد مضامين طاقة الحياة فينا وفي المجتمع وفي الدولة وفي البشريّة حولنا . وهو معنى آخر للاشتراكيّة ، أي اشتراكنا الإيجابي المباشر في فعل الخلق الدائب وتقدّم الإبداع وتكشّف الصيرورة . وهذا ما عناه في الواقع – دون أن يقصده تماماً كارل ماركس في شمول التصور – عندما قال إن فكر الإنسان هو انعكاس للوعي الخارجي أو الوعي الغرضي La conscience objective على ذاته . وعلى قدر ما يتعرّف الإنسان إلى شرائع هذا الوعي الغرضي للأشياء وعلائقها ، تتوفّر له المبادرة وشحنة الحريّة في التدخّل لتعجيل حركة صيرورة الأحداث . وقد انطلق فيما بعد ماوتسي تونغ ليكمل نظريّة التناقض هذه على ضوء تعاليم الفلسفة الصينيّة القديمة التي ألمحنا إليها ، فأسهم نظريّاً وواقعيّاً وتطبيقيّاً بأروع ما يمكن أن يكون خاصة في حقل النهج العملي والتكوين

AUB LIBRARIES

الديموقراطي بما أسماه وعُرف بنظريّة التناقضات الأساسيّة والتناقضات الفرعيّة والجانبيّة، وبنظريّة المركزيّة الديموقراطيّة أو المحوريّة الديموقراطيّة Centralisme politique.

ثانياً: أنّ هذا المتفهم المستوعب المدرك لانعكاس الوعي الغرضي الشامل للأشياء والأحداث والأفكار وعلائقها وشرعها، هذا الشاهد إذا صحّ القول لا يمكن إلاّ أن يكون خارجاً عن نطاق التحوّل والصيرورة، وإلاّ للحقه تبدُّل الانعكاس الغرضي. ولما استطاع في مجرى تبدّله وتغيّره إدراكه. وأنّ هذه القواعد والشرائع للعالم الخارجي هي غير منفصلة عن طبيعة تكوين عالمنا الداخلي الباطني. وأن العلم في النهاية هو استنباط شرائع العقل ذاته وتطبيقها على الأحداث والظواهر، كمن يرمي بشباك فكره وتقاطيع ومعادلات تصوّره ليصيد بها أسماك أشياء الوجود.

ثالثاً: إنّ الكون وانتظام الوجود وتدفق صيرورة الحياة ودفع مسلك الفكر ذاته، إنّها كلّها جميعها تتضمّن شرعة التناقض الجدلي الدائب الذي بدونه لا يتكوّن أيّ خلق في أيّ مستوى من مستويات الظهور. «وخلقناكم أزواجاً». أي دائماً وأبداً زوجين من القوى المتعاكسة غير المتناقضة.

Un couple de forces antagonistes mais non contradictoires

غير متناقضة. لأن هذا التعاكس يكمل بعضه بعضاً في التأليف

الأخير. وكما أن مضامين هذا الاستقطاب تتبدّل وتتغيّر بعضها بالنسبة للبعض الآخر بما يقابلها، وفق شرعة النسبيّة الشاملة للمادة وللحياة وللنفسيّة الإنسانيّة، وللمجتمع ومعتقداته وقيمه، كذلك توجد طاقة وقوة فيما يتعدّى هذه الازدواجيّة والتعاكسات تدفعها دائماً وأبداً للتلاحم والتقارب والانصهار، حتى من ضمن تناقضاتها واختلافاتها الظاهرة، تفعل في الكون في جميع حقوله ومستوياته كفعل جاذبيّة الثقل بالنسبة للأجرام وللمادة. أعني بهذه الطاقة الزاخرة من أعماق الكينونة وفي أغوار صدر الوجود: قوى المحبّة الجامعة، الموحّدة الهائلة، وقد تكون جاذبيّة الثقل النوعي مظهراً لها وفرعاً في الحقل الماديّ كما يطيب لفيفكنندا الحكيم الشاعر أن يتصوّر ذلك ويؤكّده.

وإنّما الديموقراطيّة في مفهومها الأصيل مشتقّة ومتنزّلة من روح هذه المحبّة وطاقتها الموحّدة الجامعة على حد تعبير برغسون، الذي ذهب هنا أيضاً كعادته إلى أعماق الأشياء، عندما أعلن: أن الديموقراطيّة الحديثة هي من جوهر إنجيلي، وأنّ محركها هو الحبّ لا الإلزام، أو بالأحرى الإلزام المحبّ La contrainte amoureuse والسلكة المحض اختيارية La discipline librement consentie، ولولا الحبّ بالحقيقة وبالواقع، لما استقام للإنسان اختيار، ولا تكون الحريّة بدون محبة. إنّما هي تنبع من صميم المحبة، حبّ الإنسان لحقيقته، لحقيقة

AUBLIBRARIES

الآخرين .

من هذه المواجهة يصح لنا أن نحدّد إلى حدّ كبير اتجاهات الحكم الجديد المقبل علينا ، والمتوضّح من واقع المجتمع والاقتصاد والثقافة وتطور العلم والفكر . ونلخّص هذه الاتجاهات بما يلي :

أوّلاً : أزمة الديموقراطيّة القائمة تعتبر الفرد Individu ، لا الشخص أو الشخصيّة Personne ، غرضها ومستند انطلاقها ومحور صيرورتها . فتركّز الحقوق والواجبات على الفرد لا على الشخص . وفي الحقيقة ، الفرد مجرّد مكنة أو إمكانيّة ، وهو إنسان بالقوّة لا إنسان بالفعل ، وهكذا فلا يكون للفرد في المعنى السليم الأكيد للحريّة ، إلاّ حقّ واحد وواجب واحد بأن يحيا وبأن يصبح ويصير إنساناً ، أي شخصاً تحقّقت فيه الإنسانيّة .

هذا التركيز الخاطىء على الفرد تتفرّع منه أزمة الديموقراطيّة المعاصرة ، وقد خلّفته لنا الثورة الفرنسيّة التي اندفعت وتطرّفت في مجال إرادة تحريرها للمواطن من كلّ رباط اجتماعي حتى من رباط المهنة – وقد ألغت النقابات كما هو معروف – وتورّطت إلى اعتبار الاجتماع البشري عقداً اجتماعيّاً بين الأفراد Contrat Social تمشّياً مع خرافة روسو Rousseau ، بينما الاجتماع البشري هو واقع عضويّ

AUB LIBRARIES

حي بحدّ ذاته ، لا يقوم ولا يوجد المواطن الفرد بدونه ، وإن كان من وجهة أُخرى خلق الفكر الدائب في استمرار « الفرد ـ السلالة » في العيش .

إن نظام الحكم الجديد سيتركز على مفهوم الإنسان الشخص والشخصيّة ، في تحديد الحقوق والحريّات ، وفي توضيح علائق المواطنين بعضهم ببعض ، وكلّ منهم بالدولة ، وفي تكوين الدولة والديموقراطيّة والأنظمة والقوانين ، وفي تصوير مفاهيم وقيم العلم والحضارة .

ثانياً : الديموقراطيّة القائمة ، في مفهومها الخاطىء ، تعتبر الإنسان الفرد لا الإنسان الاجتماعي أو المجتمعي ، قطباً ومحوراً وغاية . والكائن البشري هو إنسان اجتماعي في واقعه وارتقائه ، من حيث أن المجتمع هو حقل تحقق الفرد بمكناته الإنسانيّة الباطنة والظاهرة . .

أمّا نظام الحكم الجديد فإنّه يستوعب ذلك ، ويركّز على مفهوم الإنسان الاجتماعي جميع القوانين والأنظمة والدساتير وشرع الأخلاق في الدولة . فلا تبقى الديموقراطيّة القائمة مثالاً للفوضى وللتناقض وللانحلال ، بل تصبح قوّة فاعلة حيّة في مصير الإنسان وفي تطويره وفي ارتقائه المعنوي الذي هو غاية الغايات . ماذا يفيد المرء أن يربح الدنيا ويخسر نفسه ؟

ثالثاً : تجنّب اعتبار مصالح الفرد ، التي تتضمّنها وتوحي

بها نزعات وحاجات الجسد والحواسّ والفكر، في ضوء توجّه هذا الفكر والجسد والحواسّ إلى ما هما عليه في انفصالهما الموتور الخادع ، بل استمداد اعتبار هذه الحاجات والنزعات والمصالح من حقيقة الإنسان ومن جوهر ما ينزع إليه في أصالة جوهر إنسانيّته المرتبطة بقيم تتشخّص وتتقمّص في المجتمع وفي الإنسان الاجتماعي، ولكنها تتعدّاهما ، تماماً كما أن النور الذي يظهر من فعل باطن واعتمال فيزيائي وكيمائي لطيف خفيّ يتعدّى مظهر وظهور هذا النور ذاته . وكما يولد الكائن الحيّ من العلقة، ويكون كلّه بما سيكون عليه في جميع مراحل تكوينه وحياته وتنوّع أعضائه مغلّفاً مطويّاً في هذه العلقة، تتضمّنه وتحويه ، كما تحوي البذرة الصغيرة الشجرة الباسقة التي تأتي الطيور لتستظل أغصانها .

Il n'y a pas d'évolution sans involution.

فلا تطوّر يصدر من العدم . والسببيّة والعلة والمعلول قاعدة كلّ شيء . فلا تطوّر إلاّ لما تغلّف في العنصر الأصلي وانطوى فيه واحتجب .

رابعاً : التمييز المتبصّر الدائم في التراث الاجتماعي والتقني والحضاري بين ما هو صالح وما هو طالح . . وهل يكون المجتمع والدولة في النهاية إلاّ على شاكلة ما نعكسه من تصوّرنا فيهما ، وهل يكون بدوره الإنسان المواطن إلاّ كما

ينعكس فيه من صور المجتمع وتقاليده وتراثه .

فالتراث الصالح هو الذي يتوجه إلى اختيار وتبنّي ونشر أفضل ما ينعكس في مرآته من حقيقة الإنسان وأصالة ناسوته ، لا الذي يتفرّع من أعراضه الظاهرة التابعة المعلولة — أي الجسد والفكر — بل الذي ينبع من الحيّ فينا لا من الميت. فالجسد ميت بحد ذاته ، تحرّكه وتحييه الحياة .

كذلك الفكر أيضاً لا وجود له ولا قيمة جوهريّة بحد ذاته ، إن لم يصدر ويرتوي من حقيقتنا الذاتيّة المشعة من أغوار كينونتنا ويستنير بها .

فكلّ شيء إذن هو بحاجة إلى استقطاب ، إلى تركيز على محور ، إلى استقبال قبلة وتوجيه . هذه هي شريعة الحكم الديموقراطي الإنساني الجديد ، لأنها شرعة الوجود ، شرعة الحياة. ولنترك بعيداً عنّا أصحاب التخيّلات الفارغة الهدّامة الأنانيّة ، فيما يؤكدونه من حريّة للإنسان مطلقة في المجتمع وفي الاقتصاد وفي التثقيف — لا في الثقافة — فإنّهم أبناء روسو وإلههم « مامون » صنم المال الأسطوري ، وليسوا أبناء الإنسان — بالمعنى الإنجيلي والحقيقي على السواء — أي أبناء الحياة ، أبناء الحضارة . .

وهكذا يتوضّح لنا مفهوم الحريّة ومفهوم الحق والواجب الإنسانيّين على ضوء هذه النظرة الواقعيّة لابن آدم .

AUB LIBRARIES

ولنتخلّص أيضاً من خرافات وتمويهات وأضاليل السياسيين والرأسماليين ومعظم الحقوقيين والقادة الذين يضعون المطلق حيث ليس هو موجوداً :

– في الإنسان الفرد : ولا حقّ مطلق للفرد إلاّ بالحياة وبالمعرفة الأخيرة للحقيقة، وبحقّه أن يصير إنساناً أي بشراً سويّاً.

– في الشعب والأمة أو العنصر : فينجرفون وينجرف المواطن في سياقهم إلى القوميّة المتطرّفة أو العنصريّة أو كبرياء الانعزال والتّمييز والتفريق ، وهي كلّها لون وشكل من ألوان الأنانيّة الفرديّة المنعكسة في هذا المستوى وفي هذه المفاهيم : أنا وحدي وبعدي الآخرون ؛ أنا أفضل من هؤلاء وأرقى ، لي الحياة ولهم فتاتها . حيث يكون التّمييز الخاطىء والتفريق ، تكون الأنانيّة قائمةً ماثلةً ، ويكون الضيق مستحكماً ، والمادة الحيوانيّة متحكمة فاجرة .

– في المجتمع : فينجرف المواطن في تيار الاستقطاب الاجتماعي وحده دون تمييز أصيل ، ودونما نظرة إلى ما هو أرفع وأصفى ، فيضيع في نسبيّة ومتاهة النظريّات الكليّة المعتقديّة في أشكالها القديمة والحديثة ، وفي ألوانها السياسيّة والروحيّة ، ويظلّ يتعبّد الأصنام التي استنبطها وخلقها من عقله كسائر الأصنام الماديّة والمعنويّة . وكان ماركس يقول في هذا القصد والمعنى والتنويه : « قد أكون الوحيد الذي ليس هو

ماركسيّاً » . وبالقرب منّا يروي إدجار سنودن عن ماوتسي تونغ قوله : « بعد خمسين سنة سيرى الناس أن ماركس ولينين وستالين وماوتسي تونغ كانوا رجالاً عاديين » . أي أن لا قيمة لتعاليمهم إلاّ بالنسبة لجيلهم ومرحلتهم وطورهم .

— وأخيراً في التقليد وفي الدين : فإذا بالحرف يتغلّب على المعنى ، والصورة تحجب المثال ، وإذا بالمعتقد يخنق الروح التي شخّصته في الظاهر أو في الباطن ، وما كان عليها الحرف إلاّ دلالةً ومثالاً لا أكثر .

ومن آيات جلال الدين الرومي :

« إذا كان الصنم المادّي ثعباناً فإن الصنم الفكري تنّين » .

خامساً : يكون من نتائج تقوية فكرة التصميم والتخطيط والتوجيه أن مفهوم المجتمع العضوي والديموقراطيّة العضويّة هو الذي سيفشو ويسيطر .

وهذه الديموقراطيّة العضويّة لنظام الحكم الجديد لا تقوم وتنمو وتعمر إلاّ إذا زالت الروح الطبقيّة من المجتمع ، وتحقق العدل في تنظيم توزيع وسائل الإنتاج وسلع الاستهلاك والخدمات الاجتماعيّة ، وارتضينا بنظام الكفاية والعدل ، لا البحبوحة المترفة الغاشمة ، أي إذا ساد النظام الاقتصادي الاشتراكي في مرحلته المتطوّرة النامية ، والقادمة علينا من خلال الاختبارات الجديدة والتعديلات الرئيسيّة للاختبارات القائمة

الحيّة .

سادساً : ستتوضّح أكثر فأكثر ، في نظام الحكم الجديد ، أهميّة اللاّمركزيّة من جهة في تكوين الديموقراطيّة ، لا في القضاء على البروقراطيّة فحسب ، وقد أخذت الدول الاشتراكيّة الماركسيّة والدول الغربيّة تفطن إلى أهميّة توزيع الصلاحيّات ما أمكن ، وتقريب ممارسة المسؤوليّات في جميع المستويات من الفئات الشعبيّة صاحبة العلاقة والمصلحة المباشرة في ذلك . ولا تتحقّق ديموقراطيّة في نظام تمثيلي إلاّ إذا توسع نطاق اللاّمركزيّة وأضحى مبدؤها مفهوماً أساسيّاً في تكوين الإدارات الإقليميّة والمصالح الحكوميّة والتمثيليّة والنقابات والتعاونيّات والدولة . ومن جهة أخرى سنشهد تطوّراً حاسماً ومتواصلاً في تحقيق مبدإ تنوع المؤسسات والنشاطات ضمن الانسجام ووحدة التوجيه . فلا يمكننا ، في الأنظمة الاقتصاديّة والاجتماعية المعقّدة ، أن نضع حلاًّ واحداً مماثلاً لجميع المعضلات الاقتصادية حتى في معالجة وفي إطار المعضلة الواحدة. وفي التنوع والتوزّع وعدم الانحصار ضمان لعدم طغيان السلطان المركزي وفساده ، وتَوَفُّرُ حلّ أوفق وأفضل للقضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة ، وبعث تجديدي حقيقي للمفهوم الديموقراطي البدائي ذاته : أي حكم الشعب بواسطة الشعب لمصلحة الشعب . وهذه اللاّمركزيّة وهذا التنوع ضمن الوحدة

AUB LIBRARIES

والانسجام والمراقبة الدائبة كفيل وحده بتحقيق التوافق والانصهار بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصّة ، بين المبادرة الفرديّة والتوجيه العام . فلا تطغى الدولة ولا يطغى الفرد . لا ديكتاتورية ولا فوضى لِبراليّة .

سابعاً : إن التحرّر من مفهوم المجلس الشعبي المطلق الصلاحيّة ، أي من فكرة الـ Convention populaire في المعنى الثوري الفرنسي للكلمة ، سيكون من مميزات نظام الحكم الجديد . وسيتقوّى في اعتقادنا مبدأ تفريق وتوزيع السلطات ، هذا التفريق الذي بدونه لا تنمو وتنجح الديموقراطيّة . فإذا قصدنا بقاء وتنمية الحريّة الشخصيّة – في إطار التعاون والخير الاجتماعي والتفتيش عن الحقيقة وإبداع الجمال والثقافة – فلا بدّ من تحقيق مبدإ توزيع السلطات وتمييزها وتحديدها بعضها بالنسبة للبعض الآخر ، لكي تتعاكس بعضها بالبعض الآخر ونتفادى طغيان السلطة على حدّ تعبير مونتسكيو :

Il faut que le pouvoir s'oppose au pouvoir.

وتلازم ، ذلك التخلّص من خرافة مبدإ المجلس المطلق الصلاحيّة ، فكرة أخرى ذات أهميّة بالغة في تكوين نظام الحكم الجديد وترسيخ الديموقراطيّة الحقيقيّة في ظلّ عمل مؤسّساته : هي فكرة القيادة المسؤولة ، لما نلحظ من ضياع المسؤوليّة في البرلمانيّة العادية والمجالس التمثيليّة والوزاريّة

على السواء .

ففكرة الشخصيّة القائدة المسؤولة ضرورة حيويّة في جميع المستويات ، كما أن مفهوم التعاون الورشي والشورى هو من متمّماتها ، ولا يتناقض معها أبداً . فلا تستقيم سلطة بدون شورى ، أي بدون تطلّع دائم إلى مصلحة الآخرين المتبدّلة أبداً ، ولا تقوم الشورى إذا اغتصبت السلطة .

وممّا لا ريب فيه أنّ روح المبادرة المسؤولة وفكرة القيادة المسؤولة هي التي أنقذت نظام الحكم الديموقراطي في الولايات المتحدة وفي بريطانيا وجنّبتهما الانحلال والانهيار ، فيما كان طبعاً لأنظمة التربية في بريطانيا وللتقليد السياسي والاعتزاز القومي وللتهذيب المدني من أثر في هذا التركيز والاستقرار والنجاح النسبي ، كما أنّه كان لتفريق السلطات في الولايات المتحدة مثلاً بين الرئيس والكونغرس والمحكمة العليا والسلطات الإقليميّة ، واعتماد مبدإ القيادة المسؤولة في الحقل الفردي وفي الاقتصاد والسياسة والإدارة ، إسهام إيجابي في الاختبارين الديموقراطيين اللذين أشرنا إليهما .

وفي باب تفريق السلطات ، يتوجّب جعل القضاء سلطة مستقلّة استقلالاً تامّاً ، تتوّجها المحكمة العليا لتقرير دستوريّة المراسيم والقوانين الصادرة . فتأمين الديموقراطيّة ، وضمان ممارسة حقوقها وواجباتها ، يتحقّق بواسطة القضاء أكثر بكثير

ممّا يتحقّق بواسطة المجالس التمثيليّة ، وثرثرتها معظم الأحيان .

وتفترض أيضاً تقوية السلطة التنفيذيّة وتمكينها من الاستقرار للعمل السريع المنتظم المتّصل ، بما تقتضيه ظروف التخطيط والتصميم والمبادرة والتقرير والعمل في الدول الحديثة .

ثامناً : التمثيل الشعبي كما يعمل به ويصدر في انتخاب الدوائر هو تعبير إقليمي متأخرٌ لما يسمّونه بالإرادة الشعبيّة ، — وهل تتمثّل الإرادة الشعبيّة بأجزائها المكانية ، أم بمجموعها ومؤسساتها — وكان يهدف هذا التمثيل الإقليمي عند تكوينه التاريخي المنبثق من فكرة مجلس الدويلات العام Les Etats Généraux في فرنسا ، الذي جُمع كما تذكرون قبيل الثورة الفرنسيّة بقليل ، كان يهدف إلى تمثيل أجزاء مختلفةٍ ومقاطعات وإقطاعيّات وطبقات من الشعب ، بغية توحيدهم وصهرهم في بوتقة الأمّة الواحدة والشعب الواحد . ولقد لعبت هذه البرلمانات ، الإقليميّةُ التمثيل ، دورها ، ممّا لا ريب فيه ، في خلق وتطوير مفهوم الأمّة والوطن والدولة الواحدة ، وقضت على نظام الإقطاع المجزّىء لكيان الشعب ، خاصة عندما تخلّصت من ضرورة تمثيل الفئات الأرستقراطيّة والكهنوتيّة كفئات :

وفي مرحلة معيّنة من تطوّر الشعب والأوضاع العامّة

AUB LIBRARIES

وصيرورة الوطن ، لا يبقى لهذا المفهوم الإقليمي للمجالس التمثيليّة أيّ معنى ، ويتوجب إذ ذاك التطلّع إلى تمثيل شعبي أكثر تعبيراً لمصالح الشعب وحقوقه الأساسيّة وأفضل في مجال إبراز الكفاءات واستثارة وإظهار القيادات، من النظام الإقليمي القديم الذي فقد مبرّراته التاريخيّة .

والتمثيل الصحيح للأمّة ، في نظام الحكم الجديد ، وفي سياق إصلاح النظام الديموقراطي القائم ، يجب أن يتوجّه إلى تمثيل التكتّلات العفويّة للمواطنين حول نشاطاتهم الماديّة والمهنية والسياسيّة والمعنويّة ، بحيث يكون هذا التمثيل في المجالس تعبيراً صادقاً لتشكيلات المجتمع المنتظم عضويّاً . وهكذا يتحوّل التمثيل المجلسي من تمثيل الأفراد إلى تمثيل المواطنين الواعين والجماعات والمؤسسات الاجتماعيّة، أي بالتالي الوظائف المتنوّعة التي يتكون منها مجموع الشعب ، فيضحي للشعب ولطريقة تمثيله معنى واضح وقصد إيجابي .

على أنّ هذا التمثيل يجب أن يتقيّد بشروط وصفات للكفاءة المعنويّة – العقليّة والخلقيّة والشخصيّة – محدّدة . ويجدر أن تقوم المؤسّسات التي توفّر للمرشحين مثل هذه الكفاءة السياسيّة والمعنويّة في التربية والتدريب الخاص ، وتكون شرطاً وحدّاً عليهم ، فلا يقدم أحد المواطنين على الترشيح والانتخاب إلاّ عندما يتمكّن من اجتياز حاجز هذه المواصفات

AUB LIBRARIES

والكفاءات والشروط في المعاهد والمؤسّسات المختصّة. فالسياسة بَطُلَت أن تكون انتهاز طموح، أو مغامرة جهل، أو وسيلة جاه وتعيُّش، وأضحى من اللازم اللازب أن تتحوّل إلى علم عقلي وتدريب خلقي وتكوين نظامي، بكل ما لهذه المعاني من دقّة وشمول. وإن لم نفعل ذلك ونبدع بعض المعاهد على غرار مؤسسة فيثاغورس الشهيرة، التي أعطت للعالم اليوناني القديم عدداً كبيراً من قادته ورجاله السياسيين، فإنّنا نكون مهدّدين بازدياد فوضى الديموقراطيّة، وبتجريدها من فعلها الإيجابي الصحيح وإسهامها التنظيمي والحضاري، وبطغيان حكم التكنوقراطيين أكثر فأكثر.

وهذه المواجهة، في تدريب وتثقيف الذين يُعدّون أنفسهم لسلك السياسة الشريف، لا تنفصل طبعاً عن نظام للتربية والتعليم جديد، يتخلّى عن بعض رواسب التقليد الموروث، ويعود أحياناً إلى النظام السابق في تراث الأقدمين ويهدف إلى تكوين المواطن الإنسان، لا الفرد الحافظ والمختزن، كالببغاء أو كبعض الآلات الحاسبة، لبعض المعلومات فحسب. وقد شرحنا في غير هذا المقام آراءنا في ذلك.

تاسعاً: الديموقراطيّة السليمة، المتحرّرة ما أمكن من الأزمة التي نعانيها، لا يمكن أن تتكوّن وأن تتطوّر وأن ترتقي، إذا كان إطارها الاجتماعي والمعنوي سيظلّ يعاني الفساد

AUB LIBRARIES

والانحلال الجسدي والخلقي والفوضى . فتنقية الجو العام — الصحف والأندية ووسائل الترفيه عن النفس والكتاب والسينما والتلفزيون والإذاعة والمدرسة والعائلة والعادات والتقاليد والأدب والفن — وتوجيهها نحو تأمين أفضل تقويم وترويض وتثقيف معنوي وعلمي وخلقي وإنساني ومدني للمواطن ، وتنقية هذا الجوّ العام النفسي ضرورة ملحّة لا يستقيم بدونها أيُّ نظام ، وكيف يستقيم النظام إن لم يستقم الإنسان الذي يكوّن هذا النظام ويمارسه ؟! والإنسان يكون على شاكلة ما يرى ويسمع ويتحسس به ويتداخله من أفكار الخارج ومُثله : كما يكون التراث كذلك يكون الإنسان .

عاشراً : ولا بدّ من تنويه خاص بدور الصحافة كحلقة ووصلة ووسيلة للمعرفة وللتهذيب السياسي والتوجيه ، بين الشعب ، وبين النخبة التي تنبري لقيادته وتوجيهه ، وبين الدولة .

ولا يتوفر أيُّ حكم سليم تقدّمي إن لم نحرّر الصحافة من سيطرة الرأسمال والإعلان التجاري والتملّك الفردي . فما قيمة هذه الصحف ، وما هو جدواها في تكوين تيّار الفعل والانفعال السياسي والحضاري إن لم تكن تعبّر عن طاقات اجتماعيّة وسياسيّة معيّنة ، وعن مؤسّسات وتكتلات اجتماعيّة وسياسيّة سليمة ؟

فالصحافة — في نظام الحكم الجديد — يجب أن تصبح سلطة

AUB LIBRARIES

أ داتية رسوليّة حقيقيّة ، تكرّس وتصون في حال واحد وتمثّل سلطة العقل في تكوين وصيرورة المجتمع ومؤسساته . ومن لم يصحّ له تفكيره – والفكر غذاء العقل تماماً كما أن الطعام غذاء الجسم – فكيف يسلم فيه عقله وتصرّفه ؟

تتميماً وتوضيحاً وختاماً لما أوردناه ، ودلالة إلى أزمة الديموقراطيّة ، وإشارة إلى نظام الحكم الجديد المقبل في حركة تطوّر النظام العام والديموقراطيّة ، لا نجد أفضل مِمّا تضمّنته بعض فقرات ميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي من مبادىء عامة :

– « ... إن المجتمع في كلّ مؤسساته – ومنها السياسيّة – ليس في ذاته غاية بل وسيلة إلى بناء الإنسان . فالدولة تقدّس أو تلعن ، تخصب مؤسّساتها أو تعقم بقدر ما تخدم أو لا تخدم هذا الإنسان » .

– اعتماد مبدإ « العدالة المستوحاة من الإخاء والتعاون والتضامن » ، وهي نظرة جديدة تعتمد واقع الإنسان وعلائقه ونفسيّته ، وتستبدل العقاب بالتوجيه والإصلاح ما أمكن وحيث أمكن .

– « احترام جميع حريّات الشخص البشري المحدودة بحريّات الآخرين وبمقتضيات الخير العام » . فلا حريّة لا يقابلها واجب .

— « المساواة السياسيّة بين المواطنين ، على أن تؤخذ بعين الاعتبار قيمتهم وإمكانيّة انتفاع المجتمع بهم .

— « تحقيق وضع معتدل متوازن آخذ بالتنوّع في الوحدة وبالفرديّة النازعة إلى تحقيق الشخصيّة .

— « تحقيق تضامن أخوي يكون نتيجة للتخصّص الوظيفي ولرتبيّة مرتكزة على تفاوت المواهب في المواطنين . »

— « ضرورة الشخصيّة القائدة الخلاّقة المسؤولة » في جميع المستويات .

— « تنظيم الجماعة بقدر المستطاع وفاقاً لهيكلها الطبيعي ، أي باحترام التكتّلات العفويّة للنّاس حول مصلحتهم أو نشاطهم ، بغية نظمهم في الدولة ، فلا تكون الدولة سوى تمثيل للجماعة بواسطة المؤسّسات الكافلة بتحقيق غاياتها الاجتماعيّة ، وتكون الحكومة تاج البناء الذي انبثق عن الجماعة المنظّمة هذا التنظيم .

— « وضع وثيقة تعلن حقوق وواجبات الإنسان والمواطن تكون مقدمة للدستور » الجديد ، بما يتلاءم مع المفاهيم الواقعيّة الحقيقيّة للمجتمع وللإنسان .

— « سن دستور يتّفق ومبادىء الحزب ومقتضيات الزمان والمكان ، ويؤمّن (عمليّاً) الحقوق والواجبات المعلنة في الوثيقة ويرتكز على :

AUB LIBRARIES

* تفريق السلطات .
* تقوية السلطة التنفيذيّة .
* تأمين دستوريّة القوانين بواسطة القضاء .
* مساواة الرجل والمرأة في الحقوق المدنيّة والسياسيّة .
* تأمين تمثيل النخبة والهيئات المهنيّة والاقتصاديّة والمعنويّة تمثيلاً موافقاً في المجالس تمكيناً للأكفاء من تولّي الحكم .

— « جعل القضاء أقدس ملاذ للحقوق والحرّيّات الشخصيّة : مسؤوليّة ، كفاءة علميّة ، سرعة إنجاز ، تحرر من التأثير السياسي ومن العوز المادي ، تنظيم قضائي مرن تيسيراً على المتداعين .

— « التنافس الحرّ وحريّة العمل والإنجاز ، في نطاق التوجيه الاقتصادي العام ، من ضمن الأصول المهنيّة والخير الاجتماعي .

— « علمانية في الدولة تحترم حريّة المعتقدات ، وإلغاء نظام الطائفيّة السياسيّة .

— « لا أنظمة كليّة ولا فوضويّة (برلمانيّة) ، بل شورى ديموقراطيّة عليها واجب الإشراف التوجيهي غير المتحكّم ولا المستأثر في كلّ النشاط الشعبي العملي .

— « تثقيف الشعب سياسيّاً واجتماعيّاً بغية التوصّل إلى وضع

ديموقراطي استقراري بفضل تنمية رابطة Discipline في المواطن تكون محض اختياريّة.

يكون من مهمّة الدولة « تقوية فكرة الأسرة ... والمحافظة على سلامة النسل وإبقاء وازدياد حيوية العنصر البشري ونبوغه المتنوّع المتناهي.

— « صهر الشعب في وحدة اجتماعيّة تامّة. واعتبار الدين أُسّاً جوهريّاً في قيام المجتمع الأسمى، والترحيب بعمل رجاله في نشر مبادىء الكمال الإنساني.

— « اعتبار المجتمع ليس مجموعة أفراد فقط بل كلاًّ عضويّاً، حيويّته في تنوّعه، لكلّ عمل فيه كرامته، ولا تفضل مهنة مهنة إلاّ في تأمين انتظام المجتمع واستمراره وترقيه نحو الكمال.

— « مكافحة الطبقيّة والإقطاعيّة والتمهيد لقيام القيادات الصحيحة وإيقاظ الشعور بالتضامن والمسؤوليّة الاجتماعيين ».

في ضوء هذا التطلّع الجديد والتقييم الواقعي السليم، قد تتصحّح معظم أخطاء الماضي والحاضر في إدراك مفاهيم الديموقراطيّة وتطبيقها، وتتصوّب مناهج التربية والعلم والتعليم، والإخبار والإعلان، والرأي والمسؤوليّة، وتستقيم السياسة وتتصفّى القيادة، وتبرز النخبة الحقيقيّة الحياتيّة

AUB LIBRARIES

المختارة ، ويزدهر نظام للحكم جديد .

في هذا التكوّر من مصائر النصف الثاني للقرن العشرين الذي نشرف عليه في أمل وخشية ، وفي اطمئنان حيناً ثم قلق وذهول ، ووسط انجذابنا للعلم التطبيقي وألعابه السحريّة ودمى ابتكاراته وتفنّنه وابتعاده بنا عن عالم الطبيعة ، كأننا نعيش في حلم لا قواعد لاسترساله ولا غاية لتسلسله ولمنطق جولانه العجيب ، في هذه القيعة من سراب الحيرة وتوهّم السعادة المجهول ، ولأوّل مرّة في تاريخ البشر على شموله يرتقي الإنسان ، كل إنسان منّا ، إذا وعى قَدَره وقَدْرَه وحقيقته ومصيره ، إلى مرتبة يستطيع منها أن يؤثّر على الرأي العام العالمي وعلى رأي بلاده ، ويسهم بذلك في إنقاذ الشعوب من متاهات التضليل ، ويجنّب الدنيا — بفعل إرادته المتواصل الصغير — شرّ الإحراق في النار الذريّة المندلعة من منازعات الفئات الحاكمة ، وسباق التسلّح ، وجشع الاحتكار والاستثمار الرأسمالي والشعوبي البشع .

أما آن للشعوب أن تدرك : « أن الصراع التاريخي بين الطبقات الذي استنفد قوى العنصر البشري وإمكانيّاته ، واستنزف جهوده في خلافات ونزاعات داخلية ودوليّة مستمرّة ، يجب أن يزول ، وأن تتحوّل هذه القوى والجهود والإمكانيّات وتعمل متآزرة لتفهُّم أسرار الطبيعة والنفس والسيطرة عليها ،

AUB LIBRARIES

وبالتالي لاستكمال مجرى التطوّر في تحقيق وتتميم الكائن البشري ، وهذا لا يتمّ إلاّ إذا صهرنا الأفراد والجماعات في وحدة اجتماعيّة مستقرّة ، واعية لمصيرها ، تسندها قوى المحبّة والتقارب ، أي بالتالي قوى التطوّر الجامعة » ، قوى التطوّر نحو وحدة الإنسان ، نحو وحدة الحياة ، نحو وحدة الوجود . وهل تنفصل في النهاية ياء الإنسان عن ألفه ، وغايته عن علّته ، وخاتمته عن مبدئه ، وخلقه وآخره عن أوّله .. في البدء كانت الكلمة ، ونحن نقول في البدء كان العقل .. والكلمة هي تمتمة وجلجة العقل الرفيع في إبداع كل وجود .

ألقيت في كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية والسياسية في ٢٥ شباط ١٩٦٦

AUB LIBRARIES

دور المثقفين في الوطن

قد يبدو هذا الموضوع عاديّاً أو مبتذلاً ، أو قد يكونُ واسعاً رَحْبَ المجال ، لا يحصرُه حديث صغير عابر . إنّنا سنقتصرُ على ما تفرضُه المسؤوليّة الاجتماعية والسياسيّة من موجبات على رجل الفكر وعلى المثقّفين ، بشكل عام ، في الجيل الذي نعيشه ، وبالنسبة للمجتمع والدولة ، في الحاضر وفي المستقبل القريب ..

في الواقع ، إنّنا نشهد ، في العصور الحديثة ، انقلاباً في تكوين المجتمع ، وإبراز قياداته ، لم يكن يرقبه أحد فيما قبل ، ولم يتصوّره كبار رجال الفكر والنظريات العقائديّة ، حتى اليساريّين منهم أمثال ماركس وإنجلس أوسان سيمون وأوين.

فللمثقفين دور أوّلي في تشكيل جميع أجهزة الدولة والمؤسسات الاقتصاديّة والاجتماعيّة ، في هذا العصر الإداري الذي تحوّلت إليه الدولة والمجتمع ، وفق تعبير Siegfried سيغفريد الموافق ، حيث أن العلاقات والروابط الاجتماعيّة

أضحت (داخل المجتمع الواحد) ، من الكثرة ومن الإحكام ومن القوّة ، بحيث يشكّل كل مجتمع بشري (أو ينزع إلى تشكيل) وحدة عضويّة ، أي كلاًّ عضويّاً غنيّ الحيويّة، مُوحّد النزعات ، كثيف الحياة . وتحت هذه الوطأة ، استمرّ نطاق حرّيّة الفرد يتضاءل أكثر فأكثر أمام العلاقات الجديدة ، والشرائع والعادات التي تظهر كلّ يوم وتقيّد تصرّفات الإنسان في دائرة عمله .

« ولا بدّ من الإشارة إلى أنّه كان لتطوّر العلم والصناعة الحديثة ، وظهور إمكانيّاتها غيرِ المحدودة بعد الحربين العالميتين الأخيرتين ، أثرٌ كبير في نمو مظهر الجماعيّة وتقويته ، هذا الذي سبق ونوّهنا بأنّه أخذ يتحقّق بسيطرة الجماعة المتزايدة ، عن طريق الدولة ومؤسساتها ، على جميع مرافق الحياة الخاصّة والعامة ، وتعاظمِ سلطان الدولة ونفوذ هذه المؤسّسات ، حتى ليخيّل لنا أن الجماعة أصبحت إدارةً كبرى كثيرةَ التشعّبات ، متنوّعةَ الاختصاص ، تتكامل بتعاونها على مقدار ما يَضْؤل فيها مدى حرّية الفرد — وبحقّ دعا سيغفريد هذه المرحلة الجديدة بالعصر الإداري ، لتغلّب فكرة التنظيم والإدارة عليه . ومهما يكن فنحن أمام عهد جديد وعصر جديد ، لا تقلّ ولادته أهميّة عن أهميّة انبثاق عصر البرونز . » (ميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي ص ٢٨ — ٢٩).

ويتعاظم دور المثقفين ، بوتيرة متزايدة ، في المجتمعات الحديثة التي تشملها العناية الصحيّة أو ينتشر فيها استخدام الأدوية العصريّة ، لارتفاع نسبة عدد الشباب الّذين أضحت الوسائل الطبيّة تحفظهم من الموت في سنّ الطفولة . وكانت الأمراض والأوبئة في السابق تفتك بشكل ذريع في حديثي السّن ، وتحول بين معظمهم وبين وصولهم إلى اليفاع والرجولة ، فما عادت تلعب شريعة الانتقاء والارتقاء دورها في هذا المضمار في تنقية وبقاء الأصلح للحياة والأفضل .

ثمّ إن الأنظمة الديموقراطيّة ، بتقريرها مبدأ الاختيار السياسي على أساس الاقتراع بالأكثريّة ، قد أشركت فئاتٍ كبيرة من الشباب المثقّفين في مجال العمل السياسي والاجتماعي ، بشكل مباشر أو غير مباشر. وكذلك بالغت الدول الاشتراكيّة ، والجماعيّة الكليّة والفاشيّة على اختلافها ، في العناية بالشباب وبالمثقفين ، ربما أكثر بكثير مما يحصل في كلّ الأنظمة الديموقراطيّة ، لحاجتها إليهم في عمليّة تطوير المجتمع والدولة وفي مباشرة عمليّة الإنماء الشامل ، وفي تكوين حلقة الإرشاد والتوجيه بين الجماهير والفئات الكادحة من جهة وبين القيادة الحزبيّة والنظاميّة الدوليّة من جهة أخرى ، ولسهولة ويسر تطبُّع فئات الشباب والمثقّفين بالأفكار والمناهج الجديدة ، وللاعتقاد بتوفّر إمكانيّة قولبتهم بالعقليّة والذهنيّة الجديدة ،

AUB LIBRARIES

ولأنّ سنّ الشباب والثقافة هو منطلق الحماسة والنشاط والتضحيات ومرتقى سلّم البطولات وأعمال الاستقطاب والإبداع . وليس من المستغرب أن يكون سن الشباب في انطلاق أوجه ، أي بين العشرين والثلاثين ، هو زمن تفتّح الذهن عند العلماء على شتى ألوان الإبداع والنظريّات المستحدثة والمخترعات ، التي قلبت وجه العلم وأسهمت في تطويره العمودي السريع .

ويتوجّب علينا أن نوضح في هذا الباب ، استطراداً وعلاقة ضروريّة غير منفصلة عن جوهر الموضوع ، أنّ للقوى الحيّة المتشخّصة بالطاقة الجنسيّة أثرَها البالغَ في تقوية عقل الإنسان أو إضعافه ، في ترفيعه إلى مستوى الإبداع والتمرّد الخلاق ، أو انحطاطه إلى التقليد الواهن والتوهان في أقنية السفاسف والعادات المبتذلة ، في تفتّحه الكامل أو انغلاقه ، في شحذ الخلق والإرادة ، أو إنهاكها وتعقيمها وإنقاص فعاليتها في العمل والصيرورة . ومن لم يكن له من نفسه وازع ، فكيف يستطيع أن يهيمن على نظام عقله وتحرُّك ذهنه ، واعتمالات شعوره بالمعاني الكبيرة ومجالي الإبداع ، وكيف يستطيع أن ينتظم في الجماعة ويسجمهم في عقد نظامه ويعتلي إلى مقاليد قيادة هذه الجماعة ؟

وكما أن الطاقة الماديّة لا يمكن أن تنفصل عن طاقة الحياة ،

AUB LIBRARIES

إذ هي ينبوعها وجذرها ، ومدّها وامتدادها ، في مدى اعتلائها في سلّم الكائنات الحيّة والسلالات المتطوّرة – والحياة وفق تعبير بعض العلماء إنّما هي طاقة مترفّعة للمادة في تكثّفها وتعقّد ذرّاتها وخلاياها – كذلك لا يمكن الفصل بين الحياة النفسيّة وبين تيار الحياة الزاخر فينا بالإمكانيات منذ فجر الوجود الأوّل . وإنّما الحياة النفسيّة هي لون وشكل رفيع وتعبير مستعلٍ للحياة ذاتها ، وهي انعكاسها على ذاتها . وليس من المستغرب أن تكون قد وردت في الإنجيل الشريف الكلمة التالية : « طوبى للّذين قلوبهم طاهرة ، لأنّهم يشاهدون الله » ، أي يصلون إلى معرفة الحقيقة الأخيرة للوجود .

وقد أشار شري رماكريشنا إلى هذا الفعل والتحوّل العجيب الذي يطرأ على الإنسان ، الذي يظلّ اثنتي عشرة سنة متوالية محافظاً على طهر جسده ونقاوة أفكاره وصفاء شعوره من أدران الشهوة ، بأنّه ينمو فيه عرق عصبي خاص ، فيتمكّن من معرفة خفايا الأمور ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، وتُنيخُ لسلطته بعض كرامات الأولياء . أو كما تقول الرجا يوغا الهنديّة : « بقدرة الطهارة تأتي المعرفة كلّها » . كما أنّه بقدرة الصدق مثلاً ، وممارسة فضيلته في الفكر وفي الشعور وفي الكلام وفي العمل ، يحصل الإنسان على قوى عجائبيّة في الإقناع ومحضّ اليقين والإبداع والتمثيل والتشخيص

AUB LIBRARIES

والخلق ، حتى كأنّ الإنسان ، لفرط صدقه وأصالته في جذور نفسه وعين عقله ، يستطيع أن يجعل الأشياء تحدث والأفكار تتجسّد . وكذلك بالنسبة للأذى ، فمن لا يُؤذي فلا يؤذى — في الفعل ورد الفعل السببي المعروف في العلوم الماديّة action et réaction.

وهذه النظرة الشاملة الوحدويّة الكاملة للتّطوّر وللإنسان أوضحها الحزب التقدمي الاشتراكي في ميثاقه : « بأنّنا أداة مكلّفة في الواقع بتحويل التيّار الحيّ ، الزاخر بالإمكانيّات منذ فجر الحياة ، إلى فكر وشعور وإشراق وقيم حقّ ومحبّة وجمال ، ويتّضح (آنذاك) لنا أيضاً أيّة قيمة هي الشخصيّة البشريّة وأيّة قيمة هي حياة كلّ كائن بشري ورسالته ، وذلك بالاستقلال التّام عن أي مبدإ ميتافيزيقي ولاهوتي كان ، لو استطعنا أن نقرّر ذلك دون أن نستنير بالاختبارات الروحيّة الحيّة . »

ومن هذه المشارفة والمشافهة ، تبدو ضرورة ارتباط طاقة المثقّفين العلميّة بالقوى المعنويّة والطّاقات النفسيّة المستعلية ، فتتكامل شخصيّة الكائن البشري ، فتتجلّى في الشباب آنذاك صفات القيادة التي تؤهّلهم لتسلّم مسؤوليّاتهم في مختلف مستويات الهرم الاجتماعي والإداري والسّياسي والاقتصادي .. وإلاّ يكون العلم عالة وآفة على صاحبه لا يزيده إلاّ عماهة واستكباراً ، ومرحاً وأنانيّة وتميزاً

اعتباطياً ، إذ يكون ميزة لا تقابلها أصالة أو طبع وتطبّع عميق حقيقي في النفس، كمن يطلي القِدْرَ ، ويضعها على نار الحياة ، لتَنْضَجَ بها أفضل ثمار العقل والقلب والعمل والكفاح ، وتكون القِدْرُ فارغة . .

إنَّ الشباب المثقّف لا يستطيع أن يلعب دوره في قيادة المجتمع – وهل هناك مسؤوليّة أشرف من قيادة الرجال والإسهام في بناء المجتمع والدولة والوطن ؟ – إلاّ إذا ارتفع إلى مستوى القيادة بعلمه ، بعقله ، بشعور قلبه ، بتوق إرادته ، بإصابة تصورّه ، بنضج فهمه وجهد حياته ، أي إذا تفتّحت فيه من جديد فضائل الفروسيّة وصفاتها النامية وطاقتها القادرة .

هذا الشباب الذي يضيع اليوم في الميوعة الجسديّة والشخصيّة وفي الانحلال الخلقي ، وفي التقليد الأعمى لمتاهات الحضارة الغربيّة القادمة إلينا ، نتلقّفها كمن يريد أن يشغل فكره عن التفكير والتأمّل بمصير حياته وتعاسة قلبه وتشتّت فكره ، أو في هذا التخنفس ، والتأنّث ، واستشراه صور الدعايات والملاهي والإذاعة والشاشة والتلفزيون وسواها من ألاعيب وألعاب المدنيّة الماديّة السحريّة ، ثم في هذه الانتهازيّة للجاه وللزواج وللمال ، وهذه السلبيّة المنتظِرة المتخاذلة ، كمن ينتظر طعامه ليسقط إليه من منٍّ السماء ؛ وهذا الاكتفاء بالعلم السطحي وبالثقافة التي يُقصد منها

الحصول على اللقب والشهادة في جميع مراتب التعلّم ، ولا يستهدف الطالب ، من تحصيلها ، تعَدّي مضامينها إلى الاستقصاء والبحث والتعمّق ، واستجلاء السؤالات الكبرى عن النفس وعن الكينونة والوعي والوجود ، التي تجيش في صدره ، وترتطم على صخورها أمواج أفكاره ، ويتشوّق إلى الجواب عليها قلقه وحيرته وشكّه ، أو تجذبه إليها استطلاعات حقيقته الباطنة الكامنة في أصل روحه . وقد أضحى العلمُ اليوم ، بنظريّاته المتعمّقة المستقطبة الأخيرة ، فلسفةً واقعيّة تجريديّة ، هي من أروع التجلّيات في الذهن : فقد تبخرت الذرّات في مجهر الفيزيائيين والكيمائيين وأرباب الحساب ، حتى أضحى لا فارق ولا مفارقة بين هذه المادّة الكثيفة وبين مفهوم الروح ، أو كأنّنا ، في مواجهاتنا المشرفة المتقدّمة على شهود العلم الجزئي الصغير الذي يتكوّن من عوالمه اللامعدودة العالمُ الكبير ، على حدّ تعبير إدنغتون ، نرقب « عالماً من الظلال أو الأشباح a shadow world ، في جلسة سحريّة تُقام لاستحضار نفوس الغائبين والموتى » ، حيث لم يعد للزمان وللمكان سوى مفهومٍ نسبيّ ، ولم يعد للحتميّة هذه السيطرة المعهودة نسبيّاً في أغراض الحواس ، وحيث نشهد الحريّة تنبع من أعماق تشخّص الطاقة في المادّة وفي علائق الجزئيّات بعضِها ببعض ، وحيث الخلق مستمرّ دائب لا يتوقّف في

تحوّل الشعاع والطاقة إلى مادّة وفي تحوّل المادة إلى طاقة ، كأنّنا أمام ساحر عجيب يلعب بأسماعنا وأبصارنا ومدركات أفهامنا . وكذلك في عالم الكواكب والنّجوم والمجرّات حيث، على حدّ الآية القرآنيّة الجميلة : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب » ، وتشهد « الشمس تجري لمستقرّ لها » ، منجذبة بحركة الكون المنفلتة الهائلة في جميع الاتّجاهات وبسرعة عجيبة كأجزاء القنبلة المنطلقة ، أو كحركة تنفّس صدر الإله برهما العظيم ؛ وفي كل يوم أو كل ساعة يولد كوكب أو يتوارى نجم في مدى اللانهاية المنحني المحدود

un univers limité mais infini — la courbature de l'univers

وعلى ضوء هذا العلم المتقدّم ، وفي تطلعاته وتأمّلاته ونظريّاته ، مصادر جُلّى للرَّوعة والتسبيح ، وكأنّنا ننظر في أعماق ذاتنا إلى العين الجوهريّة الّتي منها ننبع وإليها نعود ؛ وتتثبّت للشباب المثقّف الاتّجاهات الكبرى لتطور الاعتقاد العام وأصول العمل البشري والدين ذاته في الحِقب المقبلة علينا في القريب العاجل . وربّما يصحّ لنا الإيمان بغير مقاييس الدين العاديّة ، وبالعودة إلى جوهره وإلى عرفانه ومذاهب حكمة محقّقيه ومتصوّفيه وأوليائه . وهل نستطيع في النهاية أن نعتمد على الحرف الأعمى والآية الجامدة والنهي الصنم المجرّد عن أسبابه وعلّته وأهدافه واعتمالاته ، دون الرّجوع

إلى الاختبارات الروحيّة الكبرى التي تشخّصت في حياة كبار الأنبياء والمتحقّقين والحكماء والأولياء والمتصوفين في كلّ دين ، لِنَغْرُفَ منها ونستوحي حقيقة التديّن والدين ، فتصبح الآية نموذجاً حيّاً بِمثالاتِها بيننا . وتتوضّح إذ ذاك رموز وأسرار وعللُ هذه المفاهيم الدينيّة والروحيّة ، تماماً كما أنَّ الاختبارَ هو محكّ المعادلات والعلاقات والاعتمادات في حقل العلوم الماديّة .

وهكذا وامتداداً لهذه المشارفة ، وتطلُّباً لها ، واستقطاباً لأكناهِها ، تبرز أهميّة دور الشباب المثقّف في المجتمع القائم وفي الحضارة وفي مستقبل الإنسان ، كفروسيّة حقيقيّة بالنسبة للعصور الحديثة .

وكيف ينتظم المجتمع أو تستقيم أموره أو كيف تصلح شؤون الوطن وتنمو في الاتجاه السليم ، وكيف تتصوّب مفاهيم الحضارة ومنجزاتها وخطّة سيرها وتطورها ، إذا لم تتوفّر النخبة القائدة الموجّهة لأجل ذلك ؟

وأْذنوا لي هنا أن لا أتكلّم عن لبنان بشكل خاص وعن الواقع العربي ، بل عن العالم بأسره ، الذي لم تعد مشاكله ومعضلاته تتوزّع وتختلف بين شعب وشعب آخر ؛ ويمكننا لأوّل مرّة ربّما في التاريخ أن نواجه هذه المشكلات والمعضلات من حيث نحن ، من أي بلاد ، أي من بلادنا ، من لبنان ومن

أيّة زاوية من العالم الفسيح :

إن النخبة القائدة قد لا تكون هي التي تخلق الحضارة والتاريخ ، إلاّ فيما تستوضحه وتبدعه من مفاهيم وأفكار جديدة وتقدميّة وقيم حياة وموت ، لإنّ الحضارة والتاريخ — على غلبة توجّهها بتخطيط القائد وبأهدافه ونهجه حتى كأن التاريخ يُطبَعُ بطابع الأشخاص لا بطابع الجماعات — هما ، أي الحضارة والتاريخ ، في النهاية فعل مشترك وعمل جماعي تعاوني ، اشتراكي بكلّ ما للكلمة من معنى ، في مختلف مراتب ومستويات المهن والحرف والنشاطات الماديّة والمعنويّة للإنسان . على أنّكم تتصوّرون مثلي ماذا كان يفيد هذا الفعل المشترك ، وهذا العمل الجماعي في شتى ألوان نشاطه الماديّ والمعنوي ، لولا وجود أو بروز صانع ماهر مبدع في هذا المستوى وعامل كفؤ نشيط في ذاك ، أو ربّ عمل مقتدر في ذلك المصنع أو المتجر أو المحترف أو المصرف ، أو مهندس مبتكر منظّم جدّي في المختبر والمعمل ، أو رجل إدارة عالي الهمّة في هذا الحقل أو ذاك ، وسياسيّ متفهّم وقائد جريء وحكيم ، وربّ عائلة حسن التدبير ، وشيخ أو كاهن فاضل ، وصاحب مدرسة متقن للتربية والتعليم ، وهكذا إلى ما لا نهاية في هرم تكوين المجتمع وفي شتى مضامين قيادته وتوجيهه . وكيف يستقيم الصنع بدون الصانع ، أو يتصوَّر

AUB LIBRARIES

الخلقُ والنهج الحسن بدون توفّر كفاءة الخالق والناهج والمصوّر : وإنّما بداية العمل البشري ومباشرته تبدأ في العقل أولاً ، لا في الأيدي التي يتبع عملها مبادرة العقل وتخطيطه .

وكثيراً ما نتحدّث عن الجماهير وقوّتها وقدرتها ، ولكنّ الجماهير لا تستطيع شيئاً إن لم تتوفّر لها في جميع المستويات النخبة القائدة التي تضمّها في إطارات التنظيم والإرشاد والأمر والتوجيه .

وهكذا بالنسبة للأحزاب السياسيّة ، فكيف تستطيع هذه الأحزاب أن تجمع الشعب في خلاياها وإطارات نظامها وحلقات تكوينها ، إن لم تتوفّر لهذه الأحزاب القيادات الرئيسيّة والثانويّة والفرعيّة لأجل تمكينها من بلوغ غايتها في تجمع العدد الضروري من الشعب ، لتمكين هذه الأحزاب من التحرّك نحو أهدافها ؟

في السابق وفي الماضي ، وفي مرحلة القرون الوسطى بشكل خاصّ ، بعد أزمة انحلال الأمبراطوريّات الكبرى وانفراط عقدها ، أخذت تتكوّن قيادات شعبيّة بدهيّة من وسط الجماهير ، تبرز في مجال الجهاد الشخصي أو العائلي أو القبلي، أو نتيجة لتسلّم مسؤوليّة مدنيّة أو عسكريّة ، وفي هذا البروز شيء كثير من طباع الشجاعة والفروسيّة معظم الأحيان ، فيتجمّع النّاس حول هذه المبادرات المنطلقة الحيّة ، لحماية

أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم ، ولصيانة أمنهم وعلاقات بعضهم ببعض ، من الفوضى ونتائج هذا الانحلال والتبعثر .

ويمضي عهد تبزغ فيه هذه القيادات وتنمو من أصول عميقة في النفس ، من مبادىء الشرف والشجاعة والمسؤوليّة والحنكة والحكمة والتدبّر والنظام والشهامة والمروءة . وكان واحدهم لا ينفصل عن جماعته ، فهو الأوّل بين الأقران Primum inter pares يتقدمهم في ساحات التضحية والنضال ، ولا ينسى أنّه من صلب هذا الشعب الصغير انتشأ وارتفع ، تربطه بهم علاقات الواجب والمسؤوليّة ، فيربّي أولاده بين جمهور الكادحين لكيلا ينسى علائقه المعنويّة والرحميّة والقياديّة ، ولا تجنح به انسفالات الغرور والكبرياء والجاه والعتوّ . هي أرستقراطيّة السيف والشرف ، النابعة من صميم جهاد الإنسان لأجل إخوانه ومواطنيه ، يمحضهم ولاءه ويفعمونه ولاءهم ، فهم وهو مجتمع صغير عضوي كامل نسبيّاً في تركيبه . والنسبية دائماً هي القياس الملازم للمكان والزمان ، وتفاعلهما بما يكون عليه الإنسان من مظاهر لطاقة الحياة فيه .

ونشهد ، في مختلف المستويات ، تنظيماً حيّاً رائعاً يتمثّل في المهن والحرف بالتفاف الرفاق المريدين الطلاب compagnons-aprentis حول المعلم Maître أو وكيله ، ويشيع

لون العدالة في تقييم الأسعار والأجور وتجميدها ، وتوضع أصول ومباريات لاجتياز مختلف مراحل المهنة ، وللحفاظ على أسرارها وتقوية الضمير المهني وصيانته ، إلى ما هنالك من توضيح لمختلف علاقات المجتمع بعضها ببعض . وتبدو هذه الوحدة المهنية أو الحرفيّة آية في التنسيق والتعاون العمالي ، كأنّها مقدّمة ومثال للتعاونيّات الاشتراكيّة العماليّة كما نتصوّرها ، وكما ستؤول إليها الاختبارات الحيّة في البلدان الماركسيّة ذاتها .

كما أنّه نمت ، في تلك الحِقَب ، البلديّات التي ما زلنا لا نستوعب أهميّتها في مجال الحكم الشعبي والتنظيم المباشر . ولم تكن الأبنية البلديّة والجامعات العلميّة والكاتدرائيّات ، وروائع النحت والتصوير، ونتاج الحرف ، والحياة الرهبانيّة الصحيحة ، إلاّ من عناوين تلك الحقبة من التاريخ .

على أنّ الأشياء لا تلبث أن تتبدّل ، وسنن التغيير والفساد لا تفتأ أن تفعل في أجهزة هذا التكوين الاجتماعي القروسطي ، مبتدئة بنواحيه الضعيفة ، وخاصّة في إطار القيادة والتوجيه ، حيث تتغلّب تدريجيّاً الحظوة والمحاباة والتحيّز والتساهل والتخاذل في أداء الواجب وفي صيانة الشرائع والسُّنن . ومصدر هذا الوهن والزّلل أنانيّة الإنسان ذاته ، وقد تبرز وتظهر في مراحل السلم والاستقرار أكثر منها في مراحل

الجهاد والتنظيم والاستعلاء فوق صغائر الأمور . وإذ ذاك يفسد النظام ، ويتوقّف عن التطور . وتجمد فيه روح الحياة بسبب فساد القيادة التي توجهه وتحميه . وقد يظهر في الوضع الاقتصادي والاجتماعي أحداث تطرأ فتبدّله ، كما حصل في أوروبا بعد اكتشاف العالم الجديد ، وتدفُّق أنهار المعادن الكريمة على شعوب أوروبا ممّا أدّى إلى ارتفاع أسعار المعيشة والمنتجات ، وفاض بالخير العميم والثروات الطائلة على التجار وسماسرة البيع والشراء ، فتقوّضت أركان العصر القديم بسرعة مذهلة .

وفي العصر الذي نعيشه والمرحلة التي نجتازها ، وخاصّة في أوروبا ، تبلبلت هذه القيادة الاجتماعيّة وتنوّعت مصادرها : ففرع منها كان لا يزال يفيد من طاقة الاستمرار القديم في أيّام النظام القروسطي ثمّ في نظام الملكيّة ، وفرع برز بواسطة قدرة المال وجاهه ، على أنّه امتياز لقوم في غلوائهم يعمهون ، ثمّ كان للغوغائيّة الشعبيّة دورها بواسطة الانتخابات النيابيّة ، حيث يتوفّر الانتخاب ولكن لا يتحقّق معظم الأحيان الانتقاء والاختيار ، في تعلية أناس إلى مراكز القيادة السياسيّة الخ . على أنّه أخذت تتبلور وتظهر في هذه المرحلة القيادات الفكريّة والثقافيّة والعماليّة ـ ولا ننسى أنّنا عشنا في عصر لينين وهتلر وستالين وموسوليني والمهاتما

غاندي وماوتسي تونغ وفرنكلين روزفلت وتيتو وأتاتورك وبيرون وسالازار ، كما نعيش اليوم عهد الاشتراكية الناصريّة . .

بيد أنَّ بروز المثقفين في حقل مختلف القيادات الاجتماعيّة لا يزال ضعيفاً . ويعود ذلك من جهة إلى التربية العامّة التي لم توفّر للطالب مكنات التفتح والتنمية الكاملة لمقدورات شخصيّته ، ولم تُعنَ به معظم الأحيان إلاّ من زاوية شحن ذهنه بالمعلومات وتكديسها في ذاكرته ، لا تنظيم عقله وصقل مشاعره وشحذ إرادته ، وإنبات أصول وبذور شخصيّته ، بحيث يستوحي في الحياة بداهة وعفويّة مبادىء ونهجاً وشعوراً اجتماعيّاً مسؤولاً ، ونزعة طبيعيّة للطاعة والتوجيه والتوجه والقيادة .

ومن جهة أخرى ، لم يكن لدى المثقفين رغبة صادقة في تكوين أنفسهم كما يتوجّب ، وفي مباشرة تربيتهم بأنفسهم في سياق معنى القيادة وشرفها وشرف الخدمة العامّة ، بل كان معظم همّهم التعلم لأجل بلوغ وظيفة أو تحصيل التميّزِ بجاه ، على نمط التفكير التجاري البرجوازي تماماً . وهكذا تحوّل أكثر المثقفين إلى طبقة أرستوقراطيّة برجوازيّة جديدة ، لارتباط مفهوم الثقافة عندهم بالأنانيّة والمصلحة الفرديّة ، وانفصلوا بشعورهم وبتفكيرهم وتوجّههم عن

AUB LIBRARIES

الشعب وعن مصالحه الأساسيّة ، وأخذوا يقلّدون أرباب المال والجاه في عاداتهم وسبل عيشهم وتصرّفاتهم وإقبالهم على التلهّي وضياع الوقت سدًى ، وهؤلاء بدورهم يقلّدون كالقردة من تجلّت به من الغربيين مفاسد الغرب وعاداته السمجة دون جدواه وفعاليّته ومحاسن المبادرة فيه والعمل .

وقليل من المثقّفين ، في بلادنا ، من يستطيع أن يكون مختاراً في قريته أو حيّه أو عضواً في بلديّة بلدته ، نتيجة هذا التأفّف والانفصال والابتعاد .

وفوق ذلك ، نرى أنّ معظم المثقفين قد تخلّوا في نهجهم الذي يسمّونه «تحرّراً» عن أخلاق وآداب وتقاليد ذويهم السليمة المستمدّة من حضارة شرقيّة عربيّة هي أعمق أصالة من هذا النفخ والدفق الأوروبي السطحي المريب ، كما أنّهم حاولوا التخلّص من هذه الروح الاجتماعيّة التي تربطهم بالعائلة الصغيرة والكبيرة والبلدة ، وتمحض علائقهم بعضَهم ببعض بطابع الشخصيّة الفرديّة غيرِ المنفصلة عن الشخصيّة المجتمعيّة في جميع المستويات ، وهكذا فقدوا ما هم عليه ، ولم يتعلّموا ما هو عليه سواهم . كالغراب ، على حدّ المثل الدارج ، الذي قلّد مشية الحجل ، فلم يتعلّم مشيته ونسي في الحين ذاته مشية الغراب .

وسنلمس خطر فقدان أو ضعف هذه الحلقة القياديّة في المجتمع يوم يسيطر التكنوقراطيّون على مقاليد الاقتصاد والسياسة ، فيبتعدون بالقيادة عن المفاهيم الإنسانيّة التي نتصوّرها مثالاً لما نبتغيه ونرتضيه ؛ وإذ ذاك تبرز حاجتنا للنخبة الحقيقيّة لتُنقذ أوضاع المجتمع المتطوّر من الآليّة التكنوقراطيّة المتعامية ، في تخصّصها وفي مغالاتها في هذا التخصّص ، عن النظرة الصحيحة الشاملة للإنسان .

إنّ ما أوضحناه من ظروف الحياة الاجتماعيّة وعللها وعلاّتها في هذا المنعطف المنتقل من التاريخ ، هو ناجم ، في الواقع وبالحقيقة ، عن فكرة خاطئة للمساواة بين أفراد المجتمع. لقد أطلقت الثورة الفرنسيّة شعار المساواة ، في ردّها على أنظمة القرون الوسطى الجماعيّة ، فأفسدت به مفاهيم الديموقراطيّة في الغرب وطرق مزاولتها وممارستها ، وفشلت الأنظمة البرلمانيّة في عدد من البلدان نتيجة هذا المفهوم الفردي المطلق للمساواة ، ولم نعرف بعد أن نتحرّر من هذا الخطإ الأصلي في تقييمنا للأمور وفي مواجهتنا لمجتمعنا . ولم يتوفّر بعد ، للأنظمة الماركسيّة القائمة ، أو النازيّة الفاشيّة المنقرضة ، أن تصحح هذا المدلول ، بما أشاعته من مواصفة اجتماعيّة للمواطن ومساواة عضويّة لا حسابيّة .

وفي الواقع وبالحقيقة ، إن النظريّات النازيّة والفاشيّة ،

بالرغم مما حملته من تطرّف غير إنساني ومن عماهة في التصور والتطبيق، ومن انحراف في تأليه القوميّة والعنصريّة، كانت تتضمّن بذور أفكار صحيحة، وستبرز صحتها أكثر فأكثر في المستقبل القريب والبعيد. فالناس ليسوا متساوين: إنّما يجيئون إلى هذه الحياة بطاقات وراثيّة جسديّة وعقليّة ونفسيّة مختلفة. فقاعدة «مندل» للوراثة تلعب دورها الكبير في تكوين الكائن البشري الحي الذي نحن إيّاه. ومن يخالف قاعدة الطبيعة وشرعتها، لا بدَّ أن تقتصّ منه الطبيعة عاجلاً أم آجلاً. فكما أنّه لا يمكننا أن نصنع من أي شخص كان طبيباً أو مهندساً أو فيزيائيّاً أو فيلسوفاً أو راهباً وشيخاً، كذلك لا نرى إنساناً واحداً مماثلاً أو مطابقاً لإنسان آخر. إنّما سنن الطبيعة هي في خلق تنوع من الكائنات البشريّة ضمن الوحدة التي تضمّهم والتي هي جوهر الإنسانيّة وماهيّة السلالة.

طبعاً يجب أن تقوم هنالك «مساواة جوهريّة في الحقوق والواجبات»، كما ينصّ على ذلك ميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي، وفيما يتعلّق بمظاهر هذه الإنسانيّة وتحقّقها فينا. ولكنّ هذا المفهوم للمساواة الجوهريّة الأساسيّة يبطّنه ويلازمه مفهوم آخر إيجابي للمساواة العضويّة الحقيقيّة القائمة بين الناس يفرض:

– « العدالة المستوحاة من الإخاء والتعاون والتضامن . » لا العدالة في المعنى المعمول به حاليّاً . .

– « احترامَ جميع حرّيّات الفرد المحدودة بحريّات الآخرين وبمقتضيات الخير العام . »

– « المساواةَ السياسيّة بين المواطنين ، على أن تؤخذ بعين الاعتبار قيمتهم وإمكانيّة انتفاع المجتمع بهم .

– « وضعاً معتدلاً متوازناً ، آخذاً بالتنوّع في الوحدة وبالفرديّة النازعة إلى تحقيق الشخصيّة .

– « تضامناً أخويّاً يكون نتيجة للتخصّص الوظيفي ولرتبيّة مرتكزة على تفاوت المواهب بين المواطنين .

– « ضرورة الشخصيّة القائدة الخلاّقة . »

وتبرز هذه المفاهيم جميعها خاصّة في « تنظيم الجماعة بقدر المستطاع وفاقاً لهيكلها الطبيعي ، أي باحترام التكتّلات العفويّة للناس حول مصلحتهم أو نشاطهم بغية نظمهم في الدولة ، فلا تكون الدولة سوى تمثيلٍ للجماعة بواسطة المؤسّسات الكافلة تحقيق غاياتها الاجتماعيّة ، وتكون الحكومة تاج البناء الذي انبثق عن الجماعة المنظّمة هذا التنظيم » .

ما أبعدنا في هذا عن الديموقراطيّة البرلمانيّة في مفهومها العاديّ الشائع الساذج المؤسّس على فكرة الفرد ، لا فكرة المواطن أو الإنسان الاجتماعي . فالجماعة هي التي يجب أن تُمثّل

لا الأفراد ، دون أن نجنح إلى النظريّات الكليّة التي سادت فترة واحتجبت .

وفي هذا المجال من الاسترسال ، تبدو الأحزاب السياسيّة كما يجب أن تكون عليه ، لا كما يُقصد فيها في الأنظمة الديموقراطيّة والبرلمانيّة من تجمّع حول شخص أو مبدأ ، بل أجهزة ضروريّة لتنقية المواطنين واختيار أفضلهم في سلّم رتبيّة ونضال هذه الأحزاب ، في عملٍ للتنقية والاختيار والاختبار تبرز من خلاله القيادة والنخبة : « إنّ الأحزاب أجزاء وأعضاء ضروريّة في تطوّر حياة الشعوب ، ولكن عليها أن تتنزه أي أن تتصوّف ، بحيث تنصهر فيها الأفراد والجماعات على أساس فكرة اعتقاديّة واعية مجرّدة . . فالأحزاب من هذه الناحية ، ينبغي أن تكون أشبه شيء بالهيئات والمؤسّسات والجماعات العلميّة أو الروحيّة الكبرى . . ومن فكرة هذه المؤسّسات ونزعتها في التزكية لعمل ما ، أنّها تستبعد كلّ غاية من ورائه ، سوى التضحية والنفع العام وخير المجتمع والبشريّة عامّة . . »

لقد ارتدت التجربات الماركسيّة والاشتراكية الكبرى طابعاً من الجدّة والاستثارة ، لأنّها أسهمت في تجديد القيادة الشعبيّة والسياسيّة ، بشكل فيه لون من الابتكار ، وكان لنضاليّة الحزب الواحد سهم في ذلك . كما أنّنا نعتقد أنّه لا

AUB LIBRARIES

يستبعد أن يكون سبب التفوّق والازدهار الأميركي هو في تمكين المجتمع من تبديل قيادته بصورة ذاتيّة دائبة ، وفي مبدإ المسؤوليّة الواسعة التي أضحى من التقليد أن يتمتّع بها كلّ ربّ مؤسّسة أو صاحب عمل أو رئيس جماعة تماماً كما يتمتّع رئيس الولايات المتحدة بسلطة تنفيذيّة هائلة .
ولا شكّ أنّه كان لصوفيّة العمل في المجتمعات الاشتراكية أثر كبير في تكوين القيادات وإبرازها . فالعمل المادي هو أفضل محكّ لطاقات الإنسان ، وأفضل حقل لإظهار مكناته وصقلها وترويضها . كان المهاتما غاندي يقول ما معناه على ما أذكر : إنّني تعلّمت كثيراً لأنّني أكنس غرفتي .

مشكلة الديموقراطيّة في لبنان هي مشكلة انعدام القيادة تقريباً في جميع المستويات . .

مشكلة الديموقراطيّة تكمن في ضعف إسهام المثقّفين إسهاماً إيجابيّاً وجوديّاً ، لا إسهاماً انتهازيّاً أو إلهائيّاً ، في تكوين إطارات الأحزاب السياسيّة ، وطبعاً الاشتراكيّة منها ، لِتتمّ حلقة الاتصال في جميع مناطق لبنان مع جماهير الشعب الكادحة والمناضلة ، ولكي يمكّن هذا الانسجام في الإطارات من تجديد القيادة الشعبيّة . كما يولّى عليكم تكونون .

كثيراً ما نُصغي إلى الانتقادات ترسل جُزافاً للسياسة ، للإدارة اللبنانيّة ، للمجتمع ، أو لا نسمع شيئاً من ذلك ، لأن

AUB LIBRARIES

بعض روّاد الملاهي وعشّاق الرقص والموسيقى العبديّة الإفريقيّة أو متفرنجي الصالونات يعيشون في بلد غير البلد اللبناني ، لا تربطهم بهذا الوطن علاقة لا لبنانيّة ولا عربيّة ولا شرقيّة ولا قوميّة ولا اجتماعيّة وحتى ولا إنسانيّة ، وقد قلّدوا الكوسموبوليتيّة في أسخف ما تكون عليه .

إنّنا نحن وسط المعركة ، ولنا شرف ذلك ، لسنا مستعدين أن نسمع انتقاد أحد لا يقوم بادىء ذي بدء بواجبه الاجتماعي والسياسي الكامل .

إنّنا نخطىء ولا شكَّ أحياناً فيما نعمل ، ولكنّ من لا يعمل لا يخطىء . وما هي قيمة الإنسانيّة فينا والرجولة النابعة من صميمها إن لم نتجرّأ على فعل الصواب وعلى الاعتراف بالخطإ بتواضع طبيعي دائماً وأبداً ؟

يرتفع اليوم نداء الفروسيّة فينا ، فروسيّة العصر الجديد ، التي بها وحدها يتجدّد شباب هذا العالم الهرم . لأنَّ مشكلة الأنظمة ليست بشيء أمام مشكلة النفوس . هو نداء الحياة ذاتها التي تنزع بطبيعتها إلى اختيار الأفضل وانتقاء الأصوب ، وإلى ارتفاع النخبة دائماً وأبداً ، إذا تركنا الحياة تقوم بعملها الصامت ، أو إذا مكنّاها من ذلك ولم نعتمد آراء في الديموقراطيّة وفي الثقافة وفي الإنسان هي أبعد ما تكون عن الديموقراطيّة الحقيقيّة وعن الحضارة الأصيلة وعن الإنسان .

نداء الفروسيّة ، هل سنسمعه بآذاننا وقلوبنا ، قبل أن يفوت الأوان وينقضي جيلنا ، وتواجهنا الأحداث بالمحن والكوارث التي نكون نحن قد صنعناها بأيدينا ؟ ويجب أن لا يفوتنا أنّنا نحصد ما نزرع ، في شرعة للسببيّة النفسيّة والواقعيّة ، هي ذاتها امتداد للسببيّة الشاملة التي تتحكّم بجميع العلاقات القائمة بين الأغراض الحسيّة .

إن شعب لبنان ينتظر أن لا يظلّ معظم المثقّفين منزوين في أبراج تفكيرهم الفردي ، وعزلتهم المعنويّة والواقعيّة عن مجتمعهم ، بسبب عيشهم في حلقات اجتماعيّة صغيرة مستوردة من خارج بلادهم ، كأنّهم في واد والشعب في واد آخر . لتكن سنة ١٩٦٦ نقـ ـحوّل في إقدامهم على المركب الصعب والمغامرة الإنسانيّة الاجتماعيّة . وهل يصحّ أن نفكّر بأنانا الصغيرة المحدودة وبمصيرها المغلق ، ولا نفكّر بخلاص وبمصير الآخرين ؟

ألقيت في النادي العربي

التربية المدرسية والاجتماعية

إنّنا اخترنا هذا الموضوع لسببين جوهريين :

أوّلاً : لأنّ التربية لا تنفصل عن كينونة الإنسان ، أي عن تفتُّح مقدوراته ، وتصوّره شخصاً ومواطناً وعقلاً متقصياً ومتفهماً ومنظماً ومبدعاً ، وقلباً ينبض ويتحسّس بأرفع مشاعر الحياة وبالمحبّة الجامعة لها جميعاً . والشعور لا ينفصل أبداً عن العقل ، فكلاهما وجه وكشف ومظهر لحقيقة الإنسان ذاته وطريق ونهج للوصول إليها . وقديماً قيل : الإنسان يدرك بالعقل ويفهم بالقلب .

وهذا العقل والشعور الملازم له ، والمنبثق من مصدره ومن ينبوع تنزُّله ، يفرض العناية به والإقدام الدائب على تنميته وصقله وإبراز مقاييسه ومعاييره ، وفق ما توحي به أصالة شرعتها الطبيعيّة الدفينة ، وما يستنبطه العقل منها في تفاعله مع أغراض الحواس .

ثانياً : لأنّ المرحلة التي نمرّ فيها في سياق التطوّر القائم

AUB LIBRARIES

تفترض هي أيضاً العودة إلى مواجهة التّربية المدرسيّة والاجتماعيّة مواجهة جديدة جدّيّة ، فيما نعانيه من انفلات مقاييس المدنيّة وفوضى توجّهاتها ، وعماهة ما ينشره ويعمّمه هذا الاقتصاد الرأسمالي التجاري المتحكم بمصير الشطر الأكبر من العالم . ولأوّل مرّة ربّما في التاريخ ، ونتيجةً لهذه المفاهيم الخاطئة للحريّة الفرديّة وللحضارة وللتمتع وللعيش ، يشهد الإنسان المعاصر هدم التقاليد ، وانهيار علاقاته بالعائلة وبالمجتمع وبالتّراث وبالتاريخ ، في سرعة مذهلة من التبدّل والتطوّر يفسّرها فعل الإذاعة والسينما والتلفزيون والكتاب وانعدام التّربية في المدرسة الحديثة وتفاقم الملاهي وفسادها ، وابتعاد الإنسان عن الطبيعة ، وسيطرة الآلة المتزايدة والدعاية التجاريّة على حياته . وانفصاله أكثر فأكثر عن التعاليم الخلقية والدينيّة وعن التقليد السليم .

والتّربية المدرسيّة لا تنفصل أبداً عن التّربية الاجتماعيّة والمدنيّة . وقد نسينا أو تناسينا ، على ضوء بعض المفاهيم الخاطئة للعقائد الديموقراطيّة ، أنّ الإنسان يظلّ تلميذاً طوال أيام حياته ويكمل تهذيبه وتثقيفه وتربيته ما زال حيّاً . ويجدر ، في هذا السعي والاتجاه والمواجهة ، أن نعود إلى المفهوم الشرقي واليوناني الأصيل لمفهوم التّربية ، فندرك أنّها يجب أن ترافق الإنسان منذ نشأته حتّى وفاته ، فتلازمه دائماً وأبداً كشرعةِ حياته

ذاتها ، ولا تتوقف عند بلوغ الفتى سنّاً معيّناً . وكيف يستقيم أمر الجماعة ، وتستوي شؤون العائلة والمهنة والمجتمع والدولة والبشريّة ، إذا لم تتوفّر للإنسان المواطن هذه الإطارات المعنويّة وهذه الضوابط من الشرائع والتقاليد السليمة ، وهذه الأقنية من العادات والتصاميم الصحيحة النابعة من التجلّي الدائم للإنسانيّة في هذا الحيوان الناطق ؟

وإن لم تتخذ الدول والشعوب الحيطة في معالجة شؤون التربية وتنقية أجواء المجتمع العصري ، وإخضاعها للتوجيه المناقبي والروحي الصحيح ، فإن العالم سيشهد انهياراً شاملاً للمجتمع وللإنسان وللحضارة ، وستقع كارثة أخطر وأشد فتكاً من الحرب النوويّة ذاتها . ولن يفيد إذ ذاك التلهّي بنتاج التطبيقات العلميّة الأخيرة ، والتسلّي بمقدورات المدنيّة الماديّة . لأنّ الروح الإنسانيّة تكون قد غادرت سطح هذا السيّار المتجوّل ، فتركت أبناءه فريسة للتناقض والتناحر والكبرياء والأنانيّة ، ومرتعاً للشقاء والضجر والفوضى ، تماماً كما نتخايل كوكباً جامداً ميتاً قبل موت ساكنيه . وهل يعيش الإنسان حقّاً إلاّ بما فيه من روح إنسانيّة متألقة متفتحة نامية عامرة ؟

وقد أبرز الحزب التقدمي الاشتراكي ، في جملة عدد كبير من البحّاثة والمفكّرين والقادة المسؤولين ، الحقيقة التالية : إنّنا لم نأت إلى الحياة لكي نستهلك ونلهو ونشتري ونبيع ،

أو أن نعيش كالحيوان بغرائزنا وسطحيّة نزعاتنا الحيوانيّة وبساطة وظائف أجسادنا . وإنّما الحيوان ذاته ، من خلال نداء التطور الغالب ، ينزع فينا إلى أن يصبح إنساناً . فهل نستطيع أبداً أن نسكت نداء الإنسانيّة فينا ومطلبها منّا ، وأن نقف في وجه صيرورتنا بشراً سويّاً ؟.. هذا من منطق المحال .

إنّما نحن — في مسلك التطوّر ذاته « أداة مكلّفة في الواقع بتحويل التيّار الحي ، الزاخر بالإمكانيّات منذ فجر الحياة ، إلى فكر وشعور وإشراق وقيم حقّ ومحبة وجمال » .. « وإن الغاية الوحيدة لكلّ عمل ومؤسّسة بشريين هي تفتّح كامل متناسق لمقدور الفرد — وإن المجتمع في كل مؤسساته — ومنها السياسيّة — ليس في ذاته غاية ، بل وسيلة إلى بناء الإنسان » .

ونحن في الشرق العربي وبشكل خاص في لبنان ، حيث نتلقّف قشور ولباب الحضارة الغربيّة ، ونعيش في أجواء هذا الاقتصاد الحر المزعوم المنفلت من جميع قيود الروح والمناقبيّة ، نشعر بخطورة أوضاع التربية المدرسيّة والاجتماعيّة المتردّية ، ونشعر بأنّنا نواجه انهياراً عامّاً شاملاً لجميع مقوّمات المجتمع والدولة ، وسط ازدهار يدفعه وينميه ويغلّفه فساد هذه الثروات التي تنتقل إلينا بدون جهد من كنوز العالم العربي السائلة .

فعلينا أن نواجه المشكلة المتفاقمة بقوّة وبوضوح وبصراحة .

وفي رأينا أنّه لا يمكن تركيز أي منهاج للتعليم والتربية على أساس المفهوم الفردي بل على أساس المفهوم الاجتماعي المناقبي الروحي للإنسان . فالفرديّة التي بلغت أوجها في بعض الدول المتقدمة تقنياً ، وصلت في الواقع إلى القمّة التي منها ستبدأ بالهبوط والتبدد والاضمحلال . والردّة الاجتماعيّة التي تشخّصت في التاريخ الحديث بقيام الأنظمة الكليّة ، ماركسيّة ونازيّة وسواها ، تدل حتماً على أن البشريّة اقتربت من دور تجمّعها الخطير في داخل الإطارات القوميّة والإقليميّة والكونيّة على السواء ، وأنّ هذه الردّة الاجتماعيّة ، في شكلها المعتدل السليم أي الحقيقي غير المتطرف ، ستعم وتشمل تدريجيّاً جميع أنحاء العالم وشعوبه .

ولكنّ نموّ هذه الردّة الاجتماعيّة وانتشارها وسيطرتها يختلف بين شعب وشعب آخر ، بالنسبة لسنّ هذا الشعب ، تماماً كما هو حال سن الفرد في شتى مراحل نموه وحياته . وللشعوب مراحل للحياة كما للأفراد — من طفولة وشباب ويفاع وكهولة وشيخوخة . . وكذلك للجنس البشري ذاته — وهو خامس جنس بشري على ما يظهر يبرز على وجه الأرض في إثر السلالات البشريّة الأربع المنقرضة .

من هذا المرتقى يصحّ لنا أن نقرّر الأسس الرئيسيّة التي يجب أن ترتكز عليها التربية المدرسيّة الصالحة لجيلنا وللمرحلة

الحضاريّة التي نحن قادمون على بنائها :

أوّلاً : انطلاق التعليم من قاعدة أساسيّة لما يسمّونه العلوم الكلاسيكيّة الإنسانيّة ، التي بدونها لا يمكن توفير التنمية المنسجمة والصقال لطاقات الفكر ولشواعر القلب . والإنسان كلّه في النهاية في هاتين الكلمتين : عقل وشعور . ويجب أن تشمل هذه العلوم الأساسيّة روائع إنتاج الشعر والأدب العربي والشرقي والعالمي ، والتعرّف إلى الفنون الجميلة والموسيقى فيما أبدعته من قيم إنسانيّة خالدة . والتخفيف ما أمكن من تواريخ الآداب غير المتطوّرة ، فقد يضيّع الطالب فيها بدون لذّة وبدون جدوى أفضل ساعات دراسته . وحيث أن التراث الشرقي والعربي في المفهوم الواسع للكلمة هو أغنى وأوفر خصباً وتميزاً وأرحب إنسانيّة وتراثاً مبدعاً من أيّ أدب آخر . فبالطبع تكون نسبة الدراسات الأدبيّة الشرقيّة والعربيّة أكبر من نسبة الآداب الأجنبيّة . ولا بدّ في نظرنا أن يُقبل الطالب على إتقان فن من فنون الموسيقى التي يرتضيها أو يختارها . فللموسيقى أهميّة بالغة في تفتيح مكامن الشعور الحياتي في الإنسان ، وفي توسيع أُفق بصيرته وتعقّله ، وفي إعطائه هذه الصفة الإنسانيّة المتفهمة لمشاكل الآخرين ومثالاتهم وتوقهم ، وفي تعريفه إلى مناخات وألوان من الجمال يصعب عليه أن يعهدها بدون ذلك . هذا فيما يكون للموسيقى من أثر بارز في إراحة الأعصاب وتهدئة

AUB LIBRARIES

الفكر وبالتالي تحدُّدِه وخزن طاقاته ، كما للموسيقى تأثير بالغ في تهذيب الغرائز وترفيع نزعاتها وتنمية المواجهة العقليّة والشعوريّة الروحيّة في الإنسان .

وفي هذا المجال ، يجب أن نتلقّن أكثر من درس في أصول التربية من اليونانيين الأقدمين .

وكما يُرى فإنّنا – في نقيض التفكير الحديث القائل بضرورة إدخال العلوم أكثر فأكثر على حساب الأدب والعلوم الإنسانيّة . وهذا لا يجعلنا في أيّ حال ننتقص من فائدة وأهميّة العلوم ، كما سنرى ذلك في محلّه .

وقد أشار ميثاق الحزب التقدمي الاشتراكي إلى هذه المواجهة في إعلانه :

« اعتبار العقل قيمة بحدّ ذاته وموضوعاً لكرامة الإنسان ومرتكزاً لكل نشاط بشري ، وقدر المعرفة مقياساً لكلّ عمل إنساني ومصدراً للحريّة والغبطة .

« المعرفة حقّ للشخص الإنساني وواجب عليه .

ونعني بالمعرفة طبعاً المعرفة أو العرفان الكامل الشامل لجميع مكنات وطاقات الإنسان قلباً وعقلاً وجسداً ، كما لا تزال تفهمها الفلسفة الشرقيّة ، بوصف هذا الإنسان كلاًّ لا يتجزأ .

« في التعليم الثانوي ، بتسليح الطالب بالذهن ، وتقوية حرمته عنده ، وحفزه إلى التعمّق بأسبابه وتدريجه باكتساب

AUB LIBRARIES

المعارف التي تؤلّف زبدة التراث العقلي والروحي كي يصبح آلة أخذ وإبداع معاً .

« بتنمية ذوقه باستثارة كوامن إعجابه بالجمال وحبّه للحقيقة . »

وهذه المعرفة الحقيقيّة الصواب لا تتم في الإنسان إلاّ بتنفيذ المبدإ الجوهري التالي :

« بتقوية الذهن جملة بثقافة عامة غنيّة وبتخصيصه بغية أقصى الإفادة منه ، وبتدريبه على وضع كلّ فرع من فروع العلم موضعه كجزء من البناية الفكريّة الواحدة ، تدريباً يكون بدونه التخصص آفة » .

ويقضي هذا طبعاً بإنشاء جامعة نموذجيّة وبتأسيس وتشجيع معاهد عليا خاصة مستقلة للفلسفة وللعلوم والفنون ، وتزويدها بمستلزمات العمل .

وفي طليعة هذه المؤسسات يجب تركيز أسس سليمة موجّهة لدور للمعلمين تقتبس هذه المبادىء لتلقّنها من جديد .

ثانياً : ضرورة توسيع التعليم لكي يشمل علم الصحة الطبيعي والرياضة السليمة وفنون الترويح الصحيح عن النفس والإفراج عن راحة الأعصاب . وكيف ينمو الإنسان أو يعيش عيشاً ونموّاً سليماً ، وأعصابه متعبة مرهقة بسبب أخطاء يرتكبها في عمله اليومي ونومه وأكله وأساليب تصرفه وجلوسه

ووقوفه . وللموازنة وتقويم السلسلة الفقريّة ، كما لتنشق الهواء النقي الصافي الطلق ، واختزانه في الرئتين بما يكفي حاجة الأغشية والدماغ والأعصاب والأعضاء ، لكلّ ذلك أهمية كبرى في تنمية جسد الولد بشكل سليم وتكوين نفسيته ، وإنقاذه من مشاعر القلق والاضطراب والعبوس ومن كثير من الأمراض الطارئة .. فالعادات السيئة التي يكتسبها الصبي في هذا السنّ ، والعواطف المنقبضة التي تساوره وتلازمه أحياناً ، تنمي فيه بعض مركّبات النقص وبعض نواحي الضعف والمرض والخلل العضوي والفزيولوجي . وقد بدأ علم الصحة الحديث يدرك أهميّة ما أشرنا إليه من أصول وقواعد في معاملة الجسد ، ومراعاة الأعصاب وتوفير طاقتها .

وللمثل لا أكثر نلحظ أنّ مجرد انحناء سلسلة الظهر في الجلوس أو الوقوف ، والسير في غير الوضع الطبيعي المنتصب لهذه السلسلة الفقرية ، يتعب ويرهق الولد دون أن يدرك مصدر هذا التعب ومبعثه في أعضائه وأعصابه . ولذا تبرز أهميّة المقاعد المدرسيّة ، وجعلها ملائمة في الجلوس ما أمكن لوضع السلسلة الفقريّة التي تنطلق منها جميع أعصاب الجسد .. وكذلك للراحة الفكرية والجسدية قبل الأكل ، نظراً لارتباط أعصاب المعدة والرئتين ونشاط الدماغ . ولعلّ الصلاة قبيل مباشرة الطعام كان يقصد منها تهدئة الفكر والأعصاب علاوة

على مغزاها الروحي . . وكذلك النوم الباكر ، والراحة الفكريّة قبل النوم وبعده، وانطباق ذلك على سنن الأفلاك وطبيعة الحيوان فينا . ولا شكّ أن الصلاة قبل النوم عنصر من عناصر التهدئة والاطمئنان الضروري لمباشرة النوم ، وإطلاق الفكر من عقال تحرّكه المرهق طوال النهار .

ويجب أن تتجرّد الرياضة اليوميّة من مفهوم السباق والتسابق الذي تحوّلت إليه في الغرب ، فتعود إلى وظيفتها الطبيعيّة السليمة التي يقصد منها التنمية المنسجمة والمتناسقة لجميع أعضاء الجسد وتنقية الأعضاء من ترسّباتها ، وتوفير الحركة المنشطة المنعشة المعتدلة للأغشية والأعضاء الداخليّة للإنسان، واقتران هذه الحركة ، المطلِقة لوظائف الأعضاء والأغشية ، بما تحتاجه من تنشُّق الهواء الطلق النقيّ المحيي الذي تبرز أهميّته أكثر فأكثر في تغذية خلايا الجسد وفي القضاء على بعض الفضلات والترسّبات والسموم الناجمة عن عمل هذه الأعضاء ، وذلك بشكل يجعل من الضرورة الملحّة إعادة النظر بمفهوم الرياضة في مجملها . ولا بدّ في هذا الباب من اقتباس الكثير من أساليب وتقنيّة الرياضة في الهند والشرق الأقصى . فقد نستطيع مثلاً أن نبقى عدّة أيام صائمين ، وقد يكون في ذلك فائدة كبرى لإحراق واستنفاد فضلات الغذاء وترسّباته في الأعضاء والأغشية ، ولكننا لا نستطيع أن نظلّ دقيقتين متتاليتين بدون تنفّس . ولذا كان

النفَس دلالة وبرهاناً على الحياة واستمرارها في الجسد ، ومنه اشتقّت كلمة النَّفْسِ ذاتها وتوحّدت به . ولعلّ في معالجة هذه الشؤون يكمن سرّ معالجة الانحطاط الجسدي والشيخوخة الباكرة التي يواجهها الإنسان المتمدّن المعاصر .

ويشمل هذا النهج الرياضي الجديد ، علاوة على ما أشرنا ، وفي اعتمادنا مبدأ « العقل السليم في الجسم السليم » ، أي بالتالي تنمية قوى الروح والجسم معاً :

— « توضيح حرمة الجسد وترفيع القوى الحيّة وتحويلها إلى قوى نفسيّة واجتماعيّة خلاّقة وبنّاءة . » تماماً كما يتحوّل تيار الماء في انصبابه وجريانه إلى قوّة محركة تولد تياراً كهربائيّاً ونوراً . وكان لمسالك الحكمة القديمة والعرفان في مصر القديمة واليونان ، وخاصة في الهند والشرق الأقصى ، الفضل في إبراز هذه الحقيقة العلميّة ، بأن قوى الجنس أي الحياة في الإنسان قابلة لمثل هذا الترفّع والتحوّل الذي هو في الواقع من قواعد انبثاق وصيرورة التيّار الحيّ ذاته .

« بتعويد الولد ضروب الاعتناء بالجسد ، ودور النظافة مثلاً في تمكين الغلاف الجلدي المحيط بالجسد أن يقوم بوظيفته في إفراز الحوامض والسموم وفي تكوين منعة الجسد .

« بجعل علم الصحة والتربية المدنيّة مادتي درس وامتحان .

« بتحبيب النشء بالرياضة الطبيعيّة ، (أي الموافقة والملاءمة

AUB LIBRARIES

لطبيعة الوظائف الفزيولوجيّة) ، بما يؤمن له تنمية منسجمة للأعضاء وينحت خلقه ويبعث فيه البهجة .

« بإعادة الرياضة إلى جوّ الطبيعة وإلى ما وجدت له وظائف الجسد القابلة للتكييف بغية تطهيرها وزيادة نموّها .

« بالتشديد على العلاقة القائمة بين الرياضة والبهجة » الناجمة عن حسن انتظام وتآلف وظائف الجسد ، أي بالتالي عن الصحة في المفهوم الطبيعي للكلمة .

« بإيضاح التفاعل بين الجسد والقوى النفسيّة ، بحيث يفيد الواحد من تقدّم الآخر .

« بالتشديد على الإفادة فرديّاً واجتماعيّاً من نموّ الروح الخلقي الرياضي .

« بإبراز الناحية الجمالية للرياضة .

« بإجبار كل شاب وشابة على الانتماء إلى ناد أو أكثر .

« بإنشاء أندية رياضية بجميع فروعها ووضع مناهج خاصة للأندية ، إلى ما سوى ذلك .

ثالثاً : « جعل التربية قائمة على تفتيح المواهب ، لا على تكديس المعلومات ، وفاقاً لمبدإ : « رأس منتظم خير من رأس مشحون » ، وذلك مثلاً :

— « بإيقاظ وعي الشخصيّة وروح المسؤوليّة .

— « بتعريف الولد تدريجيّاً إلى التراث البشري ، فيكون

علم التاريخ مثلاً شرحاً متسلسلاً للأفكار والقيم العقليّة والاجتماعيّة وللحضارة، أكثر منه تاريخاً للأحداث والشخصيات.

— « بتبديل جوهري في طريقة التعليم وأساليبه تحرّره من بعض التقاليد الكلاسيكيّة البالية. وفي هذا المجال تظهر أهميّة مواجهة تعليم العلوم بشكل جديد يتعدى إطارها الحالي إلى الأوضاع النظريّة الفلسفيّة التي تتفرّع عنها وتتنزّل وتنبثق منها. فما فائدة علم الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم الحياة من وجهة الثقافة العامة، إن لم يشرف بنا على تقصّي أسرار الكون ومعرفة بعض نظريّات تكوينه. وكيف يستقيم للإنسان نظرة سليمة إلى الأشياء، إن لم يعرف بادىء ذي بدء مركزهُ وموقعه، في سلّم التيّار الحي وفي الكون الفسيح، في الوسط تماماً بين الذرّة والمجرّة، وإن لم يدرك موطنه التراثي والفكري في تسلسل ونموّ الحضارة، وإن لم يفطن إلى أهمّيّة العائلة والاجتماع البشري في تكوين الإنسان، وإن لم يتنبه إلى خطورة القيم المعنوية والروحيّة في حياة الكائن البشري، والتي لأجلها وُجدت الحياة. لذا كان للنظريّات التجريديّة في العلم وضرورة بلوغها ولتاريخ الفكر والحضارة هذه الأهمّيّة في التربية والتثقيف كما يتوجب أن يكونا عليه.

ولا يمكن في نظرنا أن تستوي الثقافة العامة بدون اطلاع الطالب على بعض بدايات علوم الاقتصاد والعقائد السياسيّة

والدستوريّة والاجتماعيّة ؛ وكان فيثاغورس منذ ألفين وخمسمائة سنة يجعلها مع الفلسفة العرفانيّة في رأس تتميم دراساته في مؤسسته الشهيرة التي زوّدت اليونان بعدد كبير من رجال القيادة والدولة والتوجيه . ويجدر أن يكون أيضاً التعليم المدني والحقوق الاجتماعيّة مادة درس وامتحان . وكيف يكون المواطن مواطناً وأن يقوم بواجبه ، وأن يمارس حقوقه بوصفه كذلك ، وهو لا يدرك شيئاً من هذه الحقوق والواجبات .

وهذه التربية الاجتماعيّة والنظاميّة والمدنيّة يجب أن تشمل أيضاً المدارس المهنيّة ومعاهد العلم التطبيقي ، كما يجب أن تشمل مختلف فروع التعليم العالي ، لكي يتوفّر للمتخصص وللمعلم أو العامل التقني الضمير المهني ولون لا بد منه من الثقافة العامة الاجتماعيّة .

رابعاً : « توجيه التعليم إلى نشر الحقيقة ونواميس الأخلاق الطبيعيّة ، باستهداف تحرّر الفكر والنفع الاجتماعي وتنشئة العقل ، بحيث يستشرف في جميع مراحل الحياة تحقيق الإنسان الكامل فرداً ومواطناً ، تنشئة تنصهر فيها قوى الذكاء والحكم والإحساس والخلق في تركيب منسجم متزن ويتدرّب فيها الجسم ليصبح آلة عمل مُثلى . »

وفي طليعة هذا التوجيه تقوم التربية الروحيّة والأخلاقية ، وتعريف الطالب إلى المسالك العرفانية والصوفية بشكل عامّ ،

لكي يتم له التعرّف إلى الاختبار الروحي والخلقي الحيّ. وما هي قيمة الفلسفة، لا بل ما هي قيمة الدين، إن لم يكونا اختباراً حيّاً للإنسان في عيشه، في علاقاته مع الآخرين، في تصرفه وتوجهه ونيّته وتأمله وآماله ومناجاته. «والله قبلة الدنيا والنيّة قبلة القلب» على حدّ تعبير أحدهم، «ولم يخلق الإنسان لمعنى من المعاني إلاّ للعلم والعمل به».

ولذا كان على الحزب أن يؤكد: «اعتبارَ الدين أُسّاً جوهريّاً في قيام المجتمع الأسمى، والترحيبَ بعمل رجاله في نشر مبادىء الكمال الإنساني».

وفي رأينا أنّه يتوجب جعل التعليم الديني الزامياً في جميع المدارس الخاصة والعامة؛ فعلينا واجب عرض الحقيقة كما خلُصَت ووصلت إلينا من خلال منابع الوحي، على أن يكون للطالب حريّة القبول أو الرفض. أمّا أن يظلّ لا يعرف الذي يتوجب عليه رفضه أو اختياره، فأمر غير مألوف ولا معقول.

ويتّخذ هذا التعليم الروتيني وجهه الروحي الحي الأصيل، عندما يقترن بشرح حياة الأولياء وأئمة التحقيق، وإيضاح مثالهم وإيراد تعاليمهم وأدبهم وتأدب سلوكهم، مما يضفي على الدين ذاته وعلى صف الفلسفة رونقاً خاصّاً وقوّة معنويّة فاعلة ويقيناً أنيساً. ويُسهم كلّ ذلك في تفتيح ذهن الطالب وصقل ذوقه الأدبي والفنّي والخلقي. وأرفع الأدب هو الذي

ينعكس من رفعة أدب النفس .

وفي هذه الدراسات العرفانيّة المتقدمة وسيلة للتعرّف إلى مجالي الحب والعدالة والفضيلة وحكم العقل في أفضل مظاهرها ، مِمّا يدخل في تنمية الحسّ الإنساني السليم وتقويم اعوجاج التعصب الذميم والعصبية المريضة ، فيتخذ الدين على يد وألسنة ومحبة أوليائه هذا الوجه السموح الرحب الذي هو وجهه .. وقليل من يدرك أثر التعاليم العرفانيّة الصوفية في التقريب بين الناس وبين المؤمنين من مختلف الأديان وفي محو آفة التعصب ذاتها .

ويجب أن توضع علامات خاصة دوريّة ، وأن تكون امتحانات لخلق الإنسان وتصرفه وشخصيته ، وأن لا تنقص هذه العلامات في مقياسها عن ثلث المعدل العامّ . ونكون إذ ذاك جعلنا واقعاً وفعلاً « تربية الشخصيّة المنهجيّة وتوازن قوى النفس نتيجة للعمل المسؤول » شأناً خطيراً من شؤون التّربية والتعليم .

إذ ماذا يفيدنا نشر التعلم السطحي الذي هو أقرب إلى الجهل والعماهة منه إلى العلم الحقيقي والتربية الشاملة لعقل الإنسان وقلبه .. فهذا التعلم والتثقف ليس هو من العلم شيئاً ولا يمكن أن نسمّيه تربية وتثقيفاً وتهذيباً .

خامساً : « اعتماد المعرفة خميرة اجتماعيّة وقوّة قوميّة :

AUB LIBRARIES

« اعتبار الشباب سن البطولة أي المرحلة التي يمكن أن تستثار فيها همّة الإنسان فرداً وجماعة ، وتعبئة هذه القوّة نظاميّاً والإفادة منها منهجيّاً ، بتنظيم (داخل المدرسة وخارجها) يكفل أقصى التفتّح لفضائل الإنسان في الشباب .

» ترسيخ الشباب في المحبّة وقيم الفروسيّة وروح الاستطلاع والإقبال على العمل .

» جعل الشباب قدوة الشعب حيال محن الأمّة والحياة ، وبالتالي طليعة كلّ مجهود يُطلب من الفرد ومن الجماعة .

» التشديد على ضرورة التعاون والمسؤوليّة الاجتماعيين .

» استخدام الفنون ، وخاصة الإذاعة والسينما والتلفزيون والمسرح والموسيقى ، في تهذيب الشباب والشعب بشكل عامّ وتنمية شعوره الفنيّ .

» تقوية الروح الاجتماعيّة في الشباب ، فيكون في كلّ قرية وحيّ بيت عامّ يلتقي فيه الشعب على مختلف أسباب الثقافة وعلى التعرّف بالواجبات الاجتماعيّة ، والتشديد على ضرورة المثل والعمل المباشر في مختلف مراحل التعليم .

» بتشجيع طلاب التعليم الثانوي والعالي على تعلّم حرفة ، بغية التقريب بينهم وبين مواطنيهم المشتغلين بأيديهم .

» بجعل التثقيف المدني مادة امتحان ، وتدريس مبادىء في حقوق وواجبات الإنسان والمواطن الاجتماعيين والذوق العام .

» بتدريس تاريخ الوطن كقيمة غير معزولة عن تاريخ التقدم .

» بتدريس جغرافية الوطن من حيث هي وقوف على قيم وإمكانيات يجب أن توجه النشاط في حقول الفكر والتحقيق والاقتصاد .

وبكلمة ، إبراز الناحية الإيجابية العملية من التعليم والتربية ، بحيث لا ينفصل كيان المواطن الفرد عن كينونة ومصير مجتمعه وعن النشاط والإبداع والتضامن البشري ، وتقوية الناحية الاختباريّة التفهميّة الذوقيّة للعلوم الأدبيّة والتراثيّة والفلسفيّة والإنسانيّة .

سادساً : وهي نقطة مهمّة جدّاً : إعادة التعليم إلى جوّ الطبيعة ، وإبعاد المدارس والمعاهد والجامعات عن المدن ، واعتماد العمل اليدوي والمهني والحرفي أو على الأقل الزراعي في جميع مراحل التعليم . فلا شيء يُسهم في تهذيب الإنسان واستثارة وعيه ومسؤوليته ، وينمّي فيه فضائل السعي والجدّ والتواضع والانتظام ، كالعمل المادي المباشر .

لقد خبرنا أهميّة هذا العمل اليدوي عبر التاريخ في تهذيب الشعوب ، ونلحظ هذه الأهميّة البالغة اليوم في أساليب تهذيب وتربية الشعوب في الدول الاشتراكيّة الماركسيّة والكليّة بشكل خاص . فالعمل المادي اليدوي يفرض اشتراك جميع

AUB LIBRARIES

طاقات النفس والجسد والإرادة والعقل والشعور ، وانتظامها وانضباطها لبلوغ الهدف المحدّد ، وبالتالي هو جهد كليّة الإنسان وما تمثله هذه الكليّة من قوى باطنة وظاهرة ، هو تعبير وجودي لواقع الإنسان وحقيقته . ولذا كان الحساب على الأعمال لا على النوايا ، لأنّ العمل تخرج لمتائجه اللاحقة عن إرادتنا .

فهذه الوجوديّة في العمل المادي تجعل منه مصدر نعمة لا لعنة ، وقيمة نضال كامل وصيرورة فعليّة بالنسبة للإنسان ، فيتضمّن انتظامه وانضباطه وتهذيبه في إطار انطلاقه وتحققه .

وقد أدرك الحزب التقدمي الاشتراكي أهميّة العمل الاجتماعي والمادي ، فأوصى باعتماد نظام الخدمة الاجتماعيّة الإجباريّة على نطاق الشعب كلّه، على أن يكون الشباب طليعة هذا النضال الإيجابي في التفاعل المباشر مع الطبيعة ومع قوى البناء والتطوير . وفي تبني نظام الخدمة الاجتماعيّة الإلزاميّة ، نخطو خطوة كبرى في طريق توحيد شعب لبنان وصهره في وحدة اجتماعيّة تامّة — الأمر الذي يمكّن وحده من قيام دولة نظاميّة تقدميّة عصريّة .

هذه الأسس العامّة للتربية المدرسيّة والاجتماعيّة نوضحها بشكل سريع وكلمحات وعناوين ، لأنّ كلاً منها يتطلّب بحثاً مستفيضاً ، وتقتضي طبعاً تبديلاً أساسيّاً وجوهريّاً في

AUB LIBRARIES

أساليب التعليم وطرق مواجهة أهدافه وممارسته ، بما يتفق مع نزعات وتطلبات الطبيعة البشريّة الحقيقيّة ومطلب الحضارة السليمة الصحيحة .

ونظنّ أن أولى واجبات الدولة في لبنان هي تقييم مثل هذه الأفكار وتصميم نهج وتخطيط ينبثق منها ، وإنشاء دور للمعلمين تكون مركزاً لتطبيقها واختبارها ، وتشخيصها في أداة بشريّة للتنفيذ . ثمّ تهيئة الجوّ الاجتماعي لمثل تلك المحاولة المهمة العميمة الفائدة التي بدونها لا تتركز الديموقراطيّة ولا النظام العام ، ولا تستقيم أنظمة حضاريّة وتراثيّة سليمة . وفي طليعة هذه الأجواء : دور الملاهي والسينما والصحف والإذاعة والتلفزيون والمنظمات الشعبيّة والكشفيّة . وكيف يمكن الإقدام على تربية النشء توبية صحيحة سليمة ، إذا كان جوّ المجتمع سيفسده فيما بعد ، أو إذا كان هذا الإفساد يعمل منذ الساعة في تحويل الطالب عن الطريق الصواب والنهج السوي ؟

وفي رأينا أنّه يجب أن تخضع دور السينما والملاهي والصحف — في شقها التثقيفي العام — وكذلك الإذاعة والتلفزيون لسلطة وتوجيه مجلس مستقل بعض الاستقلال عن الدولة ، يتألف أعضاؤه من بعض كبار رجال التوجيه والإرشاد المعنوي والفنانين وأرباب التربية ، فيضعون يدهم المباركة على أخطر مصدر للانحلال والفوضى تعانيه المدنيّة القائمة ،

ويتمكنون من متابعة عمليّة تهذيب المواطن وتثقيفه .

أمّا فيما يعود إلى المدارس الخاصة والمدارس العامة ، فقد برزت في فكرنا منذ مدّة إمكانيّة دمج هذا الشق من التعليم الحكومي السليم بهذا الشق من التعليم الخاص السليم ، أي في محاولة لإشراك أرباب التربية والدين بشكل خاص مع أرباب العلم ، وتشرف على هذا الجهاز المشترك هيئة تمثل الفريقين في تعاون كامل . ويمكن بذلك الإفادة من اختبار بعض المعاهد الخاصة الكبرى في حقل التربية والتهذيب ، وتخفيض أجور المدارس الخاصة السليمة منها في نسبة كبيرة . . فالذي نراه أن يفرض مثل هذا التعاون وهذه المشاركة ، وإلاّ سيظل التعلّم منفصلاً في معظم المدارس العامة والخاصة عن التربية بمعناها الحقيقي والشامل .

هذه خطرات واعتمالات فكرية نضعها أمامكم في هذه الأمسية ، لنشير إلى خطورة موضوع التربية المدرسيّة والاجتماعيّة في تكوين المجتمع وانتظامه .

لقد آن لنا أن نتحرّر من الانجذاب السحري الذي يشدّنا إلى المدنيّة الغربيّة وألاعيبها الميكانيكيّة وعالمها التطبيقي ، ونحن لا نتبصّر بعواقب هذا الانجذاب .

إنّنا على يقين أنّ السنوات المقبلة علينا ستجعلنا نبدّل

نظرتنا هذه ، ونتخلّى عن انجذابيّتنا ، لنبني على أسس وركائز الطبيعة البشريّة الحقيقيّة ما نصبو إليه في تخيّلنا للمجتمع الجديد والإنسان الجديد – ولو لم يكن هذا الإنسان الجديد هو ذاته القاطن دائماً فينا ، لما تطلعنا إليه واستقطبته آمالنا وآمنت به عقولنا واستلهمته إراداتنا ، في محاولة الجمع والتوفيق « بين النظام والحريّة ، بين الأخلاق والقانون ، بين الفرديّة الشخصية والاجتماعيّة ، بين العمل والتأمل ، بين الماديّة والتجريد ، بين الشرق والغرب ، بين القديم والحديث » : ديموقراطيّة شعبيّة منظّمة تهدف إلى بعث وإنماء تراث بشري خيّر متصل وإحياء مدنيّة عالميّة جديدة قوامها اكتمال تطوّر العنصر البشري وتتميم معنى الإنسانيّة في الإنسان .

ألقيت في طرابلس

AUB LIBRARIES

توجّه

في الأدب والفلسفة والدّين والمعرفة والحياة

« وما جمال العوالم غير مرايا جمال المبدع . . .

» ولقد سار أولئك القوم في مجلو مجالي فرحة العوالم،

فرأوا تجلي جمال القدس على هيكل كل موجود . . .

» فهذا هو النعيم الدائم والجمال الخالد . . . »

آية حكمية

AUB LIBRARIES

ماهية العلم

إن العلم أيّها الإخوان ليس هو في النهاية غاية بحدّ ذاته ، كما أن الديموقراطيّة أيضاً والاشتراكيّة ، وكذلك الدين وسواها من مبادىء الدنيا وهذه التي يسمونها الآخرة ، ليست غاية بحد ذاتها .

فكما أن غاية الديموقراطيّة وسواها من الشعارات التي أوردتها ، أي هدفها الأخير ، هو تحقيق أفضل ظروف من الحريّة والمسؤولية والمساواة الوظيفيّة لكي يستطيع الإنسان أن يُجلّي في ذاته معاني الرفعة والسيطرة ومفاهيم الأخلاق والتطلّع إلى الحقيقة واستكشافها ومعرفتها ، كذلك غاية العلم هي معرفة الحقيقة ، « معرفة الحقيقة الأخيرة للوجود » ، وكل علم يتدرج بنا إلى هذه الغاية في عمق أو اعتلاء — على حدّ تعبير بولس الرسول — والكلمتان في هذا المجرى مترادفتان .

واسمحوا لي أيّها الإخوة ، وقد جمعنا دفء ترحيب هذه القاعة وفرحنا المشترك في نيلكم بعض الشهادات المدرسيّة ،

AUB LIBRARIES

ونجاح بعضكم في الامتحانات ، وإشراف البعض على مواجهة الحياة ، اسمحوا لي أن نحدّد سويّة ماهيّة العلم ، حقيقة العلم ، قيمة العلم كما هو عليه لا كما نتصوّره عادة في فرحنا الصبياني الذي نظهره عندما نشاهد إطلاق الصواريخ وإنزال الغوّاصات الذريّة ، وتبرّج الانفجارات النوويّة كأنّها شمس استقصائيّة على حد تعبير إخواني الموحدين ، لكي لا يضلّلنا المشهد العجيب أو الرؤيا الساحرة ، أو الخداع البرّاق الجاذب ، وفي نفوسنا عجب وسحر يفوق كل ذلك وكلّ ما سيخترع ألوف المرات . .

هذه ألاعيب وملاهي آلهة الأرض في فترة عبثها وانصرافها إلى مجال التطبيق الصغير .

ولكن العلم أوسع من ذلك وأكبر قيمة من كل ذلك . . .

فهذه التجارب إنّما هي تمثيل وامتحان للقواعد التي وضعها أو اكتشفها العقل البشري في ارتياده دهاليز الفكر وتأمّله في مصادر الحقيقة . .

فالقاعدة والسنّة أهم بكثير من التجربة الصغيرة المحدودة ، والعقل الذي ابتدع هذه القاعدة وهذه السنن هو أضخم أثراً وأهم بكثير وأخطر شأناً من هذه القواعد والسنن المتجلّية . .

والروح العظيم الذي أوحى بكل ذلك ، في همس خطرات النفس وفي صمت الجوارح وهدأة الانجذابات ، هو أعظم من

كل هذا .

ولكن الذي يهمنا هنا أن مبادىء العلم التي تتلقنونها ليست إلاّ سبيلاً صغيراً لمعرفة أعلى وأرقى وأوسع ليس في سلّم انتقالكم إلى غير المعاهد والجامعة ، بل في حقل آخر . .

ما هو هدف العلم ؟

هو أن نكتشف أي أن نعرف الأصل الذي منه تتفرّع سائر الأغصان . والمصدر الذي تعود إليه ومنه تنبثق جميع الأسباب والعلل والمصادر . أي إيجاد عنصر واحد وتشكيلة أو جملة جبريّة أو هندسيّة واحدة أو جوهر واحد لتفسير جميع ظواهر الكون .

العلم يطلب وحدة التفسير . وحدة الجوهر . يسلك إلى ذلك معارج علوم المادّة . ولكن أيُّ جوهر مادّي هذا الذي يتبخّر أمامنا ويصبح طاقة لطيفة ، محض طاقة . كأنّها من طبيعة عقلنا ذاته ومن جوهر فكرنا !

وآلهة الأرض هؤلاء الذين أسميتهم – ولا إله إلاّ الجوهر الفريد الرحمن – هم هؤلاء الذين استنبطوا في عقولهم ومن عقولهم هذه النظريّات الكبرى للكون التي نسميها نظريات توحيديّة تهدف إلى تفسير واحد لجميع مظاهر طاقات المادة والحياة . .

قد يكون أينشتين قطبهم في هذا الجيل وفي كل جيل لأنّه وضع أسس التفتيش عن وحدة الوجود المادي على الأقل من

خلال العلم ذاته .

فالعلم هو إذن توحيدي في معنى التوحيد الأصيل ، كمن يقترب من كرسي العرش ، ولكنّه لا يزال يتصوّر ولو إلى حين تعدُّد الآلهة .

ولعلّنا نقترب إلى بضع سنوات أمامنا من اليوم الذي تنفتح فيه أسرار الحياة . ونكون فيه قد ولجنا أكثر عمقاً في أعماق المادة ذاتها ، فتبرز نظريّة موحدة شاملة للمادة وللحياة في آن واحد .

وهنا تبرز صحّة آية الحكمة الكريمة : « بالتوحيد تُعرف الأشياء . لا بالأشياء يُعرف التوحيد » .

ولو شئت تحديد مفهوم العلم على حقيقته وفي نزعته الأخيرة لما لقيت أفضل من هذا التعبير .

وتُدركون مثلي أن الدين ذاته هو أيضاً توحيدي . على أنّه ، إذ يسلك طريق المعرفة ، فهو أيضاً يلج إليها من خلال الروح والأخلاق ، أي التطهير الداخلي والتصرف الخارجي الصواب .

وتُدركون مثلي أنّه لم يعد في هذا العصر تمييز بين العلم وبين الدين على حقيقتهما ، لا طبعاً في علم الأشياء والظواهر أو التمسك بحرفيّة المعتقدات ومفاهيمها .

ولا يمكن إلاّ أن يقع هذا التوفيق والتوحد ، لأن نزعة النفس البشريّة هي معرفة حقيقة الوحدة في العلم وفي التصرف

البشري وفي الدين على السواء .

نريد أن نعرف المصدر الأخير للظواهر ، نريد أن نكون واحداً مع الآخرين من خلال التضحية والتصرف الشريف ، نريد أن نعرف من هو هذا الذي نسمّيه بنطقنا المتعثر : الله . .

تواجهكم اليوم الحياة بانجذاباتها ، ولكنْ هنالك انجذاب أقوى يدفعكم إلى الوحدة ، إلى تحقيق الوحدة في نفوسكم وهو هدف التّربية ، إلى تحقيق الوحدة في أوضاعكم الخاصة وهو هدف العائلة ، إلى تحقيق الوحدة في أوطانكم وهو هدف القوميّة ، إلى تحقيق الوحدة في نظرتكم للوجود الظاهر والباطن وهو هدف العلم والدين .

إنّني على يقين أن جيلكم سيكون جيلاً سعيداً إذا عرف أن يختار بين تطلّعه إلى الصاروخ وبين القاعدة أو السنّة التي أوحت باختراع الصاروخ ، بين علم الأشياء كما تبرز عليه من تطبيقات عمليّة بسيطة وسخيفة بحد ذاتها ، وبين علم حقيقة هذه الأشياء كما تبدو في نهاية المطاف وعلى سنان ارتقاء الفكر في معارج استكشافه لسنن الوجود ومصادره .

والعلم في هذا المعنى علمان :

علم الأوصاف والأشياء ، وعلم حقيقة الأشياء . وهذا هو العلم الحقيقي ، لأنّنا وُجدنا ، خُلقنا لنعرف حقيقة الوجود ، حقيقتنا . . والحب البشري ذاته لا يأخذ معناه إلاّ على ضوء

AUB LIBRARIES

ذلك ، فنحن لا نحبّ الآخرين بل نحبّ ما هم عليه الآخرون على حقيقتهم . . ما من أحد يحبّ الشناعة والنقص والجهل والحماقة أو الذل والإسفاف ، إنما نحبّ الروح ولا نحبّ هذا الجسد الذي هو مادّة عجماء ، آلة جماد ، ميت بحد ذاته . .

وهكذا يتبين لنا أن العلم علمان :

علم الجهل ، كما كان يسمّي ذلك أحد كبار الراشدين ممّن أضحت الحقيقة ملكة ذاتهم ومصدر بقائهم في العيش الظاهر .

وعلم المعرفة . .

فمن يكتفي بدرس علاقات الأشياء والظواهر السطحيّة بعضها مع البعض الآخر ، يجزّىء في الواقع الأشياء إلى أشياء مجهولة جديدة وذلك دونما نهاية ، لذا أضحى هذا اللون من العلم أصعب من أن يستوعبه عقل واحد ولو جهد طوال حياته ، بل أصعب من أن تستوعبه عدّة حافظات وعقول .

أمّا العلم الآخر : علم المعرفة — ولو كان تضادّ في إضافة هاتين الكلمتين — هو الذي يسعى إلى اكتناه جوهر الوجود ، إلى اكتناه حقيقة الوجود ، إلى اكتناه المعرفة الأخيرة.

فالمعرفة هي مرآة النفس ومسلكها العفوي ودربها الطبيعي لا الإيمان . .

ولو صح لي أن أقوم واعظاً — وما أكثر الواعظين في أيّامنا — لنصحت بأن لا تتمسّكوا بالإيمان عندما تصلون إلى

جبل المعرفة . . هذه هي بداية التحرّر .

ولذا إنّني أتمنى لكم ، كما يقول إخواني الكشاف ، صيداً موفقاً في مجالات الحقيقة .

لا أرجو لكم الثراء والبحبوحة في هذه الأرض ، لأن من البديهي أن يكسب الإنسان عيشه بوسائل الجد والمثابرة والاجتهاد والشرف .

ولا أرجو لكم التوفيق ، لأنّه على قدر نيّاتكم تُرزقون ، وعلى قدر اجتهادكم تلقون ، وعلى قدر سعة إخلاصكم وتجرّدكم وتضحيتكم تغرفون من مناهل الدنيا والآخرة . . وإنّما الجنّات تجري من تحتها أنهر اللبن والعسل الرمزيّة هي نفوس المستعلين والمتطهرين .

ولا أطلب لكم السعادة لأنّها الرفيقة الملازمة للحقيقة ، بل هي هي ذاتها . .

بل أرجو لكم أن تتفتّق في نفوسكم رغبة التفتيش عن الحقيقة في كل شيء ، لأنّها أساس العدل والمسلك إلى الصراط المستقيم ، هذه الرغبة التي هي جذع جميع الرغبات ، وإنّما تتيه في جهلها هنا وهنالك ، هذا الشوق العظيم الذي يجعل الحياة فرحاً دائماً لأنّها خلق دائم .

ومن هنا يبزغ أمل السلام الحقيقي في العالم ، لأنّنا نعلم إذ ذاك أن أولئك الأطفال الصغار – بعض قادة الشعوب –

AUB LIBRARIES

يلعبون بالدمى السحريّة على شواطىء هذا العالم، وهم لا يعلمون أن الإنسان هو خالق السحر ومبدعه .

لا يسعني في نهاية هذه الكلمة الصغيرة إلاّ أن أذكر وإيّاكم رجلاً كريماً ثوى منذ زمن، ولم يطوه بعد زمن، وصديقاً لبعض مناهج الحقيقة ورحابتها في تصوّر الآخرين، وقد جمع في آله بين مارون ومحمّد ، وعكف في تنقيبه على أروع سيرة « لأعمًى بصير » ، كاد الناس يضيعون في تفهّمه وتقييمه لولا أنّه كان لا يزال رائداً للحقيقة .

فإنّ روح مارون عبود لا تزال تشعُّ في نفوس الكثيرين من أبناء هذا الجيل، ولعلّها لا تزال تنفح هذا الصرح بما تتوجبه الحياة الجديدة للإنسان من مواجهات جديّة وجديدة .

وأتصوّره اليوم يقول معنا : الفرح هو في الانتصار على الجهل ، لا في معرفة أشياء أكثر ، وإنّما الكثرة هي تعدُّد الواحد وتكشُّفه في خلقه ، وليس العكس هو الصحيح .

AUB LIBRARIES

وطن الوحدة في نفوسنا :

الروائع وحقيقة الحضارة الإنسانيّة !

حضرة رئيس وأعضاء اللجنة الدولية لترجمة الروائع ،

حضرة الإخوان ،

بكل سرور تهيأت على عجل وأعددت نفسي لهذه الكلمة الصغيرة ، بعد اطلاعي السريع على نشاط لجنتكم الكريمة في حقل تعريف القارىء اللبناني والعربي على بعض ما يرتاح إليه العقل الإنساني في تطلعه إلى جمال ولادة الفكر وروعته وتجسد الكلمة ونحت التعبير ، وفيما مكنتم المواطن البشري في كل مكان من أن ينحني على قليل مما أنجبه وصاغه التراث العربي – وهو تراثنا – من بنات الإيحاء الرفيع العميق ، حيث يبرز تصور الوعي في سذاجته الأولى ، وفي أعلى درجات تجلّي الصمت الحقيقي في قوالب الأصوات الباطنة ، ثمّ في هيولى الأشكال الحسيّة المتناثرة والمنبثقة من منظار العين ومن أنبوب سمع الأذن .

AUB LIBRARIES

وفي هذا الجيل المتقلب ، والهادر بالتبديل والتغيير ، الذي نعيشه ، والمغلّف بوقود الابتكار والتحول السريع من غرض إلى غرض ومن حلم إلى حلم ، كأنّ الشاشة التي تنطبع عليها المرئيات والمسموعات والمدرَكات أضحت على غرار هذا الستار الأبيض الذي تتراقص وتتوالى عليه ، في غرفة السينما المظلمة ، ألوان الخيالات المضيئة والمناظر المتسلسلة الغادرة ، وكلها تجدُّ في الظهور والزوال ، وقافلة الحياة وراءها تركض وتمعن في اللحاق ، في هذا الجيل العجيب الغريب الذي نعيشه وكأننا وسط كهف أفلاطون نرتقب تعاقب الأشباح في صدر عتمة التواء الصخر وتجويف المغارة ، رأيتم أيها الإخوان ورأينا أن تنظروا إلى الحضارة وإلى التاريخ البشري بمنظار آخر ، لا من وجهة الغرض الذي يبتكر والعدد الذي يتكثّر واللطيف الفكري الذي يتكثّف حتى تكاد كثافته تطغى على لطافته وتحجبها ، بل من وجهة الشخص العارف الذي تشع من بصيرته أغراض هذه الدنيا ، ومن مستوى الواحد الرفيع الذي تنبثق منه وبه تكون وتكتمل الأعداد ، ومن صميم هذا اللطيف العقلي ذاته الذي لولاه لما كان الابتكار ولما كان الجمال . وكيف تتحسس الأشياء بروعة ما هي عليه من جماد وحياة ، ومن انسجام وركود وحركة ، لو لم نرها ونبدعها في كل برهة ، في كل لحظة ، من جديد ، من وجهة نظر العارف والخلق المجرّد لا

من وجهة الخليقة .

* * *

فالروائع في تاريخ البشر هي التي تؤلف حقيقة الحضارة الإنسانيّة ، كأنها قمم هنا وهنالك من الكتابة والفن والنحت والموسيقى منتصبة فوق بحار تبدّل الأحداث ، يرتاح إليها الإنسان ويركن إلى كهفها المطمئن ويستلذّ بصره نورها المضيء وسط أحجبة الظلمة وطلّسم الحركة .

ويجدر بنا على الدوام أن نميز بين الحضارة والمدنيّة .. المدنيّة تتعلق بالأشياء وبتطوّرها وتقدم ألوان صناعتها وتعدد وسائل ابتكارها .. والحضارة تتعلق بتطوّر فهم العقل وجلاء بصيرته وعودته إلى صفاء الينبوع ، حيث يتلاقى مع الشعور المهذب الذي يكون قد ارتفع بدوره وارتقى في معراجه إلى حيث يكون العقل والقلب واحداً ، هذا يستضيء بنور ذاك ، وذاك يستوحي السبيل بشواعر هذا المرهفة المتسامية . ومن لا يستدلّ الطريق بنور القلب كالأعمى برأس عصا ، يضلّ عن الطريق ويتخلف عن القافلة .. فالقلب دائماً في الطليعة ، يتبعه وينطلق في أثره العقل ، كلما تحرك وتوغل وانطلق .. ومن جهة مقابلة ، إذا لم يستوعب القلب في مسيره أهداف العقل الأخيرة ويستبطن خططه ويتبنّى نهجه وتصميمه وجوهر تكوينه ، دار على نفسه في ظلمة الزوغان وتاه في فيافي الانجذابات ..

فالعقل هو مفتاح المعرفة، والمعرفة هي باب الحبّ، لا الإيمان ..

فالعقل في معناه الأصيل وفي النهاية ، هو النور الحقيقي في الإنسان ، وهو والقلب واحد في هذا المستوى من الينبوع . وإنّما الإنسان وكذلك الحضارة ، لا يرتفع ولا ترتفع إلاّ إذا تمّ العقد وتزاوج الأصلان وتوحّدا في حركة التطلع والسعي والخلق .. في البدء كان العقل ، وكانت الروح أيضاً ترافقه كصنوه وكظله ..

* * *

أيّها الإخوان ، الحضارة تتألف من هذه الروائع ، من هذه القمم ، من هذه الأضواء المتلاقية .. لقد سبق للإنسان أن تعرّف إلى الحضارة حقبات طويلة وأجيالاً مديدة من التاريخ قبل أن يتعرف إلى المدنيّة في معناها المعاصر والحديث. وما ضرّه أن عاش في عذاب جسدي وشقاء نسبي ، وحرم من رؤية الجديد المتبدّل على الدوام ، فنحن اليوم لا نزال نشعر بلون آخر من العذاب ، ويستبدّ بنا شقاء من نوع قد يكون أكثر إيلاماً ، ونتحسس بحرمان يصغر أمامه ذاك الحرمان .. ألا تسمعون الأغاني والأناشيد العصرية وهذه القرقعة من الموسيقى ، ألا تقرأون الشعر والأدب الحديث ، أوَتستلذّون هذا النحت والتصوير التحليلي الممزّق ؟ ..

أفلا تبصرون ، من خلال هذا النتاج ، شيئاً كأنّه اليأس

AUB LIBRARIES

والتطلّب المفجع والدوران حول المحراب ، أو التلهف على الدنيا القديمة والعصر الذهبي الماضي ، أو المقبل في نهاية المخيلة والمطاف ، والذي لا يزال فيه حلم الجنّة ماثلاً كالأسطورة أو كالخرافة في كبد الإنسان وحدسه ؟ . .

فشكراً لكم أيّها السادة وللمؤسسة التي تشجّعكم على المضي في طريق تعريب الروائع الإنسانيّة الخالدة ، وتعريف الإنسان إلى حقيقة الإنسان ، وتمكيننا جميعاً من أن نخرج ونفلت من حين إلى آخر من قفص الجسد هذا ، على حد تعبير مولانا جلال الدين الرومي ، ومن محدوديات ما نحن عليه من عيش ومن تفكير ومن عادات ومن معتقدات وتصرفات ، كما يفلت ويتحرّر النائم في هناء من نومه العميق السعيد ، كأننا نغطس في عالم الحقيقة من آن إلى آخر ثمّ نعود إلى عالم الوهم ، إلى مغارة سقراط وأفلاطون ، وإلى صالة السينما الحديثة ، وتسلسل السيارات في الشارع ، وتعاقب المشاهد على شاشة التلفزيون ، فيتلاقى شكسبير مع غوته ودوستويفسكي وفتاحوتب وهرمس وسقراط وأفلاطون وجلال الدين الرومي وفريد الدين العطّار والحسين بن منصور وشنكارا شريا وطاغور وطايومنافار وأقطاب الأدب الرائع الصيني والياباني وكل شعر وفلسفة حقيقيّة وحكمة وفن وأدب . وما عساي أن أذكر . فيسهو عن بالي الكثير . ونتلاقى جميعنا معهم في استكشاف ما

نحن بحاجة إليه ، وفي الاطمئنان إلى ما نسعى إليه وما نريده وما نطلبه من النفس في المرمى الأخير ..

* * *

وفي هذا المستوى من القمم ومن الروائع ، حيث يطيب لنا كتلامذة الناصري على جبل الطابور أو كرفقاء موسى على الطور الملتهب أن ننشر خيمنا وأن نقيم إلى الأبد ، في هذا المستوى من القمم ، ندرك ونفهم ، بما يتعدى فهم وإدراك العقل العادي ، بأن هؤلاء جميعهم ممن يؤلّفون سلسلة مشاعل الحضارة ، إنّما وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، وإنّما نتذوّقهم ونتشوّق إليهم ، ونقرأهم بهذا الشغف وبهذا الحدس من الامتلاء والنهم في آن واحد ، لأنهم فقدوا الشخصيّة ، فقدوا كلّ فرديّة وشخصيّة في هذا الذي ولّدوه وخلقوه ، أو كانوا هم الآلة والوسيلة والباطنة الحاضنة لولادته وانبثاقه .. فمن ذا الذي يستطيع أن يقول لنا ما هي شخصية شكسبير من خلال مؤلفاته .. فكأنّه مشاهد لا أكثر لهذه الصور المتحركة التي بعثت بها الحياة وقذفتها على مسرح المتفرجين واللاعبين ..

* * *

وهنا يكمن سرّ التفوّق والعبقرية في مجالي الروحانيّة والفن والأدب والشعر والموسيقى على السواء ، بأن يتوارى الفرد وبأن تضمحلّ وتحتجب الشخصيّة في هذا المرتكز الوراثي الشاهد

والعارف للوجود ، حيث تبرز وحدة الإنسان الجوهريّة من خلال تلاعب الظواهر وتموجات الأنانيّة البادية ..

فالأديب والشاعر والفنان لا يستطيع أن يتوغّل في القمة إلاّ إذا تجرد وانسلخ عن نفسه كما تنسلخ الحيّة عن قشرتها في تعبير البسطامي . وصعد القمة وترك كل شيء وراءه في النسيان ، فزال فيه التعلق ، وأبصر من عل الأشياء على حقيقتها دون أن يتأثر بما هي عليه ، من هذا المعتلى حيث يصف المرء الأغراض والأفكار والعواطف والتصرفات من خلال صفاء ذاته وانقشاعها على حقيقة المرئيّات .

فالشخصيّة الفردية تزول ، والشخصية القوميّة تزول ، والشخصية الدينيّة تزول . وكلّ ما يتلوّن به الإنسان من ظاهره ، فتصبح هذه السلسلة من الروائع رابطة الناس فيما بينهم وفيما يتعدى تفاهة محدودياتهم وانحدار تصوراتهم .. فالوحدة الإنسانيّة لن تتم ، من هذه الزاوية ، إلا بنشر هذه الروائع في الأوساط الشعبيّة وفي جعلها في متناول كل يد . .

* * *

وفي ما يتعلق بالتراث العربي بشكل خاص – ونحن من صميمه – يجدر نبش المخطوطات من المكاتب ومن تراجم المستشرقين الأجانب ، وطبعها بلغة الضاد ، لكي يتعرف عليها العالم العربي والمحيط الإسلامي والمسيحي في آن واحد ،

ليدركوا كنوز هذا التراث المنفتح الخيّر الذي تفاعل مع حضارة فارس واليونان والهند والشرق الأقصى ، فأنتج ما لا يعرفه معظم الناس وكثرة المتعلمين والأدباء والفنانين من العرب ومن الأعاجم .. والتراث الإسلامي العربي ، في هذا الباب ، حضارة أكثر بكثير مما هو دين .. ويكاد الدين ، على ما أوردنا وبالرغم من تقديرنا واحترامنا لمفاهيمه ، يكاد الدين يتضاءل بالنسبة لهذا التراث وقيمه ، وقد دفع بحرف الإسلام المكتوب إلى حيث تلاقى على قمم إنسانيّة رفيعة ، لم تدركها إلاّ بعض الحضارات ، وقليلاً ربما الحضارة الغربيّة المسيحيّة القائمة عندما تنفتح على أصالتها وعلى مداميك جذورها المتوغلة في اليونان وفي الغنوستيكيّة وفي هذا الحبّ المتدفق الإلهي في تعبيره ، في موازاة شفقة البوذا السعيد على الضفة الأخرى من الخليج الفارسي ومن أوقيانوس العرب .

* * *

وفي هذا السعي لنشر الروائع من التراث العربي الأصيل حيث امتزجت وانسجمت قوميات متعددة وتيارات فكرية متنوعة في خلقه وتكوينه ، السبيل الوحيد ليستفيق العرب إلى حقيقة ما هم عليه من تراث إنساني أصيل ، ولكي يتنبه الغرب إلى خطإه في تصرفه ومعاملته ، ولكي تتلاقى وتنصهر النصرانيّة والمحمديّة في المستوى الذي يتعداها وتتعاون بما يليق حول هذه

البحيرة الصغيرة ، البحر المتوسط ، بحر المصريين القدماء واليونان والفينيقيين والروم على التوالي ، ثمّ بحر العرب والإفرنج ، هذه الفسحة من الماء التي أضحت منذ الساعة بفضل النهضة السياسيّة القائمة ، بحر العرب من جديد ..

* * *

قوَّمنا الله وصوَّب عقولنا ، ونزَّه أبصارنا وجرَّد شعورنا ، وجعلنا على ضوء روائع ووحي الأديان الأصيل ونور الحضارة الحقيقيّة المتوهج نترك قوالبنا وقواربنا التي نحمل عليها شتى الصنميات ، كالسالك في شوارع بيروت على عربته الصغيرة أمامه يبيع بضاعته . ونعود نتوحّد — وكنا ولا نزال هكذا موحّدين — في مستوى الذهن وبصيرة القلب وحدس الروح ..

* * *

هذا هو حلم الناصري وهذا هو حلم محمد ، لو أدرك معظم أتباعهم ماذا تبغي الحياة في انعكاسها في الوجود ، من العودة إلى بلد الحنين الدفين الأصيل ، وإلى ضجيج الدم والعرق البشري ، وإلى وطن الوحدة في نفوسنا ..

AUB LIBRARIES

الأدب تفتّح والتزام ما أمكن ، لا إلزام

« يا نفس ، أما عرفت أن المقتول بالجمال لا يحييه إلا ذلك الجمال ، ومن أعماه النور فلا يبصر إلا بذلك النور ، وأن من كفر فقد كفر ولا يصيره مؤمناً إلا ذلك الكفر . »

هرمس

أيُّها الإخوان ،

أشكر رئيس الدولة ورئيس الحكومة على رعايتهما لهذا المؤتمر ، وباسمي وباسم إخوانكم أبناء شعب لبنان ، أحييكم وأرحب بكم ، وأتمنى لكم أطيب التأمّلات في هذا البلد الذي شاء قدر تقاطع والتقاء المكان والزمان فيه أن يجعله على مفرق رئيسي من مفارق العالم القديم والحديث ، ومفصلة بين قارتي آسيا وإفريقيا ، على أنّه امتداد معنوي طبيعي ، على هذا الشاطىء العربي الزاخر بإمكانيّات الاقتباس والتوليد ، لأرض « أوليس » Ulysse وليونان فيثاغورس وتاليس وسقراط الكبرى والصغرى ، ولبلاد الفراعنة في وادي النيل الذين طغت

AUB LIBRARIES

حضاراتهم ، منذ بداية التاريخ أي قبل ستة آلاف سنة ، على العالم القديم بأسره .

وفوق ذلك ، فإن هذا البلد باب من أبواب الوطن العربي وإيران ، ومدخل لآسيا القريبة والبعيدة ، فلا عجب إن ولد منّا أو نما بيننا فلاسفة وكتّاب وحقوقيّون وأدباء ، أمثال فورفوريوس ويامبليخوس وزينون ، والمتشرعون بولص وبابينيانوس وأولبيانوس ، كما انطلق أرباب التجارة والاكتشاف في مجاهل إفريقيا وأوروبا آنذاك وأصحاب القوافل تجوب متقدّمة على طرق الحرير والشاي والتوابل في الأقدمين ، وكان هذا البلد فيما بعد موطن الإمام الأوزاعي والسيد عبد الله التنوخي والبستاني الكبير وصاحب نفير العرب اليازجي ، وشكيب أرسلان ، والمطران ، وجبران ، والريحاني ، وعمر فاخوري . ولا أذكر من الأحياء إلاّ صديقنا ميخائيل نعيمه وشحاده .

فأهلاً بكم وسهلاً ، في هذا البلد الفاصل والرابط بين القمم والبحار وبين عالم الأنهار والبوادي وانفراج فسحة الماء المالح تحت أقدام جباله .

في هذا المنتدى القديم الجديد ، نمت وتطورت وتعاقبت ألوان من نُظُم الحريات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة حتى لنكاد ، في تاريخ شعوبنا ، نتعرّف إليها جميعاً ؛ ولذا ،

لو كان لنا حظ في التنقيب وفي التعمّق وفي دراسة التحقّقات الفكريّة والتأسيسيّة والاجتماعيّة الغابرة ، التي قامت منذ ضوء العقل في القدم حتى فجر النصرانيّة والإسلام ، ثم بعد انتشار الحضارة العربيّة وقيام دولة الخلافة الكبرى ، لواجهنا الحريّة بالروح التي تجمع بين الحقّ الشخصي والمسؤوليّة ، بين مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد الحقيقيّة ، بين حريّة التأليف والنشر وواجب الالتزام : أولاً بقيم الحق والخير والجمال الخالدة ، لأنّها من طبيعة الإنسان وفي أس التكوين الاجتماعي ، وثانياً بمواجهات النضال والعمل الإنساني المباشر في جميع حقوله ، والمرتبطة بتلك القيم . والإنسان كلٌّ لا يتجزّأ في مصيره ونشاطاته وتكوينه ، وعكسه للوجود ، وانعكاسه هو بدوره فيه . .

قضيّة الحريّة التي نجتمع لمناقشتها ، وتقدير انعكاسها في أدب كتّاب آسيا وإفريقيا ، هي قضيّة الإنسان منذ أن وجد ، تستقطبه ثمّ لا يلبث أن يستولي عليها ، ثم يرهقها ويقيّدها أو يعبث بها أو لا يقدّرها حق قدرها ، أو يمارسها على غير هدى ، ودون إطار من النظام المادي والحرمة المعنويّة والمسؤوليّة الاجتماعيّة ، فترتد لتنتقم منه ، ثم يعود فيندرج في مسالكها وأسبابها ، ثم يؤوب إلى استئثاره وعبثه ، ثم ترجع هي لتثأر باسم القيم الإنسانيّة الدائمة . وهكذا دواليك ، كأن

AUB LIBRARIES

التاريخ بأسره تناقضٌ جدلي قد صنع من هذا الصراع بين الإنسان وواقعه وبين الحريّة ، بين الحريّة وبين ما ولّده الإنسان وما سيبدعه حتى نهاية الآباد من أنظمة ومؤسّسات ومفاهيم ، يحاول من خلالها أن يجلو حقيقته ويكشف عن أكناه ذات الوجود وودائعها في ذاته .

فالأدب استثارة لهذه المعرفة الحقيقيّة الدائمة ، وليس هو تغشية للواقع أو تخيّلاً أو خلَقاً من العدم ، أو إبداعاً من الخواء الفراغ ، أو تقليداً أجوف للحرف والخط الميت .

وفي فعل المعرفة هذا — وهو نشاط نور العقل — يرتبط الإنسان بوجوده الكياني ، وبوجود العالم الذي هو جزء لا يتجزّأ منه في المقابلة والمشاركة والانبثاق الحسي .

وإذا ما أدركنا — وفق بعض النظريات العلمية ، وهي تتلاقى وتتوافق مع خبرة وحكمة الأقدمين السابقين — أن المادة تكثّف للطاقة ، تتحول إليها وتنبع منها في دوام الصيرورة ، وأن الحياة ترفّع وتعقّد لهذه الطاقة الكونيّة ، وأن العقل بدوره استعلاء وتحوّل لطاقة الحياة ، لأدركنا الخلود والاستحالة أيضاً في كل شيء ، لأن الطاقة لا زوال لها البتّة ، « وبها أي بنورها صنع كل شيء » ؛ ولاستوعبنا خاصّة مدى التزامنا بالكينونة وبصور إبداعها ، وبالعقل وبقيمه ومثالاته ، وتحرّكه الدائب في إنشاء وترقية المؤسّسات الاجتماعيّة والاقتصاديّة

AUB LIBRARIES

والسياسيّة ، وفي العلم والفنون والأدب . .

ثمّ ، وإن نحن أوغلنا قليلاً لنشهد منبع الحريّة في التكوين ، لرأيناها تلازم الحياة دائماً وأبداً ، كالرفيقة الأمينة ، وكأنّها هي هي . . فلولا حريّة التبلور النسبيّة وحريّة التنافر والتجاذب والاعتمال المحدودة ، والتي أخرجت الجماد من قدر سنن الحتميّة إلى شرعة الأرجحيّة[1] ، منذ النشأة الأولى ، لما تمكن التيار الحي أن يتجمّع وينحصر ويتوارد لكي ينطلق من صميم طاقة الجماد .

وهكذا نرى الوعي وواجهته الحريّة تواكب صعود الحياة في سلّم تحقق النبات والحيوان ، وتزداد نمواً ووضوحاً واستيعاباً وانعكاساً لذاتها . . إلى أن يبلغ هذا الوعي وهذه الحريّة أقصى درجات تفتّحهما في مستوى العقل وفي الإنسان . . فالعقل صنو الحريّة ونهجه فيها ونبعتها ، وهي ، أي الحريّة ، بدورها شرط انطلاق المعرفة من مهد الإمكان وعقال محض القوّة .

وهكذا تكون الحريّة أثمن شيء في الوجود التام ، إذا اقترنت ، في ممارستها وفي إبداعها ، بشرعة العقل وقيم استشفافه . فالالتزام يقوم على مدى كون واسع قبل أن يقوم

---

١ loi de probabilité

AUB LIBRARIES

وينحصر في قضايا المجتمع والجيل .

من هذا المدخل الصغير ، يتصوّب لبصيرتنا أن تدرك مقام الحريّة وقضيتها في الأدب الإفريقي والآسيوي – لا بل في أدب العالم أجمع – وإنّما نحن نعيش في عالم ينزع أكثر فأكثر إلى التجمّع البشري والتكوّر[1] والتوحد ، رغم التنوع الظاهر للطبيعة البشريّة وللأمزجة وللأقاليم ولمستويات العلم والتقنية وتعدد الحضارات ، وذاك انعكاساً وتبياناً لوحدة العقل ووحدة استكشافه وطلبته في حقل العلم والعمل ، وفي مجالات الفلسفة والأدب والفن على السواء .

وإنّنا لنستوعب اليوم ، أكثر من السابق ، مدى هذا الالتزام للعقل ، قبل أن يكون للحريّة ، بمجريات الأحداث والتيّارات الوطنيّة والثقافيّة والسياسيّة التحرريّة ، لأنّنا أضحينا نعلم تماماً ، كما تشير إلى ذلك الدراسات الوافية الاجتماعيّة المتقدمة ، أن تراث الشعوب المتخلّفة في إفريقيا وآسيا ، وبعضها لا تزال في طور البدائيّة الأولى ، أن هذا التراث ليس هو مجموعة من الصور والأساطير والطقوس الجاهلة المتأخّرة ، كما كان يتصوّر ذلك بعض البدائيين في تلك الأبحاث ، بل هو بالحقيقة حضارة قائمة حيّة غنيّة ، قد

---

١ Planétisation

تكون أقرب إلى نهج الحياة وروحها وأوفق للمجاري النفسيّة والطبيعة البشريّة من مدنيّتنا الآلية الصناعيّة. على أن هذه الحضارات نسبيّة، فيجب أن ننظر إلى فنونها وحرفها وأدبها وآدابها وعلومها الدفينة وعاداتها بعين شعوبها، أي ببصيرة فتوّة الإنسان الذي هو فينا، لا بمنظار مدنيّتنا الغربيّة التي هي معظم الأحيان سطحيّة في نظرتها للغير وغرورة، وتبتعد بنا عن الطبيعة.

وفي هذه المواجهة تستبان أهميّة العودة للاستيحاء والارتواء من آداب وفنون بعض الحضارات الآسيويّة والإفريقيّة والشرقيّة الكبرى التي كانت مدنيّات إنسانيّة في المعنى الصحيح للكلمة، فارتفعت فوق مقاييس زمانها إلى حاجات الطبيعة البشريّة الدائمة ومطالب العيش وحقوق الإنسان الخالدة، وطلبة استكشاف العقل في انعكاسه على ذاته وعلى الوجود.

وقد تكون تلك الأساطير والقصص الواقعيّة وروايات الإنس والآلهة والأدغال في الأقدمين والمحدثين، ولدى جميع الشعوب المتخلّفة والبدائيّة والنامية والمتحضرة – وكلنا مزيج من التخلّف والنمو – أفضل مرقاة لنا وسلّماً للاستنارة بنهج وقواعد الالتزام المفروض.

وهنالك لون آخر لهذا الالتزام، هو وجه الالتزام بالشكل

AUB LIBRARIES

وبالصورة الحسيّة والفكريّة وبالكلمة التي تُقرأ فتُفهم، وبالأنغام التي ترتفع لمواكبتها التصوّرات والخيالات والعواطف، أو تستنفر في مقابلتها طبيعة الإنسان ذاته على بساطة جوهره وعلى تركيب أعراضه، وطلبة الحق والخير والمعرفة والجمال والحب في صفاء مراقيها في العقول وانعكاس أشباحها على مرآة الاذّكار الأول القديم والمنطوي في ذهن الأجيال.

فالإنسان لا يستطيع أن يفكّر أو يعرف أو يشعر بدون شكل وصورة وكلمة ترافق الفكرة، ووتيرة وإيقاع ينسجم مع إيقاع الوجوديّة الحياتيّة، العميقة جذورها في أغشيتنا وفي تلافيف دماغنا، والنابضة في دمائنا وفي أعصابنا وفي أفئدة قلوبنا، والمستبطنة لحافظتنا.

ولا ندري ما هو القصد من هذه الفنون التحليليّة الحديثة، في أوج لعب الإنسان بالحرف والخط الصنم وفي فورة اللّهو والعبث، سوى وضع كئيب قلق للإنسان الحديث يجعله يفتّش عن ملجإ الفيل في الجرّة، أو عن نبضة الحياة في تفتيت نواة ثمرة من النبات، على حد المثل الهندي الشهير، أو كمن يريد معرفة تكوين كفّ من الصلصال بتجزئته على التوالي وإلى غير حد، ليرى سر الجمال فيه، وهو لا يفطن أن الجمال البادي كان في الصورة المجتمعة وليس في الحبيبات التي تتألّف منها هذه الصورة، أو كمن يريد الكشف عن الروح والتعرف إليها في

AUB-LIBRARIES

الإنسان الميّت ، بالتقصّي عنها في أحشائه وفي دماغه وفي قلبه .

أو لعلّنا – فيما نراه من ازدهار للحرف والخط والهياكل الرمزيّة – فوق ما أشرنا إليه من ولوج الإنسان الحديث في مجاري قدر قلقه – لعلّنا في ما نراه من تصوير تحليلي – وفي موازاة العلوم الهندسيّة والجبريّة المعبرة عن لون من ألوان الوجود – لعلّنا نكون في دور تطوير أبجديّة عالميّة شاملة جديدة .

وقصّة الصورة ، كحديث القصة ، لا تنضب على لسان ولا تفنى في مخيلة ولا يعدم لها وفاء . بها بدأت الحروف ذاتها صوراً معبّرة في روعة الجمال في مصر وفي الصين وفي اللغات الساميّة ذاتها .

وفي هذا المنطلق ، إن الإنسان الحديث – في شطريه – هو أشد حاجة لإنسان العالم الثالث ممّا نتصوّر ، لأن هذا الأخير ، بالنسبة لبقاء ونموّ حسّه الأسطوري ، لا يزال أقرب إلى استجلاء أهداف التطوّر واستشعار مقاصده واستقراء مضامينه ، في المراحل المقبلة علينا ، وهو أشد قرباً من نبضة الطبيعة المكوّنة للوجود المتحول المنعكس في النفس .

فلا عجب إن كانت بعض آداب وفنون وعادات البلاد ، التي أسموها خطأ بالشعوب البدائيّة أو المتخلّفة ، والحضارات الشرقيّة غزت وأخذت تمعن في غزو المدنيّة الغربيّة حتى في أساليب عيشها ، لأن هذه الشعوب التي نسمّيها متقدمة أو تسمي

نفسها كذلك تشعر بفراغ طالب وبحاجة لهذه الآداب والفنون ، بعد أن غمرتها موجات العقائد الاقتصاديّة والآلة . ولكنّ وجه الخطل يقوم بأن تتقبل شعوب الغرب هذا النتاج المعنوي بروحها هي ، أي أحياناً بذهنيّة القلق الفاعل والتلهي والتبديل والتيه ، لا بروحيّة تلك الشعوب المستقرّة التي أبدعتها . وهنا يكمن الخطر في عمليّة التلقّي ، لأن هذه الشعوب المتقدمة قد بعدت عن مصادر الرمز والأسطورة والإشارة ، فتضحي تعيش بين مائين وتسبح بين جدولين ، دون انتظار الملتقى لكليهما ، والذي سيجتمع فيه المجريان للنبع الواحد ذاته .

وهذا الالتزام ببعث أفضل ما في الماضي من تراث ، لا يحجبنا في أي حال عن واجب اليوم المباشر ، وعن الالتزام بالنهضة التحرريّة في نضالنا : فللإنسان العالم الثالث شيء كثير يجب أن يقوله للعالم .

بل يكون ذلك حافزاً لنا للمجابهة وللتحدي المعنوي الظافر وللدفاع عن حقوق الإنسانيّة المعذَّبة فينا . . وهذه قضية فلسطين العربيّة المغتصبة الشهيدة تدق أبواب العالم وتتوجّه إلى وحي عدالة العقول ، وتستغوي المحبّة في القلوب ، وتستنفر الشباب والنساء والكهول منّا ليوم العودة والفداء . مليون وربع من البشر يطردهم الاستعمار الأمريكي البريطاني ليُحلّ مكانهم شعوباً تنتمي إلى مختلف الجنسيّات والأمم . وهذه صيحة شعوب

AUB LIBRARIES

عدن والمحميّات العربيّة ثورة لا تهدأ ولا تتوقّف ولا تُغلب . .

وهذه الصرخة الداوية لشعب فيتنام البطل يكافح بدمه وبعقله وبأسطورة بطولته أكبر قوّة عسكريّة وجدت في التاريخ فينتصر ولا يُقهر .

وهذه مواقع الاستعمار والتمييز العنصري في إفريقيا وآسيا ، وقواعد الاستعمار الجديد في أمريكا اللاتينيّة ، تناضل لأجل الحرّيّة والحياة الكريمة والمساواة . .

هذه في آدابنا وفي شعرنا وفي فنوننا منطلقات لحكايات وهج الأساطير ، وانبعاثها حيّة في النفوس ، تروي صراع الإنسان مع أبناء جبابرة الآلهة ، في ملاعب الدنيا والآخرة .

ولكن هذا الكفاح العملي المباشر سيجد له غذاء جوهريّاً وإمداداً معنويّاً وقوّة وطاقة عظيمة في ما يتوجّب علينا أن نقوله لأنفسنا وللعالم من وحي حضاراتنا وثقافاتنا المتجدّدة المتطوّرة .

ولعل الأزمة العابرة التي يعانيها تضامن الشعوب الإفريقيّة الآسيويّة في علاقاتها مع بعض الدول ، تجد لها مجالاً للعمل في هذا الاتجاه الوافر في التأثير وتنوّع إمداد حقوله ، ونعني في توضيح مفاهيم إنسان العالم الثالث على ضوء تراثه القديم والمتجدّد . وإذ ذاك يكون لأدباء وشعراء وفناني آسيا وإفريقيا الحظ في تلقيح العالم بأفضل ما لدينا من نظرة متشعبة غنيّة

شاملة وأصيلة للإنسان .

وفي هذا المنعطف يقع على عاتقنا أن ننبش كنوز حضاراتنا من مخابئها ، وبعضها لا يزال حيّاً . متفاعلاً متطوّراً كحضارات الشعوب الكبرى في آسيا ، وثقافات معظم بلدان آسيا وإفريقيا ، وبعضها كحضارتنا العربيّة يكفي أن نزيل عن سطح غطائها بعض رماد الأجيال المتراكم ، لكي تظهر على أروع ما تقدمت به من عطاء لكل جيل .

وبكلمة إن الإنسان الحديث العادي ، لفرط ما غشيت عينيه التقنية وماديّة الأنظمة ، قد أضحى أحياناً كثيرة إنساناً ناقصاً . فكما أنه لا يمكن ولا يجوز القطع والفصل بين الإنسان وبين تراثه ، فلا يمكن أيضاً القطع بين الإنسان وبين طبيعته . أو على شاكلة قول طاغور بما معناه : « إن الشخصية البشريّة هي غير متناهية . . وإنّي لأرى نفسي في جميع وجوهها . . »

هذه هي رسالة العالم الثالث ، المتحرر بمؤسساته واقتصاده وأدبه وفنونه من القوميّة الضيّقة على الشاكلة التي عرفتها أوروبا في القرن الثامن والتاسع عشر ، المتحرّر من العنصريّة ومن مركب التفضيل وتمييز الأجناس ، المتحرّر من الاستعمار في جميع أشكاله وألوانه المعلنة والخفيّة ، والخبيثة والظاهرة والمتجدّدة .

إن مواكب الغد المأمول ستشهد دور إنسان العالم الثالث في استنباط أفضل ما في الغرب ، في شطريه واختباريه ، وفي تلقيح هذا المجتمع المتطوّر بخير ما لدينا جميعنا من تراث معنوي وإنساني ، ونظرة واقعيّة وشاملة لمواجهات الإنسان في تحقق وجوده . وذلك لأن رجل إفريقيا وآسيا لا يزال في عيشه وفي فطرته وفي حضارته يمازج ويخالط ويعاشر الأسطورة في الحياة .. وهل حياة كل منا ، إذا ارتضيناها وتقبّلها فرح الوجدان ، سوى أبرز وأحلى الأساطير المقولة أو المكتوبة، أو التي لم يتعمّدها بعد خاطر الفنان ، والتي تنبع جميعها من وعي نفوسنا ورغبتنا في تصوّر الوجود ؟ . وهل الأفكار وطارقات الوحي والعواطف ذاتها التي تتوالى وتتوارد – بالرغم منّا معظم الأحيان ، وبإرادتنا مراراً قليلة – على خاطر الحلم ولوح اليقظة العادية ، سوى رموز وتعابير مصوّرة ، ننكبّ على فراستها واستكشاف جذورها وتأويلها وتفكيك أحاجيها والغوص في أعماقها ،كمن يرقب ويتابع في تنبّهه جريان أسطورة دائمة أخرى نشعر ، في مرتقى الشهود ، وكأنّنا عنها تماماً غرباء .

وبعد ، أخذ الله بيدكم لأجل تتميم هذا الاجتماع في عبق ندى الأرز وفي بلد عربي مستقل يعتزُ بمشاركته وبنضاله ، ولاتخاذ التوصيات ، التي يقتضيها واجب المواجهة والعدالة في عالم تحفّ بنا أخطاره ، وتقلقنا هواجسه ، ويشوبنا سوء طالعه

في التسلح الدائب ، وفي إرادة التسلّط والاستعمار، وفي الانقسام ، وهم يبذّرون على لعب ودمى أسلحتهم العادية والذريّة ما يقرب من مائة وخمسين ملياراً من الدولارات سنويّاً ، هذا بينما نصف لا بل ثلثا شعوب آسيا وإفريقيا يتضوّرون في انعدام الغذاء وفي الحرمان وفي التخلف الاقتصادي الشامل .

طابت نزلتكم بيننا ووفادتكم على الرحب والسعة وفق التقاليد اللبنانيّة العربيّة ، والسلام عليكم .

(خطاب الافتتاح في مؤتمر أدباء وكتاب آسيا وإفريقيا المنعقد في بيروت سنة ١٩٦٧)

AUB LIBRARIES

التربية والتعلّم والمعرفة

« يا نفس تيقني وخذي معرفة الأشياء بأنياتها وماهياتها . . ولا تحتفلي بمعرفة كيفياتها وقدرها . »

هرمس

التربية إنّما تعني في نظرنا تفاعل نهجين تربويين :

– أحدهما يهدف إلى صقل العقل وتنظيمه ، وشحنه بالمعلومات اللازمة . وفي هذا الحقل تنظيم العقل وتدريبه وتفتيحه وصهره في اتّجاه الانتظام والقيم هو أهمّ من تعبئته بما يرد في كتب العلم والأدب والفلسفة والتاريخ .

– والنهج الثاني يقصد إلى تهذيب العاطفة والتصرّف . . والإنسان لا يكتمل – وقلّة هم الذين ينعمون طبعاً بهذا الاكتمال – ، أو بالحري لا يتّجه المرء نحو الاكتمال إلاّ إذا وقع الانسجام الباطني والظاهر بين العقل والقلب . إذ انّه لا يستطيع أحد أن يرتفع في سلّم الإنسانيّة ، ولا أن يتحقّق في معراج المعرفة الحقيقيّة وتكوين الفرديّة الزّاخرة بالنشاط

وبالاستيعاب وبالقوّة وبالحكمة ، إلاّ إذا حصل هذا التوافق الأصيل بين عقلانيّة الفكر وتسلسل عقده وقلاداته وبين اندفاع العاطفة وتوقها وشوقها الملهف نحو الحقّ والوعي والجمال .

وفي هذا المعنى ، لا بدّ أن نعود بذاكرتنا الحنون إلى ترداد التمييز الذي كان يحدّده الإغريق والمصريّون القدماء والبراهمة وسواهم ممّن تكدّست لديهم أوعية الحكمة ، بين العلم أو التعلّم ، والمعرفة .

العلم قد لا يستنجد إلاّ ببعض قوى الفكر الناشط ، ولو أنّه لا يمكن أن يتجرّد العقل العادي ولو من شيء ضئيل من نور سراج العقل .

والمعرفة شيء آخر يجمع بين حدس القلب وانحنائه على الغرض المدرك في شغف الحبّ الذي يرمي بأصالته إلى اكتشاف منابع الحقّ والخير والجمال ، وبين هذا الوعي المنعكس للعقل على الأشياء .

فالمعرفة ، في هذا المعنى ، طريق لتكوين الإنسان ، ولحلول النور الذي يشير إليه القرآن والإنجيل على السواء : « وفي البدء كان العقل وكان النّور ، ومنه تكوّن كلّ شيء . » وتذكرون معي الآية الكريمة المدهشة في روعتها : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ في زُجاجَةٍ ، الزُّجاجَةُ كأنّها كَوْكَبٌ

دُرّيٌّ . . . نُورٌ عَلَى نُورٍ . . . ﴾

ففي هذا المرمى ، المعرفة لا تكون غربيّة ولا شرقيّة ، بل تصبح شرقيّة في المعنى الذي أشرنا إليه من تحقّقها التاريخي في حضارة قديمة ، ولا يزال بعضها قائماً . وهي المعراج الحقيقي للارتفاع بالإنسان إلى صفّ البطولة العفويّة والفضيلة الساذجة التلقائيّة والبصيرة الحاذقة الداخليّة ، الكاشفة عن أسرار لا يدركها الأنام وهم يسبحون في حلمهم وينجذبون إلى أفكارهم ومدارك حواسّهم ، كالعوّامة التي لا يتوقّف تحرّكها وتأرجحها فوق أمواج بحر الحياة الزّاخر المتلاعب .

وقديماً قيل على لسان الحسين بن منصور ، قدّس الله سرّه :

تَاهَ الخَلائِقُ في عَمْياءَ مُظْلِمَةٍ
قَصْداً ، ولمْ يَعْرِفوا غَيْرَ الإشاراتِ

الظّنُّ والوَهْمُ نَحْوَ الحقّ مَطْلَبُهُمْ
نَحْوَ الهَواءِ يُناجونَ السّمواتِ

والحَقُّ بَيْنَهُمُ في كلّ مُنْقَلَبٍ
مُحلّ حالاتِهِمْ في كلّ ساعاتِ

وما خَلَوْا منه طَرْفَ العَيْنِ ، لو عَلِموا
وما خَلا منهمُ في كلّ أوقاتِ

AUB LIBRARIES

وقديماً قيل ايضاً : من يفتح مدرسة يقفل سجناً . وقد يكون هذا القول مبالغاً فيه ، أو قد يكون أحياناً كثيرة على خطإ . إذ انّ تطوّر الحضارة القائمة لا يدلّ على انبلاج حركة الانتظام البشري نحو المعرفة الحقيقيّة ، أي نحو الحقّ والفضيلة والعلم ، وقد تتكدّس المعلومات في فطنة الطالب ، حتّى ليصبح أكثر جهلاً بالحقيقة من قبل ، وأكثر تكبّراً ممّا كان عليه من تيه غاشم ، وأكثر مصدراً لقلق النفس وللأنانيّة الشخصيّة وللخوف وللانعزال ، وأكثر إيذاء للنّاس ممّا كان عليه لو بقي جاهلاً للعلم في القصد المعروف .

لذا كان يتوجّب علينا أن نسعى إلى تحقيق مفهوم جديد للتّربية ، وأن نعود ليس فقط إلى الأقدمين ، بل إلى تاريخنا العربي الذي جمع وألّف بين اختبارات الأقدمين جميعهم فأضاء العالم ، المعروف آنذاك ، بهذه القيم الباقية على الزّمن من إنسانيّة Humanisme خلاّقة جمعت بين « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، فأخذت عن جدارة وتفوّق مشعل الحضارة من مصر واليونان وإيران وروما ، وأنارت به العقول والضمائر ، فكانت قمم الحضارة العربيّة من أروع ما شهده العالم من قبل ومن بعد من تحقيق وأصالة وإبداع . وإنّ عقلنا ليذهل اليوم عندما نقرأ لهذه القمم الإنسانيّة من أشياء تقع بين أيدينا ولا يعرفها معظم النّاس ، لأنّها لا تزال دفينة المكاتب .

AUB LIBRARIES

نحن بحاجة اليوم إلى مثل هذا العود على بدء ، وإلى مثل هذا الارتقاء في نهجنا التربوي العام ، لكي ننقذ أنفسنا وقوميّتنا والعالم من آثار المدنيّة ، إذ يهيّىء لنا الوضع النفسي والعقلي المرتفع لتفهّمها ، وإلاّ بقينا كما كنّا منذ عشرات السنين نتلهّى بألاعيبها ، كما يلهو الطفل بآلاف الشراقط المنبعثة من السهم الصغير النّاري الذي ابتاعه من بعض حوانيت بيروت .

بهذا القصد ، أيّها الإخوان ، أشرنا وطالبنا بضرورة تعميم العلم في لبنان ، ثمّ الارتقاء به إلى مستوى المعرفة والتهذيب الحقيقي البالغ . فلا ينقذ الحضارة القائمة من الماديّة « الفجور » ومن الانجذاب إلى الألعاب الناريّة ، ولا ينقذنا شيء وبشكل خاصّ في لبنان والعالم العربي سوى تنفيذ برنامج شامل وعميق للتربية في جميع حلقاتها ومناهجها .

فالعلم ليس هو فقط سبيلاً للعيش ، بل هو ينبوع سعادة وحياة لمن يعرف معنى الحياة .

فلنفتح المدارس في لبنان ولنعمّمها ، ولا نخف من تعميمها كما يفعل بعض الذين يتمسّكون باحتكاراتهم الغابرة ، أو الذين يخشون أن يؤدّي العلم إلى الازدياد في نموّ الوعي الوطني والوعي العربي والإنساني ، وليتذكّروا معي كلمة الإنجيل : إن حبّة القمح لا تنمو إلاّ إذا اهترأت وفنيت واضمحلّت في النبتة الغضّة الجديدة .

AUB LIBRARIES

ولنقف جميعنا في لبنان في وجه كلّ رجعيّة تريد أن تمنعنا أن نسير كما يتوجّب على أبناء البشر أن يسيروا — أي على أبناء الله — يتوقون إلى الحريّة وإلى الارتواء من ينابيع الحقيقة، وإلى الارتفاع بنفوسهم في جُهادهم المهني أو المعيشي الصغير، لأنّهم أدركوا أنّ الحياة نضال مستمرّ، ومن يتوقّف عن النضال تدركه حشرجة التقلّص والتّراجع والتخلّف عن ركب الحياة: والتضحية واجب ونهج أصيل في النفس للارتقاء الدائم، لأنّها تزيل أنانيّتنا، لأنّها تميتنا في كل لحظة، في كلّ دقيقة، لكي نحيا من جديد الحياة المنطلقة الزّاهية العامرة. ولو لم تكن الحريّة والحق فينا، لما سعينا إليها.

والأهم من ذلك، أن يعود إلى قلوبنا وعقولنا شيء من هذه الحماسة، أو من هذا الإيمان الصغير بإمكانيّاتنا وببلادنا وبتعاوننا الجماعي وتضامننا، فوق ترّهات الحزبيّات والعنعنات العصبيّة المقيتة والانعزاليّات المميتة الخاوية من كلّ عرس للحياة.

في معيار الاختبار

« يا نفس، كم يتردد الذهب الكثير الغش إلى النار قبل أن يصفو ويتهذب ».

هرمس

الفلسفة هي تفسير لواقع الحياة، لواقع الإنسان، لواقع الوجود.

وكل فلسفة لا ترتبط بالاختبار، لا تنبثق عن الاختبار، لا تتأكد صحتها عن طريق الاختبار، ليست بفلسفة، إذ ليست بتفسير موافق للواقع الذي أشرنا إليه.

الفلسفة غير المرتبطة بالاختبار هي كنظرة الطفل للسيارات المضيئة، وللنجوم المتألقة في الفضاء: يظن أنها مشاعل منيرة وُضعت في مكان ما فوق الغيوم لإنارة الليالي المعتمة، أو أنها ثقوب في أديم كالح ينصبُّ منه بعض شعاع الضياء المستتر. هذا تفسير ولا شك .. ولكنه تفسير اعتباطي لا يتفق مع واقع الأشياء، مع حقيقة الكواكب والنجوم والأفلاك كما أوضح

AUB LIBRARIES

قواعدها ونواميسها كوبرنيكوس ونيوتن ولبلاس وأينشتين في أبحاثهم المرتبطة بالاختبار ، المرتبطة بالواقع .. هذه فلسفة الطفل ، فلسفة البشر الذين لم يبلغوا سن الرجولة ..

فأي قيمة إذن للفلسفات العقلانيّة الّتي يطلع علينا بها الغرب ، والّتي احتضنها ووضعها أصحابها وسط التمنطق والتشدّق الفكري والاضطراب العاطفي والشك الاعتقادي ! . . إن هي إلاّ محض نظريات لا ترتبط بواقع الأشياء – إذا ارتبطت – إلاّ ببعض ذيولها وأطرافها وحواشيها ، ولا تتقدم إلاّ بنزعة عاطفية وبنظرة الفيلسوف الشخصية للأشياء . وأيُّ قيمة لهذا التمنطق ولهذا التشدق ولهذه النزعات العاطفيّة ؟ يتصور الطفل أن مياه البحر هي الّتي تشدّ جنبات الباخرة « فتحملها » ، وتجعلها تطفو على وجه الأمواج .. الطفل يحس ، يشعر أن في البحر حياة ، أن في البحر قوة غريبة عجيبة تدفع بالباخرة إلى ما فوق .. ولا يدرك الطفل أن السبب المانع لغرق السفينة إنما هو خفة زنة المركب بالنسبة لما يشقّه من عباب اليمّ . نظرة الطفل هذه هي أيضاً تمنطق ونزعة عاطفيّة ، أي فلسفة اعتباطيّة لواقع السفينة ولواقع البحر .

لقد تحوّل الغرب عن الأديان وأبدل المعتقدات الدينية بالفلسفة – فلسفة هيغل وكانت وفيشت والتومائي وماركس وغيرهم وغيرهم ممن لا يُعدّون ولا يحصون ، وفلسفة « أنبياء

AUB LIBRARIES

القوميّة » والدوليّة والوجوديّة والطبقية على السواء — فإذا بالغرب ، بعد جهد المحاولة وبعد تحقيق الرغبة ، يتطلع إلى نفسه فيجد ذاته حيث كان : لم يتقدم خطوة ولم يتأخر خطوة من وجهة حل معضلته الأساسيّة مع ذاته : معضلة المعرفة ، معضلة السعادة ، ذلك لأن الأديان كانت معتقدات فكرية ، والفلسفات هي أيضاً معتقدات فكرية .

ولكن للدين رابطة مع الاختبار أصيلة — اختبار الذين تطلّعوا ولو برهة إلى وجه الحقيقة الجذريّة للوجود فعادوا إلى الناس وأخبروهم عمّا تطلعوا إليه وعمّا أدركوه — .. فكل نبي وقع على شيء من هذا الاختبار . هذا مما لا شك فيه . ولولا ذلك لما كان لهم هذا اليقين ، أو سمّه الإيمان الصحيح . واليقين هو برهان الحقيقة .

وللدين رابطة مع الاختبار في مستوى الذين اختبروا مدلولات الحرف المنزل الميت ، أي في مستوى الذين اختبروا بعض اللآلىء المبعثرة والموزعة في كتب الدين ، فاستشفّوها على ضوء ما انبعث فيها من نور نفوسهم ، وعلى ضوء ما أيقظته وأحيته وأجّجته في نفوسهم من نار ونور ، كأن الجحيم والسماء يلتقيان في صدر المتطهّر ، فإذا لا جحيم هنالك ولا سماء بل وجه الحقيقة المتألق على الدوام بدون حجاب ولا تبديل ولا ازورار . أولئك هم الصوفيون والقديسون أو

AUB LIBRARIES

سمّهم الأبطال – إذا شئت – تتوّجهم فئة قليلة اكتملت فيها الإنسانيّة ، وترفّعت فيها إمكانيات الوجود إلى حيث أضحت الإمكانية والواقع شيئاً واحداً . .

هذا الذي يجعل للاختبار الروحي أهميته التي تتعدى كل أهميّة ، من حيث تصميم مفاهيم الدين وتنويرها ، ومن حيث الشرفة التي يفتحها هذا الاختبار على الحقيقة ، فإذا بالعلم الحديث بامتداداته الأخيرة يتعثّر على خطى المتصوفين الأبرار ، وإذا بشقّي المعرفة – العلمية والروحيّة – يوشكان أن يندمجا ، وأن ينسجما ، وأن يتوحّدا، كما كان لا بد من ذلك لو أدرك المتطاولون أن الحقيقة هي واحدة من أيّ الجهات نظرت إليها .

والخطر كل الخطر في الدين إذ ينزل إلى مستوى التجمع الطائفي الطقسي ، أي في الحقيقة ، إلى مستوى التعصب السياسي ، فلا يعود دينًا بل حزباً .

ولكن الخطر أعمق وأوفر وقوعاً وأدهى غشاوة على النفوس في الفلسفة العقلانيّة – كلّ فلسفة عقلانيّة ، الفلسفة التي لم يختبر صاحبها بنفسه ماهيتها ، والتاريخ ذاته – إن توفر الاستناد إليه – لا ينقذه من الزلل ومن التضليل ، لأن التاريخ ليس بعلم صحيح حتى الساعة : فلكلّ بلد وجهة في التاريخ ، ولكلّ طائفة تاريخ ولكلّ جماعة تاريخ ولكلّ حزب تاريخ ولكلّ عائلة تاريخ .. التاريخ يجمع كل شيء ولا يحوي شيئاً .

حتى إن تاريخ الاكتشافات العلميّة لم يتفق (مؤرخو) الدول والجماعات على مضمونه ..

التاريخ أكبر عنصر لتضليل الجماعات في الشرق والغرب على السواء ولاستعبادها . التاريخ خرافة معقولة .. التاريخ ، كما كان يقول فاليري ، هو أشنع كيمياء أنتجها دماغ البشر..

الخطر في الفلسفة العقلانيّة المؤسسة في « هواء التمنطق » الرحب ، أو المسندة بعض ذيولها إلى « حقائق » التاريخ الخرافيّة ، الخطر والخطأ في الفلسفة العقلانية هو الخطر ذاته الذي يواجه الصياد الذي يصوّب بندقيته إلى طير . وهو لا يدري أن هناك اختلالاً في « قصبة » البندقية قدره شعرة صغيرة ولكنه يتجسم في اختلال قدره العديد من الأمتار في البعيد القصي .

الفلاسفة العقلانيون جماعة من الصيادين لن يرتدعوا ولن يتنبهوا إلى الخطإ في إصابة الهدف البعيد الناجم عن اعوجاج الآلة بين أيديهم ، إلا يوم يضجرون من تجربة فلسفتهم على البشر ، ومن توالي هذه التجربات ، ذلك التوالي الضروري لإرشادهم إلى مصدر الخطإ ، ولكن الويل في كلّ حال للمجرب الفيلسوف وللشعب المجرَّب عليه .

أوَما كان أحرى بهم أن يختبروا تلك الفلسفة على ذاتهم قبل عرضها وبيعها على الناس في الأسواق المزدحمة بالجماهير ؟

AUB LIBRARIES

معراج الموت في التطور والبقاء

« إن الحياة الحقيقية ، أي الوجود ، تتعدى الموت والحياة » .

شري أتماننداً

إن الموت ليس بحد ذاته ذا شأن إلاّ بالنسبة لكثرة من النفوس الضعيفة المريضة المتعامية عن حقيقة الحياة والموت ، التي لم تتعرف بعد إلى أن الحياة والموت توأمان مزدوجان ، فلا حياة بدون موت ، ولا موت بدون حياة ، كما ندرك ذلك في الأشكال العليا للكائنات الحيّة ... وإنما يتعدى الموت والحياة ذاك الذي تفتّحت روحه إلى حقيقتها ، إلى جوهرها الأصيل ، إلى أصالتها في الوجود والخلود — وهي حال الروح التي تتكشّف لها صلة الأزل بالزمن المنصرم وعلاقة الروح الفردية بالروح الكونيّة : روح الله ، أو سمّه ما شئت ، فهو القائم بما يتعدى الاسم والصفات والزمان والمكان وبما يخالف حال الموت والحياة .

AUB LIBRARIES

إن حدث الموت ليس بحد ذاته ذا قيمة وليس له شأن كبير ، وليس هو قصاصاً ولا عذاباً أليماً ولا عقوبة إلهيّة على خطيئة وهمية رمزيّة ... إنّه شريعة الحياة في مراحل تطلّعها نحو تحقّق أهدافها ومراميها الأخيرة . فالموت يرافق الحياة كما يرافق النور الظلمة ، والغفو الصحو ، واللذة الألم ، والخير الشرّ ، والوجود العدم ... فإذا بطل أحد المتعاكسين ، أو بطل أوّل مظهر لهذه الازدواجيّة بطل الآخر ... إنما المهم أن نسأل كيف مات فلان ، بأي حال تيقّظت روحه إلى ما لا تدركه فكرة يقظتنا الموهومة هذه ...

يقول الكسي كارل : إن في الموت تتميماً للشخصية ، وإنّه هو البدل الذي ندفعه للحياة مقابل حصولنا على الشخصية وتمتّعنا بها حرة ، فاضلة ، قادرة ، كاملة . فبعض الحيوانات الدنيا ، كالكائنات ذات الخليّة الواحدة ، لا تعرف الموت كما يوضحه لنا العلم الحديث . فهي عمليّاً خالدة – إلا لعارض يطرأ عليها – منذ أقدم حقَب تاريخ الحياة على وجه الأرض ، أي منذ ما يقرب من مليار وخمسمائة مليون سنة ، منذ العصر الجيولوجي الأوّل ، ولكن لا يبدو أن لهذه الخلية إلاّ القليل من الفرديّة المتمركزة المميّزة ومن الشخصية البدائية ، لقلة ما يكتنف هيكلها من تشابك ، وتعقّد في الأغشية والأعضاء والحواس ، ولقلة ما تبرزه من تنوع في وظائف الحس ... وفي سلّم تطوّر

الحياة نحو تحقق فصائلها وأشكالها العليا ، يظهر لنا الموت كأنّه ابتكار للحياة ، كأنّه جدّة في طريق الحياة ، وتتقوى معه ظاهرة الفردية والشخصية تدريجيّاً إلى أن تبلغ ذروتها في هذا الكائن الغريب العجيب : الإنسان ، والذي قد يكون وقد لا يكون المرحلة النهائية للتطور ...

وفي مرتبة الإنسان يطرأ على هذا التنوّع بالشخصيّة وبالفردية تطور وتحوّل وترفُّع غريب كرجوع الحياة على ذاتها ، وكوعي الحياة للحياة ، وكإدراك الوجود لذات الوجود . ففي البطولة ، وفي الصوفيّة ، وفي القداسة تتقوى عناصر الشخصيّة ، ولكن تزول منها وتمّحي مقومات الفرديّة ، – معالم الأنانيّة – فتضحي الشخصيّة من العمق ومن الشمول ومن الوحدة ومن البساطة القادرة بحيث تحيط الزمن وتحيط الوجود بأسره . فيدرك المدرك في آن واحد المستقبل والماضي ، وجوهر الكائنات الدنيا والغيبة التي نتصورها وراء هذه الدنيا ، وهي الحقيقة ، وإنما نحن الغيبة . فكأن الإنسان المتطهر من ذاته له عينان وحسّان ، عين في ذا وعين في ذاك ، أو كأن الوجود الظاهر شيء من ذاته ، لا يتميز ولا ينفصل ...

(من تأبين المرحوم عبد الحميد كرامي)

AUB LIBRARIES

أفضل الشعر

« إن المبدع جل اسمه كالناطق الفائض بما عنده من المعاني والجواهر كلها للمستمعين منه » .

هرمس

الشعر ، أفضل الشعر ، هو الذي يلقي نوراً على كينونة الحياة ، أي على الحقيقة وعلى الجمال . والجمال شعشعة الحقيقة ووجهها المختبىء فينا ، وهي جوهر ذاتنا وسدى ولحمة طبيعتنا الأصيلة الأساسيّة .

والشعر يتكوّن في هذا المرتقى ويتبلور في هذا المستوى من الباطن الذي يعقل فيه الإنسان بذور العواطف والأفكار ، ويتحسّس ببروز الأنا الفرديّة من حيث تولد الأفكار وتنبع العواطف — أي في نطاق الوعي المتحوّل الذي يقوم بين المعرفة المحض ، أي عدم القدرة على العقل وعلى التعبير ، وبين القدرة على عقل الصور وتعبيرها — كأنّ الإنسان يكون على الدوام في انخطاف يقظة ، تحجبه تارة عن ترجمان اللسان وأداة

AUB LIBRARIES

الإخراج ، وتدنيه تارة أخرى من التجسّد والحلول في الحرف الملفوظ . . وهكذا دواليك، إلى أن يتمّ القصد ويكتمل القصيد . فالشعر هو شعر الداخل الباطن ، لا الخارج ، والموسيقى موسيقى الجنان لا الأنغام المسموعة والألحان .

وما ضرّ هذا الشعر أن يُكتب بقوالب الإيقاع أو النثر . فهو محاولة انعكاس الجمال في مرآة الجمال ، ومن ثم في حيّز الصوت ، أي في المتى والأين . . والزمان والمكان وتر الوجود وريشته يلعب عليها الواحد أنغام وجود الواحد .

« إن مياه البحار قد تدفّقت على قلبي وعشت في ساعة واحدة حياة ألف ألف ربيع » . (كريشنا موروتي) .

هذا النوع من الشعر استشفّه وأدركه الحكماء وكبار المتصوّفين والأبطال والأولياء وشعراء الروح الحقيقيّون ، فكان لشعرهم ونثرهم – ومن ضمنه غزلهم الوجداني – هذه الروعة التي لا تبارى ولا تجارى .

والنوع الثاني من الشعر هو الذي يتّصل بحياة الإنسان ، فيحاول تصويرها على أحق وأدق وأفضل ما يمكن ، وعلى ما فيها من تزاوج المادة والفكر وازدواجهما وتشابكهما ، وانعكاس الحقيقة في الوجود الظاهر واختلاطها بأنانيّة التنوّع ، وما يتجسّد في الكائنات من إنسانيّة ترفع ومن بشريّة تنزل وتهوي .

فهو الشعر الذي يتعلّق بالرغبات ويعلق بالأغراض ، لا بالشخص المدرِك وبالعقل العاقل الواجد للرغبات وللأغراض ، أي بالشاهد المنزّه المجرّد عن المتى والأين . وقد يحاول هذا الشعر أن يرتفع بالإنسان إلى نقطة ارتكازه ومحور وجوده ، ولكنّه في كل حال لا ينبعث ولا ينشقّ ، متدرجاً متنزّلاً ، من هذا المرتكز الأرفع ومن هذا المحور إلى ما دون .

لقد تعرّف جلال الدين الرومي وشمس الدين التبريزي والعطّار وشيكسبير وغوته وتينسون ودوستويفسكي وطاغور وجبران وحفيظ والخيام ، وسواهم ، إلى بعض أسرار هذا النوع الأوّل من الشعر ، على قلّة عند فريق وكثرة عند فريق . ولم يدرك سائر الشعراء إلاّ النوع الثاني . شعر وصف الأغراض ، لا حقيقة الأغراض والأشياء . .

* * *

وفي معنى آخر فإنّ الشعراء على أصناف أو مراتب ثلاث : منهم من يصف الأغراض — أي الصور الحسيّة والعواطف والأفكار — التي يقع عليها النور . وهذا في الحقيقة ليس بشعر . . ومنهم من يصف الأغراض وانعكاسات النور عليها ، دون أن يتلفّت — في خدعة جهله وانجذاب عقله — إلى مصدر الأشياء وينبوع النور . وهذا شعر المتفوّقين . ومنهم من غاصت عيناه في لجة النور فغاب في النور وأضحت موسيقى

النور سعادة ذاته ، فإن صدف له وخرج من ذاك النطاق السحري المسحور قال ما قال ، لا لكي يسمعه الناس – وهم ليسوا في سكرة الدّنيا بموجودين – بل لكي يراقب حقيقة ما يشاهد . وهو أعظم الشعراء وأعظم البشر : فما همّه إن صاغ شعراً أو كتب نثراً ، أو سكت جيلاً ، فالشعر ملء برديه وطفح جنانه . والشعر واللحن وروعة الشكل الجميل نغمٌ من أنغام وجوده الممتلىء الفائض .

AUB LIBRARIES

أدب الجمال الأصيل وطعام الشياطين

« أما آن لك أن تتطهري مما حولك لتصبحي في أعلى عليين ما بين مساقط النجوم » .

إمحوتب

إن الآداب والفنون كانت ملهاة لعب الآلهة ، فلا تجعلوا منها أغراضاً للإلهاء في المعنى السقراطي والباسكالي القديم ، أو مصدراً للتهديم ولإشاعة الانحلال ، أو طعاماً لبعض الشياطين.

الأدب الحقيقي هو الذي يرتقي بالنفس ، يرفع ولا ينزل ، يصون ولا يهدم ، يبعث السعادة لأنّه يبعث الجمال الأصيل في النفوس حيّاً ، وإذا لم يكن الجميل فينا وجهاً لطبيعتنا الحقيقيّة ، فكيف نستطيع أن نتذوّق الجمال ؟ . . والجمال بحدّ ذاته معراج ، لا هوّة تحوّل وتوقف أو انزلاق .

الأدب والفن هو تعبير عن هذا الانسجام الرفيع بين العقل والقلب ، على ضوء وعي الحقيقة الأخيرة المطلقة ، أو هو على الأقل تعبير لانعكاس هذه الحقيقة الأخيرة في الحقائق

AUB LIBRARIES

الجزئيّة والتفصيليّة التي تبرز في نطاق الدين والدّنيا والسياسة والوطن والتاريخ والحضارة والحياة بشكل عام ..

الأدب والفن مسلك للارتقاء ولترقية الآخرين ، وليس هو بضاعة ينتجها أصحابها في قصد الوصف والإثارة ، لأجل بيعها والاتجار بها في الأسواق .

والفن لأجل الفن خرافة ووهم وتضليل يخفي معظم الأحيان أنانيّة الذين يريدون أن ينبشوا أنانيّتهم ويظهروها ويعمّموا مشاكلها وانحرافاتها على الناس .. وهو من هذا القبيل ظاهرة مرضيّة للجيل الذي نعيشه ..

الفن يتعدى في الواقع الجمال ذاته ، ليعكس ما أمكن صورة تجلّي الحقيقة فينا وحولنا .. وهذا التجلي يكون في النفوس مصدراً وباعثاً للجمال ، لشعور الجمال الذي هو بدوره صورة لطيفة لا أكثر لهذا التجلي ، لا يحتضن في استنباطه واستشفافه وتقرّبه من الموضع الحبيب إلاّ على قدر ما تستطيع صفحة مياه البحار الراكدة أن تعكس من مجموعة ضوء الشمس المتجوهر في العلاء والساطع في إطلاقه ..

AUB LIBRARIES

خاتمة

« يا نفس إن غرض الحق ، وهو ما يقضي به العقل ويحكم ، هو أن تكون الأشياء على ترتيبها الطبيعي ثابتة قائمة » .

هرمس

هذه بعض المعاينات لمواقع الإنسان المعاصر من شؤون الحضارة والآلة والنّظم والنظريّات الّتي لا تزال تسيطر عليه . وهي تدلّ إلى نزعة أخذت تتصوّر في الذهن العام ، تقضي بأن يتعدّى فعلاً هذا الإنسان جميع النظرات المحض معتقديّة والإيديولوجيّات السابقة المرتّهنة للتفكير والتصرّف البشريّين والحاجزة لتطوّرهما في قوالب موروثة من مفاهيم خاطئة أو محدودة للعلم وللفلسفة والاقتصاد والسياسة كما برزت في القرنين السابقين وفي بدايات القرن العشرين أيضاً .

على قدر ما نستطيع أن نتوقّف قليلاً لنحلّل الاختبار البشري في جميع الحقول ، ولنميّز ونتأمّل في مجاري واقعه على ضوء التاريخ كلّه والعلم كلّه ومشارفة الأديان والمسالك

AUB LIBRARIES

الروحيّة والفلسفة الحكميّة الأصيلة كلّها – كأن الإنسان ، في جميع تقلّباته ومراحل تطوّره وتعاقب ثقافاته وحضاراته ، هو الإنسان الاجتماعي ذاته الذي يغنى بتراث نفسه ، أو كأنّه يعيش في التزامها وارتباطها وتشابكها واتّصالها دائماً وأبداً ولا يموت بوصفه كذلك – على قدر ذلك يمكننا أن نبعد شبح الكارثة عن عالمنا وعن حضارتنا ، وأن نحقّق كلّ ما من شأنه أن يُسهم في نجاح حياة الإنسان ، على حدّ تعبير الكسيس كاريل ، أي في العودة به إلى غايات وظروف ومناهج طبيعته البيولوجيّة والنفسيّة وإلى نزعات الطبيعة ومراميها من إبداعه وتطوّره . والإنسان في هذه المواجهة انعكاس وامتداد للكون وقواه وطاقاته بأسرها .. ففعلاً وواقعاً لقد « انطوى فيه العالم الأكبر » ، كما يوضح ذلك العالم النفسي كارل جونغ .

سنكمل هذه المقابسات والمواجهات بأبحاث أخرى ، يُقصد منها التركيز على المعالم والأسس الحقيقيّة للحضارة الـتي تتوافق مع طبيعة الإنسان الحيّة والنفسيّة ، والتأكيد بأنّه لأوّل مرّة ربما أو لمرّات قليلة في التاريخ ، نستطيع بفضل تعميم المعرفة الصواب – إن نحن شئنا – أن نتجاوز حتميّة قدر بعض سنن التاريخ وعثراته ..

AUB LIBRARIES

فهرست

تقدمة ٥
لماذا أنا اشتراكي ٧
الحزب التقدّمي الاشتراكي والتطور . . . ١١
التقدميّة الحقيقيّة والإنسان ٣٢
مجتمع الكفاية والعدل ٦٥
نظام الدولة : الديموقراطية الاجتماعيّة السياسيّة . ٨٧
الشعب ١٠٣
الاشتراكيّة والعالم الجديد ١٢٧
الروحيّة التقدميّة الاشتراكيّة ١٥٦
دور الأحزاب والهيئات الاجتماعية . . . .
في مستقبل الديموقراطيّة ١٧٩
أزمة الديموقراطية ونظام الحكم الجديد . . . ٢٠١
دور المثقفين في الوطن ٢٣٢
التربية المدرسية والاجتماعية ٢٥٦

توجُّه في الأدب والفلسفة والدين والمعرفة والحياة . ٢٧٩
ماهيّة العلم ٢٨١
وطن الوحدة في نفوسنا ٢٨٩
الأدب تفتُّح والتزام ما أمكن ، لا إلزام ٢٩٨
التربية والتعلّم والمعرفة ٣١٢
في معيار الاختبار ٣١٨
معراج الموت في التطور والبقاء ٣٢٣
أفضل الشعر ٣٢٦
أدب الجمال الأصيل وطعام الشياطين ٣٣٠
خاتمة ٣٣٢
كتب صدرت للمؤلف ٣٣٥

AUB LIBRARIES

١٩١٧ - ١٩٧٧

«وكم من محبة أثمرتها شجرة المعرفة، وأية محبة تعلو محبة الحقيقة وتسمو عليها. فإذا عرفت، تعبّدها العارف وتملكته...»

من هذا المرتقى عالج الكتاب مفهوم الإشتراكية وروحيتها، والتقدمية الحقيقية والإنسان، ودور الأحزاب والهيئات الاجتماعية والمثقفين في مستقبل الديموقراطية. كذلك تطرق إلى أزمة الديموقراطية ونظام الحكم الجديد، والتربية والتعلّم والمعرفة، ومفهوم الأدب حيث هو «تفتح والتزام ما أمكن، لا إلزام».

AUB LIBRARIES